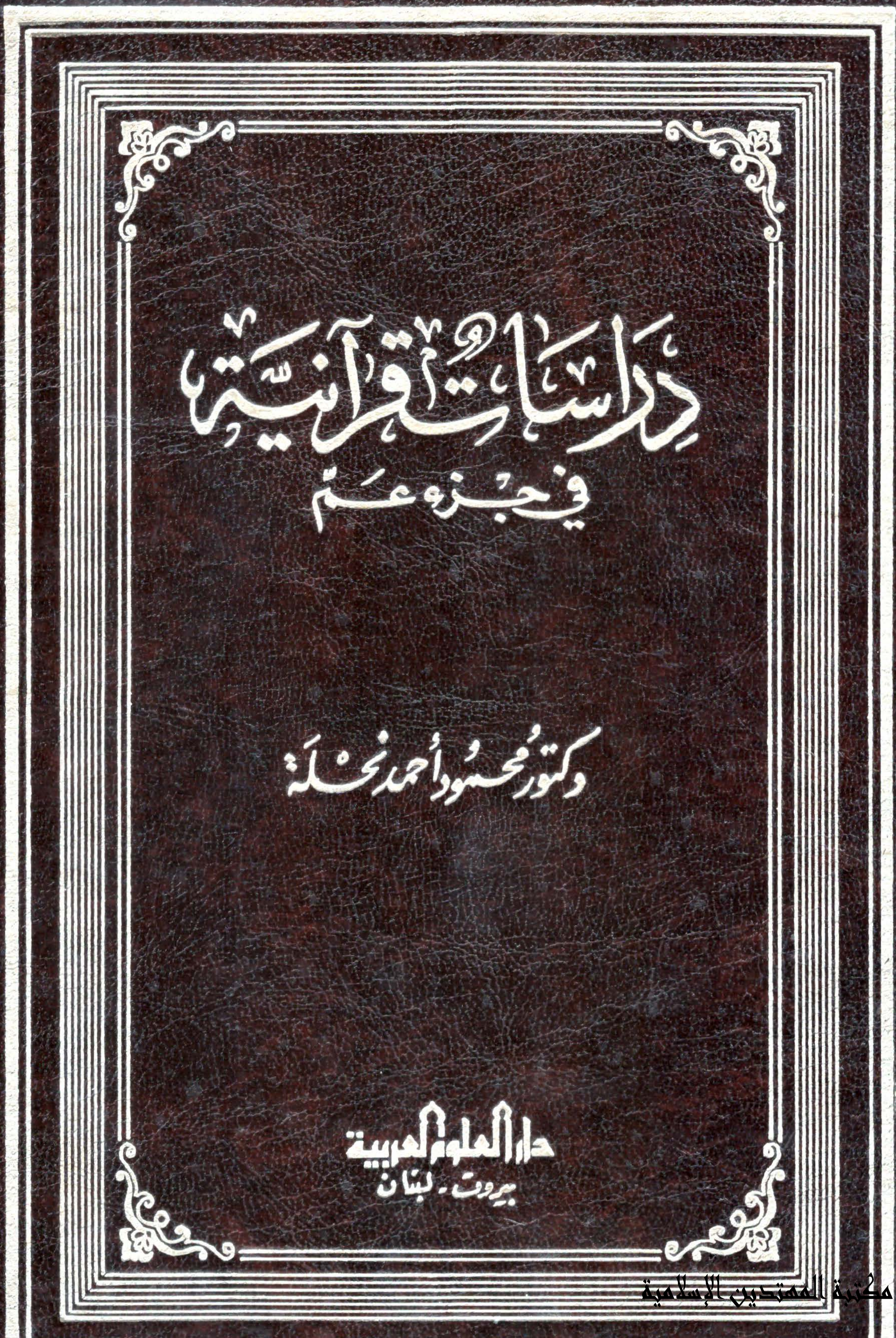

دراسات قرآنية
في جزء عم
دكتور محمود أحمد نحلة
دار العلوم العربية
بيروت - لبنان
مكتبة المهتدين الإسلامية



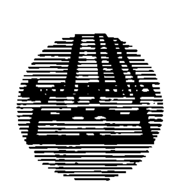
دكتور محمود أحمد نحلة

كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

كلية الآداب - جامعة بيروت العربية







الطبعة الأولى
١٤٠٩هـ ١٩٨٩م

الناشر
دار العلوم العربية
للطباعة والنشر
مقابل جامعة بيروت العربية
بناية عنان
هاتف : ٣٠٧١٧٣
ص.ب : ٩٥٣٥-١١
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

لا يزال القرآن الكريم وِرْداً مورداً تتناصر إليه العزائم ، وتترافد الهمم ، على كرّ الحقب ، ومرّ الأزمان ، ولا يزال الباحثون يجدُّون في اكتناه أسرار بيانه ، واستظهار أسباب إعجازه ، وهو لا تنقضي عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الردّ .

وهذه دراسة لغوية لأسلوب القرآن الكريم في جزء عمّ ، أقدمها ـ على استحياء ـ للمكتبة القرآنية الحافلة بثمرات القرائح والأفهام لأفذاذ الرجال وأعلام العلماء ، بذلت فيها من الجهد ما أرجو معه أن تجد مكاناً متواضعاً في ناحية منها ، وحاولت جهد الطاقة أن أستكمل بها جهود العلماء القدماء في الدراسة « النصّيَّة » للقرآن الكريم دراسة تحليلية ، إذ ظهر لي أنّ أغلب جهود المحدثين يدور حول النص ، وما يثيره من قضايا فكرية ودينية ، وما يتصل بذلك من تفسير لغوي عابر وقريب ، دون محاولة جادَّة لدراسة النصّ ذاته في ظواهره اللغوية المختلفة : صوتية ، وصرفية ، ونحوية أو تركيبية ، ودلالية .

ومن ثمّ أرجو أن يكون هذا البحث أول دراسة لغوية حديثة لأسلوب القرآن الكريم عمدتها النص القرآني ، وإن اتخذ من جهود السلف الصالح معواناً

على الفهم والاستبصار ، ومن جهود المحدثين في علم اللغة ما يكشف عن جوانب جديدة من الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم .

ولقد أدركت ـ بَدْءاً ـ صعوبة هذا البحث ، ووعورة المسلك فيه ، وما يتطلبه من عدة فكرية ، وعتاد ثقافي ولغوي ، وإحاطة واعية بما أسلف العلماء فيه ، واتصال بما انتهت إليه جهود المحدثين من علماء اللغة الذين يملكون من وسائل البحث العلمي الحديث ومناهجه ما لم يملك القدماء ثم تذرع بالصبر الصابر على رصد الظواهر اللغوية والأسلوبية التي لا تسلم قيادها لكل أحد ، إلا من كان له عزم ، وطولُ رويةٍ ، وأناة .

والدراسة اللغوية للأساليب الأدبية يطلقون عليهما مصطلح (Stylistics) وهو مصطلح جديد على الدرس اللغوي ، وضعه العالم السويسري شارل باليه ((Charles Bally)) [١] في أوائل هذا القرن حين وضع كتابه المشهور : « مبحث في علم الأسلوب الفرنسي » (Traité de stylistique Française) [٢] سنة ١٩٠٩ ، وإن لم يكن يَعْنِي به في البداية دراسة الأسلوب الأدبي[٣] .

وقد اهتمّ « باليه » ومن تبعه بتأسيس نظام عام لإمكانات علم الأسلوب (Stylistics Possibilities) يمكن تطبيقه على كل الأعمال الأدبية في كل اللغات ، ومفتاح هذا النظام عندهم وضع القاعدة التي تقاس بها « الانحرافاتِ » الأسلوبية عن النموذج المعهود أو المألوف في التعبير ، أو ما يطلقون عليه (Deviation from a norm) [٤] .

---

(١) Hough (Graham); Style and Stylistics (New York 1969) P. 25.

(٢) Ibid P. 27.

(٣) Ibid P. 25.

(٤) Hough; Style and Stylistics (New York 1969) PP. 27-31.

على أنّ علم الأسلوب قد تطور بعد « باليه » على يد العالم الألماني « ليو سبترز » (Leo Spitzer) الذي وجه اهتمامه إلى تبين الظواهر الأسلوبية داخل نص معين للكشف عن التركيبات اللغوية البحتة التي تميز الكاتب من غيره[1] .

وذلك ما حاولناه في هذا البحث : أن نبحث عن الظواهر اللغوية والأسلوبية التي تميز لغة القرآن الكريم في جزء عمّ ، والتي تعد خروجاً على النسق المألوف للتعبير في اللغة المستعملة استعمالاً غير فني ،

وقد اصطنعت في ذلك المنهج الوصفي التفسيري لا التقريري ، ولم يكن التفسير لغوياً حسب ، بل كان أيضاً تفسيراً فنياً ، مع الاعتماد على الإحصاء اللغوي والمقارنات اللغوية في كثير من المواضع لتتكشف الحقائق واضحة للعِيَان ،

وبعد . فهذا بحث جديد ، فيه ما في البحوث الجديدة من طموح ، واستشراف لافاق فريدة في البحث العلمي ، ورغبة جادّة في إضافة شيء مذكور إلى جهود السابقين ، وإيمان بأنّ باب الاجتهاد لا يزال مفتوحاً ، فما أكثر ما ترك الأول للآخر !

واللّهَ أسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه ، وأن يجنبني زَلَلَ القلمِ ، وخَطَلَ الرأيِ ، إنه نعم المولى ، ونعم النصير .

---

(١) Ibid P. 59.

تمهيد

الخصائص التعبيرية للغة الأدبية قبل الإسلام

ونريد أن نفرق بين خصائص العربية ، والخصائص التعبيرية للغة العربية ، فالأولى من حيث هي معزولةٌ عن السياق أو الاستخدام الفني ، والثانية هي هذا الاستخدام الفني أو طرائق التعبير والتركيب ، أو خواص النظم والأسلوب ، أو ما شئت من هذه المصطلحات التي تدل على التصرف في فنون القول ومناحي البيان .

وقد كتب الباحثون قديما وحديثا في خصائص العربية ، واجتهدوا في بيان ما تنماز به من سائر اللغات كابتعادها عن البدء بالساكن ، أو استخدامها أوسع مدرج صوتي في جهاز النطق الإنساني أو نحو ذلك[1] .

وأما الخصائص التعبيرية للغة العربية فلم يعرض لها أغلب القدماء إلا في سياق حديثهم عن التعبير القرآني ومميزاته[2] ، مدفوعين بما وقر في

---

(١) انظر على سبيل المثال : سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ، والخصائص لابن جني والصاحبي في فقه اللغة لابن فارس وفقه اللغة وخصائص العربية للدكتور محمد المبارك ومناهج البحث في اللغة للدكتور تمام حسان ، واللغة الشاعرة للأستاذ العقاد ودراسات في اللغة العربية للدكتور خليل يحيى نامي .

(٢) عرض ابن جني في الخصائص لبعض الخصائص التعبيرية ، في سياق حديثه عن قضايا اللغة والنحو كما سيأتي .

أذهانهم من أن القرآن عربي جاء بسنن العرب في كلامهم . وقد عبر ابن فارس (٣٩٠ هـ) عن وجهة نظرهم بقوله : « وجاء هذان البابان[١] في نظوم كتاب الله - جل ثناؤه - وكذلك ما يجيء بعدهما ما نذكره من سنن العرب ، لتكون حجةالله - جل اسمه - عليهم آكد ولئلا يقولوا : إنما عجزنا عن الإتيان بمثله لأنه بغير لغتنا ، وبغير السنن التي نستنها . لا ، بل أنزله - جل ثناؤه - بالحروف التي يعرفونها وبالسنن التي يسلكونها في أشعارهم ومخاطباتهم ، ليكون عجزهم عن الإتيان بمثله أظهر وأشهر»[٢] .

ومن ثم استباح هؤلاء لأنفسهم أن يجدوا لكل ظاهرة تعبيرية في اللغة القرآنية نظيرها في شعر الشعراء جاهليين وإسلاميين ، فوقعوا بذلك في مزلقين :

أحدهما : أنهم لم ينصوا على ظاهرة تعبيرية تفرد بها القرآن[٣] ، وهو أمر نعجب له ، إذ المعروف عند عامة النقاد - والقياس هنا مع البون الشاسع - أن لكل أديب كبير سماته الأسلوبية الخاصة التي تميزه من غيره ، فما بالك بهذه المعجزة البيانية التي تحدى بها الله - جل وعز - فصحاء العرب وبلغاءهم ، فأبلسوا وما استطاعوا إليها سبيلا ، حتى وصفوها بالسحر ، وإنما هو سحر البيان .

الثاني : أنهم لم يقتصروا في استشهادهم على الشعر الجاهلي ، بل مضوا يستشهدون بنماذج من شعر الإسلاميين غافلين عن تأثر هؤلاء بلغة القرآن وأسلوبه وكثير من شواهدهم غير معزو إلى قائل ، وبعضها معزو إلى

---

(١) يقصد : الحقيقة والمجاز .

(٢) ان فارس : الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها (تحقيق د. مصطفى الشويس) بيروت ١٩٦٤ ص ١٩٨ .

(٣) عقد ابن فارس في الصاحبي بابا لنظوم القرآن لم يأت فيه بشيء ذي خطر وسيأتي حديث ذلك .

قائل مغمور مما يجعلنا نقف موقف الريبة والحذر من بعض هذه الشواهد .

وكانت السبيل ـ فيما أرى ـ هي البحث في الخصائص التعبيرية للغة الشعراء والناثرين قبل الإسلام ، واستخلاص السمات التعبيرية المتكررة التي تمثل ظواهر تعبيرية ثم عرضها على لغة القرآن الكريم ، أو عرض لغة القرآن الكريم عليها ليُعلَم ما تفردت به اللغة القرآنية من خصائص فنية ، وسمات أسلوبية ، هذا التفرد الذي لن يخرجها بحال عن اللسان العربي المبين .

على أننا لا نعرف باحثا حديثا عرض لهذا الأمر على النحو الذي أشرنا إليه فإذا تحدث د. شوقي ضيف عن هذه الخصائص قسمها إلى خصائص معنوية تتمثل في البعد عن التكلف ، والبعد عن الإغراق في الخيال ، وخصائص لفظية تتمثل في تكامل الصياغة والاستعانة بطائفة من المحسنات اللفظية والمعنوية[1] !.

وإذا عرض الأستاذ العقاد لمزايا الفن والتعبير في اللغة العربية عرض لملامح عامة دون أن يخص عصرا من العصور مغفلا ما قد يطرأ على الأساليب من تطور وتغير عبر الأعصار الأدبية المختلفة وخلط إلى حد ما بين خصائص العربية والخصائص التعبيرية .

والحق أن هذا موضوع جِدُّ عسير ، وليس في طاقة باحث فرد أن يجمع كل الخصائص التعبيرية للغة الأدبية قبل الإسلام ، فهذا يتقاضاه إحاطة تامة بكل ما وصل إلينا من آثار أدبية في العصر الجاهلي ومعايشتها في أناة وصبر ردحا طويلا من الزمن حتى تسلم له خصائصها التعبيرية ، ومن ثم فنحن ندعو الباحثين إلى دراسة لغة الآثار الأدبية قبل الإسلام دراسة مستأنية ، واستظهار خصائصها التعبيرية ، لتستبين لنا عبقرية اللغة ونقف على أسرار التعبير فيها ،

---

(١) د. شوقي ضيف : العصر الجاهلي (دار المعارف ١٩٦٠) ص ٢١٩ وما بعدها .
(٢) عباس العقاد : اللغة الشاعرة (مكتبة غريب « دون تاريخ ») ص ١٢ وما بعدها .

وعندها نستطيع أن نقرر ما تميزت به لغة القرآن الكريم من سمات أسلوبية وفنون تعبيرية .

ولقد أحس أستاذنا الدكتور زكي مبارك هذه الصعوبة ، وأضاف إليها صعوبات أخرى ودعا إلى مثل ما ندعو إليه الباحثين من توجيه هممهم إلى هذا الميدان الشاق حيث يقول : « فمن الواجب أن يترك الباحثون ذلك الميدان الذي أولعوا بالجري فيه وهو عصر الدولة العباسية ، وأن يجعلوا ميدان النضال عصر النبوة نفسه ، وأن يحدثونا ما هي الصلات الأدبية والاجتماعية التي وصلت إلى العرب من الخارج فأعطت نثرهم تلك القوة وذلك الزخرف اللذين نراهما مجسمين في القرآن . هنالك نعرف بالبحث : أكان القرآن صورة عبقرية أم تقليدية ولكن مثل هذا العمل خطر على الباحثين المسلمين في الوقت الحاضر ، لأن الرأي العام في مصر والشرق الإسلامي لا يسمح بدرس القرآن درسا تحليليا يبين ما فيه من العناصر العربية الصميمة والعناصر الدخيلة ، والمستشرقون أيضا لا يهتمون بمثل هذا البحث لأن أكثرهم مقتنع بأن العرب لم يكن لهم وجود أدبي قبل الإسلام . . ولنفرض جدلا أن المسلمين المعاصرين يسمحون لكاتب مثلي بمعالجة هذا البحث ، وأن المستشرقين اهتموا به فستظل المسألة في رأيي معقدة صعبة الحل لأنه لا يمكن الوصول إلى يقين في تحديد العناصر الأدبية التي يحتويها القرآن إلا إذا أمكن الوصول إلى مجموعة كبيرة من النثر الفني عند العرب قبل الإسلام تمثل من ماضيه نحو ثلاثة قرون ، فإنه يمكن حينذاك أن يقال بالتحديد ما هي الصفات الأصيلة في النثر العربي ؟ وهل القرآن يحاكيها محاكاة تامة أم هو فن من الكلام جديد ؟ ومفهوم أنه من المستحيل في الوقت الحاضر الوصول إلى نماذج أدبية تمثل من الأدب العربي ثلاثة قرون أو قرنين قبل الإسلام[1] . . . » .

---

(١) د. زكي مبارك : النثر الفني في القرن الرابع الجزء الأول (القاهرة ١٩٥٧) ص ٤٥ ، ٤٦ .

ولن يدفعنا ما قاله الدكتور زكي مبارك إلى اليأس من البحث ، ولا ينبغي له « فما لا يدرك كله لا يترك كله » كما يقولون . وسبيلنا إلى استجلاء ذلك تتبع جهود العلماء السابقين في هذا المضمار ـ وبخاصة أصحاب المنهج اللغوي منهم ـ تتبعاً تاريخياً ، وتحديد ما توصلوا إليه من خصائص التعبير وما أضافه اللاحق منهم إلى السابق ، ثم تمحيص ما جاءوا به من شواهد ، ورفض ما اعتمدوا فيه على شاعر إسلامي أو قائل مغمور ، أو كان غير معزو إلى قائل ، أو استشهدوا عليه بالقرآن وحده إلى أن يثبت لنا بعرضه على الأدب الجاهلي أنه سمة تعبيرية فيه .

الخصائص التعبيرية الأدبية في دراسات السابقين :

اتجهت دراسات القدماء إلى الاحتجاج بالشعر أكثر من النثر على غريب القرآن ومشكله وأسلوبه ، فالشعر ديوان العرب فيما يروون عن ابن عباس[1] . وقد ظهرت بذور هذا الاتجاه عند بعض الصحابة والتابعين . يقول ابن الأنباري : « قد جاء عن الصحابة والتابعين كثيرا الاحتجاج على غريب القرآن ومشكله بالشعر »[2] ، ويقول أستاذنا الدكتور محمد زغلول سلام : « وقد انقسم الصحابة في صدر الإسلام قسمين : متحرج من القول في القرآن . ومن هؤلاء أبو بكر وعمر وعبد الله بن عمر وغيرهم . وكان عبد الله يأخذ على ابن عباس تفسيره للقرآن بالشعر .

« والقسم الثاني الذين لم يتحرجوا وفسروا القرآن حسب ما فهموا من الرسول أو حسب فهمهم الخاص بالمقارنة إلى الشعر العربي وكلام العرب . ومن هؤلاء علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس ومن أخذ عنهما . وقد

---

(١) السيوطي : الإتقان في علوم القرآن (ط . الموسوية بمصر سنة ١٢٨٧ هـ) ١ / ١٦٤ .
(٢) المرجع السابق ١ / ١٤٩ .

وقف ابن عباس على رأس المفسرين بالرأي المتخذين من شعر العرب وسيلة إلى كشف معاني القرآن »[1] .

ولعل أهم ما وصل إلينا من محاولة ابن عباس مسائل نافع بن الأزرق التي أورد منها السيوطي تسعا وثمانين ومائة مسألة ، وذكر أنه حذف منها بضع عشرة .

ونحن نرتاب في أن يكون ابن عباس قد أجاب عن هذه المسائل كلها في جلسة واحدة ، وأن تكون الشواهد الشعرية أسعدته هذا الإسعاد رغم ما عرف من قوة حفظه وما ذكروا من أن نافعا « جعل يسائله حتى أملّه »[2] . ونرتاب أيضا في أن يكون ابن الأزرق قد أعد نحوا من مائتي مسألة فسألها متتابعة كما يروون . ويؤيد ذلك أن الأمر قد بدا وحي الساعة عند نافع :

جاء في الإتقان بعد رفع السند إلى حميد الأعرج وعبد الله بن أبي بكر بن محمد عن أبيه : « بينا عبد الله بن عباس جالس بفناء الكعبة وقد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن قال نافع بن الأزرق لنجدة بن عويمر » : « قم بنا إلى هذا الذي يجترىء على تفسير القرآن بما لا علم له ، فقاما إليه فقالا إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا وتأتينا بمصادقة من كلام العرب ، فإن الله تعالى إنما أنزل القرآن بلسان عربي مبين ، فقال ابن عباس : سلاني عما بدا لكما »[3] .

وأيا ما كان الأمر فقد كان مذهب ابن عباس في الإجابة عن هذه المسائل تفسير اللفظ الغريب ثم الاحتجاج على هذا التفسير بالشعر ، وكانت

---

(1) د. محمد زغلول سلام : أثر القرآن في تطور النقد العربي (دار المعارف بمصر ١٩٦٨) ط . ثالثة ص ٣١ ـ ٣٢ .
(2) السيوطي : الاتقان ١ / ١٦٤ .
(3) المرجع السابق ١ / ١٤٩ .

أغلب استشهاداته من الشعر الجاهلي ، وكان يعمد فيها غالبا إلى مشاهير الشعراء ، وقليل منها من شعر المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام ، وعدد منها غير منسوب إلى قائل . فقد استشهد بشعر عبيد بن الأبرص وعنترة ولبيد وطرفة وامرىء القيس والأعشى والنابغة وابن كلثوم وأمية بن أبي الصلت وابن الزبعري وعدي بن زيد وأبي محجن الثقفي وزهير ومهلهل والحطيئة وحسان بن ثابت وحمزة بن عبد المطلب وغيرهم .

وهذا نهج قويم انتهجه ابن عباس حين لم تكن المعجمات اللغوية قد ألفت ، فلم يكن بد من استقراء الاستعمال العربي للألفاظ حتى يمكن تحديد مدلولاتها ، ونلاحظ أن مسائل ابن الأزرق كلها لم تتعرض قط لخصائص التعبير القرآني ، ولا للسؤال عن بعض نظمه أو سمات أسلوبه .

ولكن من جاءوا بعده انحرفوا عن هذا النهج وتوسعوا فيه ، فشرعوا يستشهدون على الخصائص التعبيرية للغة القرآنية بالشعر دون نظر إلى ما تتميز به من ملامح أسلوبية وميزات فنية ، وأول من انحرف عن هذا النهج ـ فيما نعلم ـ أبو عبيدة معمر بن المثني التيمي في كتابه « مجاز القرآن » الذي يعد أول كتاب يبحث في أسلوب القرآن وتفسير غريبه .

مجاز القرآن لأبي عبيدة (٢١٠ هـ) :

اطلع أبو عبيدة على مسائل نافع بن الأزرق ، وكان في جملة رواتها : يقول المبرد : « حدث أبو عبيدة معمر بن المثني التيمي النسابة عن أسامة بن زيد عن عكرمة قال : رأيت عبد الله بن العباس وعنده نافع بن الأزرق ، وهو يسأله ويطلب منه الاحتجاج باللغة»[1] ويقول : « وروى أبو عبيدة في هذا الاسناد ، وروى ذلك غيره ، وسمعنا من غير وجه أنه سأله عن قوله عز وجل

---

(١) سيد بن علي المرصفي : رغبة الآمل في كتاب الكامل (مصر ١٩٢٩) ٧ / ١٥٤ .

(قد جعل ربك تحتك سريا) فقال ابن عباس هو الجدول فسأله عن الشاهد فأنشده :

سَلْماً تـرى الـدالـجَ منهَـا أَزْوَرَا   إذَا يَعِـجُّ في السَّـرِيِّ هَـرْهَرَا[1]

ويقول في موضع آخر : « ويروى عن أبي عبيدة من غير وجه أن نافع بن الأزرق سأل ابن عباس فقال : أرأيت نبي الله سليمان ﷺ مع ما خوله الله وأعطاه كيف عنى بالهدهد على قلته وضئولة حجمه ؟ فقال ابن عباس : إنه احتاج إلى الماء والهدهد قَنَّاء ، الأرض له كالزجاجة يرى باطنها من ظاهرها ، فسأل عنه لذلك قال ابن الأزرق : قف يا وقاف . كيف يبصر ما تحت الأرض والفخ يغطي له بمقدار إصبع من تراب فلا يبصره حتى يقع فيه . فقال ابن عباس ويحك يا ابن الأزرق أما علمت أنه إذا جاء القدر عَشِيَ البصر ؟ »[2] .

من هذه النصوص يتضح أن أبا عبيدة وقف على مسائل ابن الأزرق وأحاط بها وما أشك في أن هذه المسائل هي التي أوحت إليه المنهج الذي انتهجه في كتابه (مجاز القرآن) فهو كثيرا ما يقف أمام بعض الألفاظ الغريبة ليفسرها بطريقة ابن عباس يقول في تفسير الصراط : « الصراط الطريق ، المنهاج الواضح . قال :

فَصَدّ عن نَهْجِ الصـراطِ القَاصِـدِ

وقال جرير :

أميـرُ المـؤمنيـنَ علـى صِـراطٍ   إذا اعوجَّ المواردُ مستقيمِ[3]

وقال في تفسير « أندادا » واحدهما ند ، معناها أضداد . قال حسان :

---

(١) المرجع السابق ٧ / ١٥٥ .

(٢) المرجع السابق نفسه ٧ / ١٦١ .

(٣) أبو عبيدة : مجاز القرآن (تحقيق محمد فؤاد سزكين (الخانجي ١٩٥٤) ١ / ٢٤ .

أتهجوه ولستَ له بِندٌّ فشرُكما لخيرِكُمَا الفداء(١)

وقال في تفسير « أكنة » في قوله تعالى : « قلوبنا في أكنة » أي في أغطية واحدها كِنَان قال عمر بن أبي ربيعة :

تحتَ عينٍ كِنانُها ظلُّ بُردٍ مُرَحَّلِ (٢)

ولكن أبا عبيدة لا يقتصر على تفسير اللفظ الغريب والاحتجاج عليه بالشعر ، وهذا هو الخطر الذي لم يتنبه إليه أبو عبيدة ، وأخذه عنه بعض المعاصرين له ، وكثير من اللاحقين عليه ، فوقعوا بذلك في المزلقين اللذين أشرنا إليهما . وأبو عبيدة هو المسئول عن ذلك بما اختط من خطة ، وما نهج من نهج ، وكان خيرا له لو اقتصر على بيان هذه الخصائص في التعبير القرآني دون أن يكلف نفسه شططا من الأمور في البحث عن الشواهد من شعر الإسلاميين والمغمورين . والغريب أنه فعل ذلك في مقدمة كتابه ، ثم عدل عنه إلى الاستشهاد بالشعر في تضاعيف الكتاب . وربما دفعه إلى ذلك خشيته إن هو تحدث عن سمات التعبير القرآني وما تميز به أن يواجَه بهذا السؤال الضخم الذي ووجه به ابن عباس من قبل وهو « وهل تعرف العرب ذلك ؟» !!

على أن الشواهد الشعرية كانت تعوزه في بعض الأحيان ، فكان حيناً يكتفي بالإشارة إلى أن العرب تفعل ذلك ، وحيناً يأتي بمثال من عنده ، وقد يخرج على منهجه فيستشهد على كلام العرب بالقرآن الكريم .

فمما اكتفى أبو عبيدة فيه بالإشارة إلى أن العرب تفعل ذلك دون شاهد قوله في تفسير قول الله عز وجل ﴿وقلنا يا آدم﴾ هذا شيء تكلمت به

---

(١) المصدر السابق ١ / ٣٤ .

(٢) المصدر السابق ١ / ٤٦ .

العرب ، تتكلم بالواحد على لفظ الجميع »[1] ، وفي قوله تعالى ﴿ **كما بدأكم تعودون فريقا هدى ، وفريقا حق عليهم الضلالة** ﴾ نصبهما جميعا على إعمال الفعل فيهما ، أي هدى فريقا ، ثم أشرك الآخر في نصب الأول وإن لم يدخل في معناه ، والعرب تدخل الآخر المشرَك بنصب ما قبله على الجوار وإن لم يكن في معناه ، وفي آية أخرى : ﴿**يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما** »[2] .

ومما أتى فيه أبو عبيدة بمثال من عنده قوله في تفسير قوله الله ﴿**جعل الشمسَ ضياءً**﴾ وصفها بالمصدر ، والعرب قد تصف المؤنثة بالمصدر وتسقط الهاء كقولهم : إنما خلقت فلانة لك عذاباً وسجنا « ونحو ذلك بغير الهاء »[3] .

وفي قوله تعالى : ﴿**وقد بلغني الكبر**﴾ أي بلغت الكبر ، والعرب تصنع مثل هذا تقول هذا القميص لا يقطعني أي أنت لا تقطعه ، أي أنه لا يبلغ ما أريد من تقدير »[4] .

وفي قوله تعالى : ﴿**وإذ هم نجوى**﴾ « هي مصدر من ناجيت أو اسم منها فوصف القوم بها والعرب تفعل ذلك كقولهم : إنما هم عذاب ، وأنتم غم ، فجاءت في موضع متناجين »[5] .

ومما خالف فيه أبو عبيدة منهجه فاستشهد على كلام العرب بالقرآن الكريم قوله : « والعرب تصف الفاعل والمفعول بمصدرهما فمن ذلك جعله دكا أي مدكوكاً »[6] وكذلك قوله بعد أن أورد الآية الكريمة : ﴿**فصيام ثلاثة أيام في**

---

(١) المصدر السابق نفسه ١ / ٣٨ .
(٢) المصدر السابق نفسه ١ / ٢١٣ .
(٣) أبو عبيدة : المجاز / ٢٧٤ .
(٤) المصدر السابق ١ / ٩٢ .
(٥) المصدر السابق ١ / ٣٨١ .
(٦) المصدر السابق نفسه ١ / ٤١٦ .

الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة ﴾ « العرب تؤكد الشيء وقد فُرِغَ منه فتعيده بلفظ غيره تفهيماً وتوكيداً»[1] .

ومهما يكن من أمر فهناك « ظلان يقابلهما قارىء كتاب المجاز : أسلوب القرآن وأسلوب العرب »[2] وأبو عبيدة حريص على أن يؤكد صلة أسلوب القرآن وفنون التعبير فيه بأساليب العرب وفنونهم[3] .

ولسوف نتتبع خصائص الأسلوب العربي ، ونذكرها كما ذكرها أبو عبيدة ، ونرجيء تمحيصها إلى ما بعد الفراغ منها ومن غيرها. وهذه الخصائص كما أوردها هي :

١ ـ مخاطبة الشاهد مخاطبة الغائب : كقول خُفَاف بن نَدْبَةَ السُّلَمى وكان من غربان الجاهلية :

فإنْ تكُ خيلي قد أصِيبَ صَمِيمُهَا فعَمْداً على عينٍ تيمَّمْتُ مالِكَا
أقولُ له والرمحُ يأطُرُ مَتْنَه تأمَّلْ خُفَافاً إنني أنا ذَلِكَا

٢ ـ استعمال فعيل في موضع مُفْعِل ، قال ذو الرمة :

ونَرفعُ في صدورِ شَمَرْدَلاَتٍ يصُكُّ وجوهَهَا وهجٌ أَلِيمُ

(الشمردلة : الطويلة من كل شيء) .

٣ ـ الاقتصار على أحد الاسمين في الإخبار عنه استغناء بذلك ، وتخفيفاً ، لمعرفة السامع بأن الآخر قد شاركه ، ودخل معه في ذلك الخبر ، وأكثره الذي يلي الفعل قال عمرو بن امرىء القيس من الخزرج :

---

(١) المصدر السابق نفسه ١ / ٧٠ .
(٢) د . مصطفى الصاوي الجويني : منهج الزمخشري في تفسير القرآن ص ٢٨٠ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٨٠ .

نَحنُ بما عِندنا وأنت بما عِنْدَكَ راض والرأيُ مُختَلِفُ

وقال :

فمَنْ يكُ أمسَى بالمدينةِ رحْلُهُ فإني وقَيَّارٌ بِهَا لغَرِيبُ

وقال حسان بن ثابت :

إنَّ شَرْخَ الشبابِ والشَّعَرَالأسودَما لم يُعاصَ كان جُنونَا

ولم يقل يعاصيا .

وقال جرير :

ما كان حَيْنُكَ والشقَاءُ لينتَهِي حتى أزورَكَ في مغارٍ محصد

لم يقل لينتهيا .

وكقول الأعشى :

إنَّ امرَاً أهدَى إليكِ ودونَه من الأرضِ مَوْمَاةٌ ويَهْمَاءُ خَيْفَقُ

لمحقوقةٌ أن تستجِيبِي لصوتِه وأن تعلَمِي أن المُعانَ موفقُ

ترك الخبر عن امرىء وأخبر عن الناقة فخاطبها .

٤ ـ الاختصار لعلم المخاطب بما أريد . قال النابغة :

كأنكَ من جِمالِ بني أقيشٍ يُقَعْقَعُ خلفَ رجليه بشَنٍّ

أراد كأنك جمل يقعقع خلف الجمل بشن ، فألقى الجمل ففهم عنه ما أراد .

٥ ـ الخروج من الرفع إلى النصب إذا كثر الكلام . قالت خِرْنِق بنت هَفَّان من بني سعد بن ضبيعة رهط الأعشى :

لا يبعَدَنْ قومي الذينَ هُمُ سُمُّ العُدَاةِ وآفَةُ الجُزْرِ

النازلين بكل مُعْتَرَكٍ   والطيبين معاقد الأزْرِ

٦ - وضع اللفظ للواحد والمعنى يقع على الجميع . كقول عامر الخصفي :

هُمُ المولَى وقد جَنَفُوا علينا   وإنَّا من لقائِهمُ لزُورُ

وقول العباس بن مرداس :

فقلنا أَسْلِمُوا إنا أُخُوكُمْ   فقد بَرِئَتْ من الإحَنِ الصدُورُ

٧ - استخدام بعض في موضع كل كقول لبيد :

تَرَّاكُ أمكِنَةٍ إذا لم أرضهَا   أو يعتِلقْ بعضَ النفوسِ حِمامُها

فلا يكون الحِمام ينزل ببعض النفوس ، فيذهب البعض ، ولكنه يأتي على الجميع[1] .

٨ - إعادة الضمير إلى المضاف إليه ، وكان حقه أن يعود إلى المضاف . قال جرير :

رَأتْ مَرَّ السنينَ أخذْنَ مِنّي   كما أَخَذَ السِّرارُ مِنَ الهِلَالِ

وقال العجَّاج :

طولُ الليالي أسرعَتْ في نَقْضِي   طوينَ طُولِي وطوينَ عرضِي

٩ - جعل الاثنين في لفظ الجميع ، والجميع في لفظ الاثنين . قال الراعي :

أخُلَيدُ إن أباكِ ضافَ وسَادَهُ   هَمَّانِ باتا جَنْبَةً ودَخِيلَا

طرقاً فتلك هَماهِمي أقْرِيهِمَا   قُلُصاً لواقِحَ كالقسيِّ وحُولَا

---

(١)لعل لبيدا قصد (ببعض) أفراد ذوي نفوس ، ولم يقصد أجزاء من نفوس .

فجعل الاثنين في لفظ الجميع ، وجعل الجميع في لفظ الاثنين .

١٠ ـ إقامة الاسم مقام الفعل (وحكمه حينئذ النصب) . قال كعب بن زهير :

تَسْعَى الوشَاةُ جنابَيْهَا وقيلَهم ... إنك يابنَ أبِي سُلْمَى لمقتُولُ

١١ ـ استثناء الشيءِ من الشيء وليس منه على اختصار وضمير كقول جرير :

من البيضِ لم تظْعَنْ بعيداً ولم تَطَأْ ... على الأرضِ إلاَّ ذَيْلَ مِرْطٍ مُرحَّلِ

فكأنه قال لم تطأ على الأرض إلا أن تطأ ذيل البرد ، وليس هو من الأرض .
ومثله في قول بعضهم :

وبلدةٍ ليس بها أنيسُ ... إلا اليعافيرُ وإلا العيسُ

يقول : إلا أن يكون بها . وقال أبو خِرَاش الهُذَلِيّ :

أمسَى سُقَامُ خلاءً لا أنيسَ به ... إلا السباعُ ومرُّ الريحِ بالغرَفِ

١٢ ـ مجيء المفعول بلفظ الفاعل كما يقولون : تطليقة بائنة ، وعيشة راضية ، وكقولهم للخوان مائدة ، وإنما ميد صاحبها بما عليها من الطعام فيقال : مادني يميدني قال رؤ بة :

« إلى أميرِ المؤمنينَ المُمْتَادِ»

أي المستعطي المسئول به ، امتدتك ، ومدتني أنت . وكقول جرير :

لقد لُمْتِنَا يا أمَّ غَيْلانَ في السُّرَى ... ونمْتِ وما ليلُ المَطِيِّ بِنائِمِ

والليل لا ينام وإنما يُنَام فيه .

١٣ ـ إظهار الشيء والإخبار عن بعض ما هو بسببه كقوله :

قبائلنا سبعٌ وأنتم ثلاثةٌ ... ولَلسَّبْعُ أزكى من ثلاثٍ وأكْثَرُ

ذكر ذهب إلى بطن ، ثم أنثه ذهب إلى قبيلة .

١٤ ـ العرب قد تبدأ بالشيء ثم تحول الخبر إلى غيره كقول شداد بن معاوية العبسي :

فمن يكُ سائِلاً عني فإنِّ ... وجروةَ لا ترودُ ولا تُعَارُ

ترك الخبر عن نفسه ، وجعل الخبر لفرسه .

١٥ ـ مخاطبة الغائب مخاطبة الشاهد كقول عنترة :

شَطَّت مزارُ العاشِقِينَ فأصْبَحَتْ ... عَسِراً عليَّ طِلابُكِ ابنةَ مَخْرَمِ

١٦ ـ وضع فعيل في موضع مُفْعَل ، قال أبو ذؤيب :

إني غداةَ إذٍ ولَمْ أشْعُرْ خَلِيفُ

أي مُخْلَف .

١٧ ـ وضع فعيل في موضع مُفْعِل ، قال عمرو بن معد يكرب :

أمِنْ رَيْحَانَةَ الدَّاعِي السَّمِيعُ

يريد المُسْمِع .

١٨ ـ الكف عن الخبر استغناء عنه ، واستخفافاً في كلامِهم : قال الأخطل :

خَلا أنَّ حَيًّا مِنْ قريشٍ تفضَّلُوا ... على الناسِ أو أنَّ الأَكارِمَ نَهْشَلا

وهو آخر قصيدة ، نصبه وكف عن خبره .

١٩ ـ إستخدام المصدر في موضع الفاعل ، قال عمرو بن كلثوم :

تــظَلُّ جِـيَــادُه نَــوْحــاً عَــلَيْــهِ   مــقلَّدةً أعــنــتُــهَــا صُــفــونَــا

أي نائحات . وقال باك يبكي هشام بن المغبرة :

هَــرِيقِي من دُمُــوعِهَــا سِجَــامــا   ضُبــاعَ . وجَــاوبِي نــوحــاً قِيــامــاً

وقال لقيط بن زرارة يوم جَبَلَة :

شتَّـــانَ هـــذا والعنـــاقُ والنـــومْ   والمشـــرَبُ البـاردُ والـظِلُّ الـدَّومْ

أي الدائم .

٢٠ ـ إسناد الفعل إلى ما ليس بفاعله في الحقيقة كقول الحارثي :

يُـريُـد الـــرمحُ صــدرَ بني بَـرَاءٍ   ويــرغَبُ عن دِمَــاءِ بَنِي عَقيــلِ

وليس له إرادة ، ولكنه إذا كان في هذه الحال من ربه فهو من إرادته .

٢١ ـ الخروج بالإستفهام إلى الإيجاب كقول جرير لعبد الملك بن مروان :

ألسْتُمْ خَــيْرَ مَنْ ركِـبَ المَـطَايَــا   وأنــدَى العَــالَمــينَ بـطونَ رَاحِ

٢٢ ـ الإنقلاب في المدلـول إلى العكس فقد ينقلب معنى وراء إلى قدام : قال :

أتُــوعِــدنِي وَرَاءَ بــنِي رِمَــاحٍ   كــذبــتَ لتقصُــرنَّ يــداكَ دُونِي

٢٣ ـ وضع أفعَل موضع الفاعل قال :

تَمنَّى رجالٌ أنْ أموتَ ، وإنْ أَمُتْ   فَتِلكَ سبيــلٌ لستُ فيهــا بــأوحَــدِ

٢٤ ـ رفع المشرك ، وكان حقه النصب كقوله :

فمَنْ يــكُ أمسَى بــالمــدِينَــةِ رحلُهُ   فــإني وقــيــارٌ بهــا لــغَــرِيــبُ

وضع « فَعَلْنَا » موضع « نَفْعَل » قال الشاعر :

مثل العصافيرِ أحلاماً ومقْدِرَةً لو يُوزَنُونَ بِزِفٍّ الريشِ ما وَزَنُوا

وقال :

إنْ يسمعُوا رِيبةً طارُوا بهَا فَرَحاً مِنِيَّ وما يسمعُوا من صَالِحٍ دَفَنُوا

أي يطيروا ويدفنوا .

٢٦ ـ إسناد الفعل إلى الشيء وليس له كقوله :

وَتُركَبُ خيلٌ لا هَوادَةَ بينَهَا وتَشْقَى الرماحُ بالضَّياطِرَةِ الحُمْرِ

وإنما تشقى الضياطرة بالرماح .

٢٧ ـ كف الياء (حذفها) مكسورة أو مفتوحة من الأرداف ، قال الأعشى :

ومِنْ كَاشِحٍ ظاهِرٍ غِمْرُهُ إذا ما انتَسَبْتُ لهُ أنكَرَنْ

٢٨ ـ وضع فُعَال موضع فَعِيل ، قال عباس بن مرداس :

تَعْدُو بِهِ سَلْهَبَةٌ سُرَاعَة

أي سريعة .

هذه هي محاولة أبي عبيدة في استنباط الخصائص التعبيرية للأسلوب العربي أقتطعتها من سياقها ، وحافظت فيها غالباً على ترتيب ورودها في الكتاب . وقد يكرر ما لاحظه في بعض المواضع ، فكنت أجمع أطرافه ، ولم أشأ أن أقوم بتبويب هذه الخصائص أو أجمع الأشباه فيها إلى النظائر ، أو أن أتدخل بعبارتي إلا حين تلتوي عبارة الرجل أو تطول .

وينبغي أن نعترف بأنها محاولة رائدة برغم ما وقع فيه أبو عبيدة من

هنوات ، فقد كان هدفه تفسير القرآن بعرض أسلوبه ومعانيه على أسلوب العرب ومعانيهم[1] .

وأستاذنا الدكتور محمد زغلول سلام يلفتنا إلى أن « الفكرة التي كانت تراود أبا عبيدة وهو يؤلف كتابه كانت فكرة مدرسية ، يحاول أن يضع أمام طبقة المستعربين صوراً من التعبير في القرآن ، وما يقابله من التعبير في الأدب العربي شعراً ونثراً وبين ما فيه من التجاوز أو الانتقال من المعنى القريب أو التركيب المعهود للألفاظ والعبارات إلى معان وتراكيب أخرى اقتضاها الكلام[1] .

ويكفي أن أبا عبيدة صبر على استخلاص هذه الخصائص غير مسبوق إلى هذا العمل فيما نعلم .

معاني القرآن للفراء (٢٠٧ هـ) :

عاصر أبو زكريا يحيي بن زياد الفراء أبا عبيدة ، ووقف على ما كتبه في « المجاز » ودليلنا على ذلك أنه عرَّض به في كتابه « معاني القرآن » ورماه بالجهل بالعربية يقول : « وقد قال بعض من لا يعرف العربية ، إن معنى غير في « الحمد » معنى « سوى » وإن « لا » صلة[2] في الكلام ، واحتج بقول الشاعر :

في بئرِ لا حُورٍ سَرَى وما شَعَر

وهذا غير جائز لأن المعنى وقع على ما لا يتبين فيه عمله ، فهو جحد محض ، وإنما يجوز أن تجعل « لا » صلة إذا اتصلت بجحد قبلها مثل قوله :

---

(١) د . محمد زغلول سلام : أثر القرآن في تطور النقد العربي (دار المعارف بمصر ١٩٦٨) ط . ثالثة ص ٤٣ - ٤٤ .

(٢) يقصد : زائدة .

ما كان يرضى رسولُ اللهِ دينَهم والطيبان أبو بكر ولا عمرُ

فجعل « لا » صلة لمكان الجحد الذي في أول الكلام . هذا التفسير أوضح ، أراد في بئر لا حور ، « لا » الصحيحة في الجحد ، لأنه أراد في بئر ماء لا يحير عليه شيئاً كأنك قلت : إلى غير رشد توجه وما درى . والعرب تقول طحنت الطاحنة فما أحارت شيئاً ، أي لم يتبين لها أثر عمل »[1] .

و« بعض من لا يعرف العربية » في قول الفراء هو أبو عبيدة ، فأبو عبيدة هو الذي قال إن لا في قوله تعالى ﴿ولا الضالين﴾ من حروف الزوائد لتتميم الكلام والمعنى الضالون واستشهد على ذلك بقول العجاج :

في بئرِ لا حُورٍ سَرَى وما شَعَر[2] . »

ولما كان هذا موقف الفراء من أبي عبيدة فقد استنكف في كثير من المواضع أن يأخذ من أبي عبيدة أخذاً مباشراً ، فإذا اضطر إلى ذلك مضى يلتمس شواهد أخرى تضاف إلى ما ذكره أبو عبيدة ، فإذا لم يجد أغفل شاهد أبي عبيدة وأتى بمثال من عنده . وقد يستخدم شاهداً لأبي عبيدة في غيرما استخدمه أبو عبيدة له ، وحين يرسل أبو عبيدة ملاحظة دون أن يؤيدها بشاهد يجتهد الفراء في أن يأتي بشاهد عليها ، وقد يحاول أن يفصّل ما أجمله أبو عبيدة بالشواهد والشروح ، ولكنه إذا لجأ إلى تفسير الغريب ، وجدناه يفسره بطريقة أبي عبيدة وابن عباس من قبله :

فمما أخذه الفراء من أبي عبيدة وزاد عليه مع ذكر شاهد أبي عبيدة :

ـ العرب تعترض من صفات الواحد إذا تطاولت بالمدح أو الذم فيرفعون إذا كان الإسم رفعاً ، وينصبون بعض المدح فكأنهم ينوون إخراج المنصوب

---

(١) الفراء : معاني القرآن (دار الكتب ١٩٥٦ ط . أولى) ١ / ٨ .

(٢) المجاز : ١ / ٢٥

بمدح مجدد غير متبع لأول الكلام من ذلك قول الشاعرة :

لا يَبْعَـدَنْ قَـومي الـذينَ هُـمُ   سُـمُّ الـعُـدَاةِ وآفَـةُ الـجُـزرِ
الـنـازلـيـن بـكـل مُـعْـتَـرَكٍ   والـطـيـبـيـنَ مـعـاقـدَ الأزرِ

وقال بعض الشعراء :

إلى المَلِكِ القَـرْمِ وابنِ الهُمَامِ   وليـثَ الـكتيبـةِ فـي الـمـزدَحَم
وذَا الـرأيِ حـينَ تَـغُـمُّ الأمـورُ   بـذاتِ الـصَّليـلِ وذاتِ الـلّجُـم

فنصب (ليث الكتيبة) و(ذا الرأي) على المدح والإسم قبلهما مخفوض .
وأنشد بعضهم :

فليتَ التي فيها النجومُ تـواضَعَتْ   عـلى كـلِّ غثٍّ منهمُ وسَمِـيـنِ
غُيوثَ الحَيَا في كل مَحْلٍ وَلَزْبَةٍ   أُسودَ الشَّرَى يحِمينَ كـلَّ عَـرِينِ

فنصب[1] » .

ـ الذهاب إلى أحد الشيئين دون الآخر ، قال الشاعر :

نحنُ بـمـا عِنْـدَنَـا وأنـتَ بـمـا عِـنْـدَكَ راضٍ والـرأيُ مُخْتَلِفُ

ولم يقل راضون . وقال آخر :

إنِّي ضَمِنْتُ لِمَنْ أَتـاني مـا جَنَى   وأبي ، وكـانَ وكنتُ غيـرَ غـدُورِ

ولم يقل غدورين ، وذلك لاتفاق المعنى فيكتفي بذكر الواحد . ومنه قول الشاعر :

رَمَـاني بـأمْـرٍ كنتُ مِنْـه ووالـدِي   بَريئاً ، ومِنْ جُولِ الطويِّ رَمَاني[2]

---

(١) الفراء : معاني القرآن ١ / ١٠٥ ـ ١٠٦ .
(٢) السابق : ١ / ١٣٤ .

ومما أخذه الفراء من أبي عبيدة مغفلا شاهد أبي عبيدة ذاكراً شواهد من عنده :

- ترك الجواب إذا عرف المعنى إرادةَ الإيجاز ، فكأنه استأنف الكلام استئنافاً وتوهم أن ما قبله فيه جوابه ، وقد جاء الشعر في كل ذلك . قال امرؤ القيس :

فلما أَجَـزْنَـا سـاحـةَ الحيِّ وانتَحَى   بنَا بَطْنُ خَبْتٍ ذِي قِفَـافٍ عَقَنْقَلِ

وقال الآخر :

حـتَّـى إذَا قَـمِـلَـتْ بُـطـونُـكُـمُ   ورأيْـتُـمُ أبـنـاءَكُـمْ شَـبُّـوا
وقـلبـتُـمُ ظَـهْـرَ الـمِـجَـنِّ لَـنَـا   إنَّ الـلئِـيـم الـعـاجِـزُ الـخَـبُّ

وكما قال الشاعر :

وأُقْسِمُ لـو شَيْءٌ أَتَـانَـا رسـولُـه   سِواكَ ، ولكِنْ لم نَجِدْ لَكَ مَدْفَعَا[1]

- الحذف : كقول الشاعر :

رَأَتْنِي بَحبْلَيْهَـا فَصَـدَّتْ مَخَـافَـةً   وفي الحبـلِ رَوْعَاءُ الفُؤادِ فَرُوقُ

أراد أقبلت بحبليها ، وقال الآخر :

حَنَتْنِي حَـانِيَـاتُ الـدَّهْـرِ حتَّـى   كـأنِـي خَـاتِـلٌ أدْنُـو لِـصَـيْـدِ
قـريبُ الخَـطْوِ يَحْسَبُ مَنْ رآني   ولـسْـتُ مـقَـيَّـداً ، أنِـيّ بِـقَـيْـدِ

يريد مقيداً بقيد [2] .

ومما أغفل فيه الفراء شاهد أبي عبيدة ، وأعوزه أن يأتي بشاهد من عنده فاكتفى بأن يورد مثالاً له :

---

(١) السابق : ٢ / ٦ .

(٢) السابق : ١ / ٢٣٠ .

ـ إسناد الفعل إلى ما ليس بفاعله في الحقيقة : ففي كلام العرب : ربح بيعك وخسر بيعك ، وإنما يربح التاجر ويخسر فحسن القول بذلك ، لأن الربح والخسران إنما يكونان في التجارة فعلم معنا [1] » وقد مضى ذكر شاهد أبي عبيدة وهو :

يُرِيدُ الرمحُ صَدْرَ بَنِي بَرَاءٍ ... وَيْرغَبُ عن دِمَاءِ بَنِي عَقِيلِ

ومما استخدم فيه الفراء شاهداً لأبي عبيدة في غير ما استخدم له هذا البيت :

كَانَتْ فَرِيضَةَ ما تقولُ كَمَا ... كَانَ الزِّنَاءُ فَرِيضَةَ الرَّجْمِ

وقد استخدمه الفراء في الاحتجاج على أنَّ العرب تضع الحرف في غير موضعه إذ المعنى : « كما كان الرجم فريضة الزناء » .

فيتهاون الشاعر بوضع الكلمة ـ على صحتها ـ لاتضاح المعنى عند العرب[2] .

وكان أبو عبيدة قد ذكره دليلاً على أن « الزنا » مقصور ، وقد يمد في كلام أهل نجد[3] .

ـ ومنه هذا البيت لجرير :

لَمَّا أتَى خَبَرُ الزُّبَيْرِ تواضَعَتْ ... سُورُ المَدِينَةِ والجِبَالُ الخُشَّعُ

ذكره أبو عبيدة دليلاً على أن السور واحدتها سورة ، وكذلك كل ما علا وارتفع[4] ، أما أبو زكريا فقد ذكره دليلاً على أن العرب إذا أضافت المذكر

---

(١) السابق : ١ / ١٤ .
(٢) السابق : ١ / ٩٩ .
(٣) أبو عبيدة : المجاز ١ / ٣٧٨ .
(٤) أبو عبيدة : المجاز ١ / ١٥٩ .

إلى المؤنث قالوا فيه بالتأنيث والتذكير ، لأن الثاني يكفي من الأول[1] .

وقد يأتي الفراء بشاهد لِمَا لم يأت له أبو عبيدة بشاهد ، ومن ذلك ما ذكرناه من ملاحظة أبي عبيدة أن العرب تتكلم بالواحد على لفظ الجمع ، ولم يأت له بشاهد وقد ذكر الفراء شاهداً على ذلك قول أبي الجراح العقيلي :

جَـاءَ الشِّتَـاءُ وقَمِيـصِي أَخْـلَاقٌ شَـرَاذِمُ يضحـكُ منهـا التَّوَّاق[2]

ومما حاول فيه أبو زكريا أن يظهر إحاطته قوله بعد أن احتج على وضع العرب الفاعل موضع المفعول وذكر شاهداً لم يذكره أبو عبيدة وهو قول الشاعر :

دَعِ المَكَـارِمَ لا تَـرْحَـلْ لِبُغْيَتِهَـا واقْعُدْ فإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الكَـاسِي

قال الفرَّاء : « وأهل الحجاز أفعل لهذا من غيرهم أن يجعلوا المفعول فاعلاً إذا كان في مذهب نعت كقول العرب : « هذا سر كاتم ، وهم ناصب ، وليل نائم ، وعيشة راضية ، فيجعلونه فاعلاً وهو مفعول في الأصل ، وذلك أنهم يريدون وجه المدح أو الذم فيقولون ذلك لا على بناء الفعل ، ولو كان فعلاً مصرحاً لم يقل ذلك فيه لأنه لا يجوز أن تقول للضارب مضروب ، ولا للمضروب ضارب ، لأنه لا مدح فيه ولا ذم »[3] .

وحين يلجأ الفَرَّاء إلى تفسير الغريب في بعض المواضِع نجده يصنع صنيع أبي عبيدة وابن عباس من قبل ، يقول أبو زكريا الفراء في تفسير « اليمين » في قوله تعالى : ﴿ فراغَ عليهم ضَرْباً باليَمِين ﴾ أي بالقوة والقدرة ، وقال الشاعر :

---

(١) الفراء : المعاني ١ / ٣٦ .
(٢) السابق : ١/ ٤٢٩ .
(٣) السابق : ٢ / ١٦ .

إذَا مـا رَايـةٌ رُفِعَتْ لـمَجْـدٍ   تَـلَقَّـاهَـا عُـرابَـةُ بـالـيَـمِـيـنِ

أي بالقوة والمقدرة »

ويقول في تفسير « نُحَاس » في قوله تعالى : ﴿يُرسَلُ عليكما شُوَاظٌ من نارٍ ونُحَاس ﴾ .

النحاس : الدخان أنشدني بعضهم :

يُضَيءُ كـضَــوْءِ سِــرَاجِ السَّـلِيطِ (م) لَمْ يَجْعَـلِ اللَّهُ مِـنْـهُ نُحَـاسَـاً

على أن أبا زكريا الفراء كان ذا شخصية علمية واضحة ومستقلة ، وكان يرى أن « كتاب الله أعرب وأقوى في الحجة من الشعر »[٢] ، ومن ثم « وجدناه يقلل من الشاهد الشعري ، ولا يفسر به الآيات تفسيراً مباشراً »[١] ، وقد يدعو في بعض المواطن إلى القياس على التعبير القرآني دون أن يحفل بذكر شواهد من كلام العرب يقول : « وأما قوله رأيتهم لي ساجدين فإن هذه النون والواو إنما تكونان في جمع ذكران الجن والانس ، وما أشبههم ، فيقال : الناس ساجدون والملائكة والجن ساجدون ، فإذا عدوت هذا صار المؤنث والمذكر إلى التأنيث فيقال : الكباش ذبحن ، وذبحت ، ومذبحات ، ولا يجوز مذبحون ، وإنما جاز في الشمس والقمر والكواكب بالنون والواو لأنهم وصفوا بأفاعيل الآدميين ألا ترى أن السجود والركوع لا يكون إلا من الآدميين فأخرج فعلهم على فعال الآدميين . ومثله : « وقالوا لجلودهم لِمَ شَهِدْتُمْ علينا » فكأنهم خاطبوا رجالاً إذ كلمتهم وكلموها وكذلك « يأيها النمل

---

(١) السابق : ٢/ ٣٨٤ .

(٢) الفراء : معاني القرآن ١ / ١٣ .

(٣) د . محمد زغلول سلام : أثر القرآن في تطور النقد العربي : ٥٢ .

ادخلوا مساكنكم » فما أتاك مواقعاً لفعل الآدميين من غيرهم أجريته على هذا »[1] .

ويمكننا أن نستخلص ما أضافه أبو زكريا الفراء إلى جهود أبي عبيدة في استنباط الخصائص التعبيرية للغة العرب مقتطعاً من سياقه ، وبأيسر تصرف في اللفظ على النحو التالي :

١ ـ الإضمار : إذا اجتمع الكلام ودل أوله على آخره فتتبع آخر الكلام بأوله وإن لم يحسن في آخره ما حسن في أوله كقولك : أصاب فلان المال فبنى الدور والعبيد والإماء واللباس الحسن ، فقد ترى البناء لا يقع على العبيد والإماء ، ولا على الدواب ولا على الثياب ، ولكنه من صفات اليسار فحسن الإضمار لما عرف . أنشدني بعضهم :

إذَا مَا الغَانِيَاتُ بَرَزْنَ يوماً وزجَّجْنَ الحَواجِبَ والعُيُونَا

فالعين لا تزجج ، إنما تكحل ، فردها على الحواجب لأن المعنى معروف ، وأنشدني آخر :

ولَقِيتُ زَوْجَكِ في الوَغَى متَقَلِّداً سَيْفاً ورُمْحَا

والرمح لا يُتَقَلَّد فرده على السيف .

وقال آخر :

تَسْمَعُ للأَحْشَاء مِنهُ لَغَطاً ولليَدَيْنِ جُسْأَةً وبَدَدَا

وأنشدني بعض بني دُبَيْر :

عَلَفْتُهَا تِبْناً وماءً بَارِداً حتى شَتَتْ هَمَّالَةً عَيْنَاهَا

---

(١) الفراء : معاني القرآن : ٢ / ٣٤

والماء لا يعتلف ، إنما يُشْرَب فجعله تابعاً للتبن .

٢ ـ وضع الحرف في غير موضعه ، وهو ظاهر في كلام العرب أن يقولوا : فلان يخافك كخوف الأسد ، والمعنى كخوفه الأسد ، لأن الأسد هو المعروف بأنه المخوف . وقال الشاعر :

لقد خِفْتُ حتَّى ما تَزِيدُ مَخَافَتِي على وَعِلٍ فِي ذي المَكَارِهِ عَاقِلِ

والمعنى حتى ما تزيد مخافة وعل على مخافتي . وقال الآخر :

كَانَتْ فَرِيضَةَ ما تَقُولُ كَمَا كَانَ الزِّنَاءُ فَرِيضَةَ الرَّجْمِ

والمعنى كما كان الرجم فريضة الزناء ، فيتهاون الشاعر بوضع الكلمة على صحتها لاتضاح المعنى عند العرب ، ومثله قول الراجز :

إنَّ سِرَاجاً لكَرِيمٌ مَفْخَرَة تَحْلَى بِهِ العَيْنُ إذَا ما تَجْهَره

والمعنى يحلي بالعين إذَا ما تَجهَره .

٣ ـ إعادة الضمير إلى شيء مفهوم من الكلام السابق ، وإن كان غير مذكور كقول الشاعر :

هُمُ الملوكُ ، وأبناءُ الملوكِ لَهُمْ والآخِذُونَ بِهِ والسَّاسَةُ الأُوَلُ

قوله : به : يريد الملك .

وقال آخر :

إذَا نُهِيَ السَّفِيهُ جَرَى إلَيْهِ وَخَالَفَ والسَّفِيهُ إلَى خِلاَفِ

يريد إلى السَّفَه .

٤ ـ الإخبار بالمصدر عن الإسم ، وبالإسم عن المصدر إذا كان المعنى مستدلاً عليه ، أنشدني الكسائي :

لَعَمرُكَ ما الفِتْيان أَنْ تَنْبُتَ اللِّحى ولكنَّمـا الفِتْيـانُ كُـلُّ فَتىً نَـدِيٍّ

وكما تقول : إنما السَّخَاء حاتم .

٥ ـ إدخال إلى في الكلام للتعجب . كما تقول للرجل ، أما ترى إلى هذا ، والمعنى والله أعلم هل رأيْت مثل هذا ؟ أو رأيت هكذا ؟

٦ ـ استخدام الماضي في موضع المضارع مع الفعل (ودَّ) بخاصة . فيقول القائل : فهل يجوز في الكلام أن تقول : أتود أن تصيب مالاً فضاع والمعنى فيضيع ؟ قلت نعم . ذلك جائز في وددت لأن العرب تلقاها مرة بأن ومرة بلو فيقولون : وددت لو ذهب عنا ، وودت أن يذهب عنا ، فلما صلحت بلو وبأن ومعناهما جميعاً الاستقبال استجازوا أن يردوا فَعَل بتأويل لو على (يَفْعَل) مع أن .

٧ ـ العرب إذا أضافت المذكر إلى المؤنث ، وهو فعل له أو هو بعض له قالوا فيه بالتأنيث والتذكير ـ وأنشدونا :

عَلَى قبضَـةٍ مَـوْجُـوءَةٍ ظَهْـرُ كَفِّـهِ فلا المرءُ مُسْتَحْيٍ ولاَ هُوَ طَاعِمُ

ذهب إلى الكف وألقى الظهر لأن الكف تجزىء من الظهر ، فكأنه قال موجوءة كفه ، وأنشدني العكلي أبو ثروان :

أَرَى مَـرَّ الـسنِينَ أخَـذْنَ مِـنِّـي كمـا أخَـذَ السِّـرَارُ مِـنَ الهِلاَلِ

وقال ابن مقبل :

قد صَرَّحَ السَّيرُ عَنْ كُتْمَانَ وابتُذِلَتْ وَقْـعُ المَحَاجِنِ بـالمهـريـةِ الـذُّقُنِ

أراد ابتذلت المحاجن وألقى الوقع . ومنه قول الأعشى :

وتَشْـرَقُ بالقَـوْلِ الَّذِي قـد أَذَعْتَه كَمَا شَرِقَتْ صدْرُ القَنَاةِ منَ الدَّمِ

وأنشدني يونس البصري :

لمَّا أَتَى خَبَرُ الزُّبَيْرِ تَهَدَّمَتْ   سُورُ المَدِينَةِ والجِبَالُ الخُشَّعُ

وإنما جاز هذا كله لأن الثاني يكفي من الأول .

٨ ـ تفسير الجمع بالواحد ، قال الشاعر :

وكَتِيبَةٍ شَعْوَاءَ ذَاتِ أَشِلَّةٍ   فِيهَا الفوارسُ : حَاسِرٌ ومقَنَّعُ

٩ ـ إضمار أحد الشيئين إذا كان في الكلام دليل عليه ، قال الشاعر :

عَصَيْتُ إليهَا القلبَ إني لأمْرِهِ   سَمِيعٌ فما أدْرِي أرُشْدٌ طِلاَبُهَا ؟

ولم يقل أم غَيّ ، ولا أم لا ، لأن الكلام معروف المعنى . وقال الآخر :

أَرَاكَ فلا أدرِي أَهَمٌّ هَمَمْتُهُ   وذُو الهَمِّ قِدْماً خاشع مُتضَائِلُ

وقال الشاعر :

وَمَا أَدْرِي إذَا يَمَّمْتُ وَجْهاً   أُرِيدُ الخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِي

يريد أي الخير والشر يليني ، فهو يتقي الشر[1] .

١٠ ـ استعمال الأمر لفظاً لا معنى ، وإنما هو بتأويل الجزاء ، وهو كثير في كلام العرب ، ومثله قول الشاعر :

أَسِيئِي بِنَا أو أحسِنِي لا ملومَةً   لَدَيْنَا ، ولا مَقْلِيَّةً إنْ تقلتِ

وقال الشاعر :

فقلتُ : ادْعِي وأَدْعُ فَإنَّ أَنْدَى   لِصَوْتٍ أن يُنَادِيَ دَاعِيَانِ

---

(١) يبدو لي أن هذا الشاهد غير مستقيم لأن كلا الأمرين مذكور في البيت الذي يليه وهو :

أألخير الذي أنا أبتغيه   أم الشر الذي هو يبتغيني

أراد ادعي ولأدع فإن أندى ، فكأنه قال : إن دعوتِ دعوتُ .

۱۱ ـ قد تحذف العرب الياء وتكتفي بكسر ما قبلها منها ، أنشدني بعضهم :

كفَّـاكَ : كفٌّ مـا تُلِيقُ دِرْهَـمَـا جُوداً ، وأُخْرَى تُعْطِ بالسَّيْفِ الدِّمَا

وأنشدني آخر :

لَيْسَ تَخْفَى يَسَـارَتِي قَـدْرَ يَـومٍ ولقَـدْ تُخْـفِ شِيـمَتِي إِعْسَـارِي

وللعرب في الياءات التي في أواخر الحروف أن يحذفوا الياء مرة ويثبتوها مرة ، فمن حذفها اكتفى بالكسرة التي قبلها دليلاً عليها ، وذلك أنها كالصلة إذ سكنت وهي في آخر الحروف واستثقلت فحذفت ، ومن أتمها فهو البناء والأصل .

۱۲ ـ وضع المفعول موضع المصدر : فيقولون هذا أمر ليس له مَعْنِيّ يريدون مَعْنَى ويقولون للجَلْد ، مَجْلود ، قال الشاعر :

إنَّ أَخَـا الـمَجْـلُودِ مَـنْ صَـبَـرا

وقال الآخر :

حَتَّى إذَا لم يَتْـرُكُـوا لِعِـظَامِـهِ لَـحْمـاً ، وَلَا لِـفُـؤَادِهِ مَـعْـقُـولَا

۱۳ ـ إضمار « لا » مع الأَيْمَان ، قال امرؤ القيس :

فقلتُ يَمِينَ اللّهِ أَبْـرَحُ قَـاعِـداً وَلَوْ قَطَعُوا رَأْسِي لَدَيْكِ وأَوْصَالِي

١٤ ـ اتباع الخفض الخفض إذا أشبهه ، قال الشاعر :

تُـرِيـكَ سُنَّـةَ وَجْـهٍ غَيْـرِ مُقْـرِفَـةٍ ملسـاءَ ليسَ بِهَا خَـالٌ وَلَا نَـدَبُ

وقال آخر :

وإِيَّـاكُـمْ وَحَـيَّـةَ بَـطْنِ وَادٍ   هَمُـوزِ النَّـابِ ليسَ لكُـمْ بِسِـيٍّ

ومما يرويه نحويونا الأولون : أن العرب تقول هذا جُحْرُ ضَبٍّ خَرِبٍ ، والوجه أن يقول : سنةَ وجهٍ غيرَ مقرفَةٍ ، وحيةَ بطنِ وادِ هموزَ الناب . وهذا جحرُ ضبٍّ خَرِبٌ .

أنشدني أبو جراح العقيلي :

يَا صَاحِ بَلِّغْ ذَوِي الحَاجَاتِ كُلِّهِم   أَنْ لَيْسَ وَصْلٌ إِذَا انْحَلَتْ عُرَى الذَّنْبِ

فأتبع كل خفض (الحاجات) وهو منصوب لأنه نعت لذوي[1] .

١٥ ـ وضع مفعول موضع مُفْعَل كما قيل :

النَّـاطِقُ المَبْـرُوزُ والمَخْتُـومُ .

فجعله مبروزاً على غير فعل (ولو كان الفعل لقال مُبْرَز من أبرزه ، ولا يقال برزه)[2] .

١٦ ـ تقديم بعض الحروف عن مواضعها ، أنشدني بعضهم :

إِذَا أَعْجَبَتْكَ الدَّهْرَ حَالٌ مِن امرِئٍ   فَـدَعْـهُ وَوَاكِـلْ حَـالَـهُ واللَّيَـالِيَـا
يَجِئْنَ عَلَى ما كانَ مِنْ صَالِحٍ بِهِ   وإِنْ كَانَ فِيمَا لاَ يَرَى النَاسُ آلِيَا

معناه : وإن كان فيما يرى الناس لا يألو ، وقال الآخر :

ولا أَرَاهَـا تَـزَالُ ظَـالِـمَـةً   تُـحْـدِثُ لي نَـكْبَـةً وتَـنْـكَـؤُهَـا

ومعناه : أراها لا تزال .

١٧ ـ العدول من صيغة إلى أخرى إتباعا . كقول العرب : ما ساءك

---

(١) هو توكيد لا نعت .

(٢) الزيادة من المحقق ، وقد أثبتها للتوضيح : أنظر ص ٢ / ٨٧

وناءك ، وأصله : ما ساءك وأناءك ، إلا أنه ألقى الألف لأنه متبع لساءك كما قالت العرب أكلتُ طعاماً فَهَنأَنِي وَمَرأَنِي ، ومعناه إذا أفردتَ وأَمْرأني فحذف منه الألف لما أتبع ما لا ألف فيه .

١٨ ـ ضمّ أحد الاسمين إلى صاحبه إذا كان أشهر منه كقول الشاعر :

جَـزَانِي الزَّهْـدَ مَـانِ جَـزَاءَ سَـوْءٍ   وَكُنْتُ المَـرْءَ يُجْـزَى بِـالكَـرَامَـة

واسم أحدهما زهدم . وقال الآخر :

جـزى الله فيها الأَعْـوَرَيْنِ ذمـامـةً   وفـــروةَ ثَغْـرِ الثَّـــورةِ المُتَضَـاجِمِ

واسم أحدهما أعور .

١٩ ـ العرب تأمر الواحد بما يؤمر به الإثنان : فيقولون للرجل : قوما عنّا ، وسمعت بعضهم يقول : ويحـك ! إرحلاهـا وازجراهـا . وأنشدني بعضهم :

فَقُلْتُ لـصــاحِـبِـي لا تَحْـبِسَــانَــا   بِنَـزْعِ أُصُـولِـهِ ، وأجتَـزَّ شيحــا

وأنشدني أبو ثروان :

وإنْ تَزْجُرَانِي يا بنَ عَفَّانَ انـزَجِرْ   وإنْ تَـدَعَانِي أحْمِ عِـرْضاً مُمَنَّعَـا

ونرى أن ذلك منهم أن الرجل أدنى أعوانه في إبله وغنمه اثنان وكذلك الرفقة أدنى ما يكونون ثلاثة فجرى كلام الواحد على صاحبيه ، ألا ترى أن الشعراء أكثر قيلا : يا صاحبيّ ، يا خليليّ ، فقال امروء القيس :

خَلِيلَيَّ مُــرَّا بِي عـلى أمِّ جُنْــدُبِ   نُقَضِّي لُبَــانَــاتِ الفُؤَادِ المُعَــذَّبِ

ثم قال :

أَلَمْ تَـرَ أَنِّي كُلَّمَـا جِئْتُ طَــارِقـاً   وَجَدْتُ بِهَا طِيباً ، وإِنْ لَمْ تَطَيَّبِ

فقال : ألم تر فرجع إلى الواحد ، وأول الكلام اثنان .

٢٠ ـ الجمع بين الصيغتين ومعناهما واحد كقول الأعشى :

وأنْكَرَتْنِي ، وَمَا كَانَ الَّذِي نَكرَتْ مِنَ الحَوَادِثِ إلاَّ الشَّيْبَ والصَّلَعَا

٢١ ـ الحكاية : كقول عنترة :

الشَّـاتِمَيْ عِـرْضِي ولَمْ أشتمهمـا والنَّـاذِرَيْنِ إذَا لَقِيتُهُمَـا دَمِـي

والمعنى أنهما كانا يقولان : إذا لقينا عنترة لنقتُلَنَّه فجرى الكلام في شعره على هذا المعنى واللفظ مختلف ، وكذلك قوله :

رَجْـلاَنِ مِـنْ ضَبَّـةَ أَخْـبَـرَانَـا إنَّـا رَأَيْـنَـا رَجُـلاً عُـرْيَـانَـا

والمعنى أخبرانا أنهما ، ولكنه جرى على مذهب القول كما يقول : قال عبدالله إنه لذاهب ، وإني ذاهب ، والذهاب له في الوجهين جميعاً .

٢٢ ـ وضع المفرد موضع المثنى كقول شاعر يلوم ابنين له :

يَا أَخْبَثَ النَّاسِ ، كلُّ الناسِ قَدْ عَلِمُوا لـو تستـطِيعَانِ كُنَّا مِثْـلَ مِعْضَـادِ

فـوحـد ولم يقـل يـا أخبَثَيْ .

تأويـل مشكل القـرآن لابن قتيبـة (٢٧٦ هـ) :

اتصل أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة بما كتبه أبو عبيدة في مجازه ، والفراء في معانيه ، وأخذ عنهما في كثير مما كتب ، ونلاحظ أنه ـ على العموم ـ أخذ من الفراء أكثر من أخذه من أبي عبيدة ، وقد صرح في كثير من المواطن ، باسم الفراء وبأخذه منه[1] ، ولكنه لم يصرح باسم أبي

(١) أنظر على سبيل المثال صفحات ١٥٧ ، ١٦٥ ، ١٦٩ ، ١٧٦

عبيدة إلا في القليل النادر[1] ، وكان يطلق عليه في بعض المواضع : (بعض أصحاب اللغة)[2] ، وقد أوضح ابن قتيبة منهجه في الأخذ بقوله : « فألفت هذا الكتاب جامعاً لتأويل مشكل القرآن ، مستنبطاً ذلك من التفسير بزيادة في الشرح والإيضاح ، وحاملاً ما لم أعلم فيه مقالاً لإمام مطلع على لغات العرب ، لأُرِيَ المعاند موضع المجاز ، وطريق الإمكان ، من غير أن أحكم فيه برأي أو أقضي عليه بتأويل . ولم يجز لي أن أنص بالإسناد إلى من له أصل التفسير ، إذ كنت لم أقتصر على وحي القوم حتى كشفته ، وعلى إيمانهم حتى أوضحته وزدت في الألفاظ ونقصت ، وقدمت وأخرت ، وضربت لبعض ذلك الأمثال حتى يستوي في فهمه السامعون ، وأسأل الله التجاوز عن الزّلة بحسن النية فيما دللت عليه وأجريت إليه »[3] .

والحق أن ابن قتيبة التزم في الأغلب الأكثر هذا المنهج ، فشرح وأوضح في بعض المواضع واحتكم إلى الفراء وأبي عبيدة في بعض المواضع بنصٍّ على الإسناد حيناً وبغير نص عليه حيناً آخر ، وزاد على بعض ما نقله عن الفراء وأبي عبيدة شواهد وخصائص ، ولكنه فيما لاحظه من خصائص كان يغفل الشاهد من كلام العرب في كثير من المراضع مكتفياً بذكر شواهد قرآنية دون أن ينص على أنها خصيصة تعبيرية في لغة القرآن ، أو أن لها نظيراً في لغة العرب كما كان الشيخان الجليلان يفعلان .

على أن العمل الرئيسي الذي عمد إليه ابن قتيبة قيامه « بتصنيف » ما لاحظه أبو عبيدة والفراء وتبويبه ، وقد وفق في هذا التبويب غالباً ، ولم يوفق فيه في بعض المواضع ، وربما زاد في أثناء التبويب بعض ما تستدعيه القسمة

---

(١) التأويل : ص ١٥٢ .

(٢) ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن (تحقيق السيد محمد أحمد صقر ـ عيسى البابي الحلبي ١٩٥٤) ص ١٥٣ .

(٣) التأويل : ص ١٨ .

المنطقية التي شغف بها إلى حد كبير مما يراه يكمل ما ذكره الشيخان الجليلان ، وقد يحتج لما زاده بشواهد من شعر العرب ، وقد يكتفي بشواهد القرآن الكريم ، والحديث النبوي الشريف .

وبنا الآن أن ننظر في عمله لنستبين منه ما أضافه ، وما اكتفى فيه بالتبويب ومدى توفيقه في هذا وذاك :

أولا : المقلوب :

وقد جعل منه التقديم والتأخير ، وقسمه قسمين : ما يقع فيه التأويل ، وما لا يقع . فالذي يقع فيه التأويل نحو قول الشاعر :

تَرَى الثَّوْرَ فِيهَا مُدْخِلَ الظِّلِّ رَأسَه   وسَائِرُه بَادٍ إلى الشمس أَجْمَعُ

أراد مدخل رأسه الظل ، فقلب ، لأن الظل التبس برأسه فصار كل واحد منهما داخلاً في صاحبه ، والعرب تقول : أعرض الناقة على الحوض تريد أعرض الحوض على الناقة ، لأنك إذا أوردتها اعترضت بكل واحد صاحبه . وقال الشماخ يذكر أباه :

مِنهُ وُلِدْتُ ، ولم يُؤْشَبْ بهِ حَسَبِي   لمًّا ، كَمَا عُصِبَ العِلْبَاءُ بِالعُودِ

وكان الوجه أن يقول : كما عصب العود بالعلباء فقلب : لأنك قد تقول : عصبت العلباء على العود ، كما تقول عصبت العود بالعلباء ، وقال النابغة :

وقَدْ خِفْتُ حتَّى ما تَزِيدُ مَخَافَتِي   عَلَى وَعِلٍ في ذِي المَطَارَةِ عَاقِلِ

وكان الوجه أن يقول : حتى ما تزيد مخافة وعل على مخافتي ، فقلب ، لأن المخافتين استوتا .

ومن المقلوب ما قلب على الغلط ، وهو ما لا يقع فيه التأويل كقول خداش بن زهير :

وتَـركَبُ خَيْـلاً لا هَـوَادَةَ بينَهَـا وتَعْصِي الرِّماحُ بالضَّيَاطِـرَةِ الحُمْرِ

أي تعصى الضياطرة بالرماح . وهذا ما لا يقع فيه التأويل . لأن الرماح لا تعصى بالضياطرة ، وإنما يعصي الرجال بها أي يطعنون . وقال آخر :

كـانَتْ فَـرِيضَـةَ ما تقـولُ كَمَـا كَـانَ الـزِّنَـاءُ فَـرِيضَـةَ الـرَّجْمِ

أراد كما كان الرجم فريضة الزنا .

وأرى أن ابن قتيبة اعتسف هذه القسمة اعتسافاً ، ولعل الذي أوحى إليه بها البيتان اللذان ذكرهما الفراء دليلاً على التقديم والتأخير ، وهما :

لقد خفت حتى ما تزيد مخافتي   البيت
وكانت فريضة ما تقول   البيت

فأغلب الظن أن ابن قتيبة أمعن النظر فيهما فوجد أحدهما يقع فيه « التأويل » والآخر « لا يقع فيه التأويل » فطرب لهذه الملاحظة ، ومضى يتوسع في الاستشهاد عليها ، فاستقامت له بعض الشواهد ، والتوت عليه أخرى ، وليس أدل على ذلك من أنه وجد في القرآن الكريم بعض ما لا يقع فيه التأويل مثل قوله تعالى : ﴿ **فضحكت فبشرناها باسحق** ﴾ أي بشرناها فضحكت . وقوله سبحانه : ﴿ **ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجل مسمى** ﴾ أي لولا كلمة سبقت وأجل مسمى لكان العذاب لزاماً .

ومنه قوله سبحانه : ﴿ **ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلا** ﴾ .

أراد لعلمه الذين يستنبطونه منهم إلا قليلا ، ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان[1] .

وهذا هو ما سماه المقلوب على الغلط ، ولكنه عاد فتحرج وتأثم وأعلن أن « الله تعالى لا يغلط ولا يضطر »[2] ، « وهذا ما لا يجوز لأحد أن يحكم به على كتاب الله عز وجل لو لم يجد له مذهباً »[3] ، ونسي أنه هو الذي قسم هذه القسمة ، ووضع لها اصطلاح (المقلوب على الغلط) ، ولقد كان الفراء أكثر وعياً منه ، فلم يقع في هذا الشغف بالتقسيم المنطقي ، ومن ثم لم ينزلق هذا المنزلق حين جعل القسمين جميعاً من وضع العرب الحرف في غير موضعه « فيتهاون الشاعر بوضع الكلمة على صحتها لاتضاح المعنى عند العرب »[4] .

ثانيا : الحذف والاختصار :

وقد ذكرهما أبو عبيدة والفراء دون محاولة لحصر الأنواع التي تندرج تحتهما وقد حاول ابن قتيبة ذلك مضيفاً بعض الأنواع والشواهد ، فجاءت محاولته جيدة إلى حد كبير . وقد وضع تحت هذا الباب ما يأتي :

١ ـ حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مُقامه[5] كقول الهذلي :

يُمَشّى بيننا حانوتُ خمرٍ   من الخُرْسِ الصَّراصِرَةِ القِطَاطِ

أراد صاحب حانوت خمر فأقام الحانوت مقامه . وكذلك قوله :

---

(١) التأويل : ص ١٦١ .
(٢) التأويل : ص ١٥٦ .
(٣) التأويل : ص ١٥٤ .
(٤) الفراء : معاني القرآن حـ ١ / ٩٩ .
(٥) من إضافاته ، ويمكن حمل ذلك على المبالغة أو المجاز دون حذف .

أَتَوْهَا بـربحٍ حـاولَتْهُ فـأصبحتْ   تكفَّتُ قـد حلَّت وسـاغَ شـرابُهَـا

يريد أتوا صاحبها بربح فأقامها مقامه .

٢ ـ إيقاع الفعل على شيئين وهو لأحدهما : قال الشاعر :

تَـراهُ كـأنَّ اللهَ يَجْـدَعُ أَنْفَـه   وعينيهِ إنْ مولاهُ ثـابَ له وَفْـرُ[١]

أي يجدع أنفه ويفقأ عينيه ، وأنشد الفراء :

عَـلَفْتُـهـا تِبْـنـاً ومـاءً بَـارداً   حتى شَـتَتْ هَـمَّـالـةً عينَـاهَـا

أي علفتها تبناً وسقيتها ماء بارداً .

٣ ـ حذف الجواب اختصاراً لعلم المخاطب به[٢] ، قال الشاعر :

فـأُقسِمُ لـو شَيْءٌ أتَـانَـا رسـولُـهُ   سِوَاكَ ، ولكنْ لم نَجِدْ لك مَدْفَعَا

أي لرددناه ، وقال أبو ذؤيب :

عَصَيْتُ إليهَـا القلبَ ، إني لأمـرِه   سميعٌ ، فما أدري أرشد طلابها ؟

أراد : أرشد أم غيّ فحذف .

٤ ـ حذف الكلمة والكلمتين : قال ذو الرّمة يصف حميرا :

فلمَّـا لَبِسْنَ الليلَ أو حِينَ نصَّبَتْ   لـهُ مِنْ خَذَا آذانِهَـا وهـو جَـانِـحُ

أراد أو حين أقبل الليل نصبت .

وقال النمر بن تولب :

---

(١) أضاف هذا الشاهد فقط .

(٢) تعجب محقق الكتاب الأستاذ السيد أحمد صقر من نقل أبي هلال له في الصناعتين دون أن يشير إلى ابن قتيبة ولا إلى كتابه ، والحق أن هذه الملاحظة ليست لابن قتيبة كما وَهِمَ الأستاذ ، وإنما هي للفراء (أنظر : معاني القرآن : حـ ٢ / ٦) .

فـإنَّ الـمَـنِـيَّـةَ مـنْ يَـخْـشَـهَـا   فـســوفَ تُـصـادِفُـه أيْـنَـمَـا[1]

أراد : أينما ذهب ، وقال الشاعر :

رَأَتْنِي بَحَبْلَيْهَـا فصَـدَّتْ مَخَـافَـةً   وفِي الحَبْلِ رَوْعَاءُ الفُؤَادِ فَـرُوقُ

أراد مقبلاً بحبلها . ومن تتبع هذا في كلام العرب وأشعارها وجده كثيراً .

٥ ـ القَسَم بلا جواب إذا كان في الكلام بعده ما يدل على الجواب كقوله عز وجل : ﴿ **والنازعات غرقاً ، والناشطات نشطاً ، والسابحات سبحاً ، فالسابقات سبقاً ، فالمدبرات أمراً** ، ﴾ ثم قال : ﴿ **يوم ترجف الراجفة** ﴾ ولم يأت الجواب لعلم السامع به ، إذ كان فيما تأخر من قوله دليل عليه كأنه قال : « والنازعات وكذا وكذا لتبعثنّ »[2] .

٦ ـ حذف لا من الكلام وهي تحذف مع اليمين كثيراً ، قال الشاعر :

فقلتُ يمينَ اللّهِ أبـرحُ قـاعِـداً   ولو ضَرَبوا رأسي لديكِ وأوصَالِي

وقال الآخر :

فَـلاَ ، وأبِي ذهماءَ زالَتْ عـزيـزةً   على قَوْمِهَا ما فَتَّلَ الزَّنْدَ قَـادِحُ[3]

٧ ـ الإضمار لغير مذكور كقول حاتم :

أمَـاوِيَّ ما يُغْنِي الثَّـرَاءُ عن الفَتَى   إِذَا حَشْرَجَتْ يوماً، وضَاقَ بِهَا الصَّدْرُ[4]

---

(١) أضاف هذا الشاهد .

(٢) هذا مما أضافه ابن قتيبة ، واكتفى فيه بذكر شاهد من القرآن ، ولم يستشهد بشيء من شعر العرب أو نثرهم .

(٣) يقصد أن (لا) حذفت من (زال) مع القسم ، ونحن نفضل أن يكون القسم قد اعترض بين « لا » و« زالت » ولم تحذف « لا » . وعلى ذلك يسقط الاحتجاج بالبيت .

(٤) أضاف هذا الشاهد .

يعني النفس ـ وقال لبيد :

حتى إذَا أَلقَتْ يـداً فـي كـافِـرٍ وأَجَنَّ عـوراتِ الثُّغورِ ظـلامُهَا[1]

يعني الشمس بدأت في المغيب ـ وأنشدني الفراء :

إذا نُـهِيَ الـسفيـهُ جـرى إليـهِ وخـالفَ والسَّفيـهُ إلـى خِـلاَفِ

ثالثا ـ مخالفة ظاهر اللفظ معناه :

ويندرج تحته ما يلي :

١ ـ الدعاء على جهة الذم لا يراد به الوقوع[2] كقول الله عز وجل ﴿ **قُتِلَ الإِنسانُ ما أَكْفَرَه** ﴾ وقد يراد به التعجب من إصابة الرجل في منطقه أو في شعره أو رميه فيقال : قاتله الله ما أحسن ما قال ! وأخزاه الله ما أشعره ، ولله ما أحسن ما احتج به ومن هذا قول امرىء القيس في وصف رامٍ أصاب :

فـهـو لا تـنـمـي رَمِـيَّـتُـه مـالَـهُ لا عُـدَّ مـن نَـفَـرِه !

يقول إذا عد نفره ، أي قومه لم يعد معهم كأنه قال : قاتله الله ، أماته الله ، وكذلك قولهم هوت أمه وهبلته وثكلته . قال كعب بن سعد الغنوي :

هَوَتْ أُمُّهُ ما يبعثُ الصبحُ غـادِياً ومـا يؤدي الليـل حينَ يئُـوب

٢ ـ الجزاء عن الفعل والمعنيان مختلفان[3] نحو قول الله تعالى : ﴿ **إنما نحن مستهزئون** ﴾ الله يستهزىء بهم ، أي يجازيهم جزاء الاستهزاء ، وكذلك : ﴿ **وجزاء سيئة سيئة مثلها** ﴾ هي من المبتدىء سيئة ، ومن الله جل وعز جزاء . وقوله : ﴿ **فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى**

---

(١) مما أضافه .

(٢) من إضافاته .

(٣) من إضافاته .

عليكم ﴾ فالعدوان الأول ظلم ، والثاني جزاء ، والجزاء لا يكون ظلماً ، وإن كان لفظه كلفظ الأول .

٣ ـ أن يأتي الكلام على مذهب الاستفهام وهو تقرير أو تعجب أو توبيخ[1] فالأول كقوله تعالى : ﴿ **أأنتَ قلتَ للناسِ اتخذوني وأمِيَ إلهين من دون الله** ﴾ ، والثاني : كقوله جل وعز ، ﴿ **عم يتساءلون ؟ عن النبأ العظيم ؟** ﴾ والثالث كقوله : ﴿ **أتأتون الذكران من العالمين ؟** ﴾ .

٤ ـ أن يأتي الكلام على لفظ الأمر وهو تأديب أو إباحة أو فرض[2] فالأول كقوله : ﴿ **وأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ منكم** ﴾ ، ﴿ **واهجروهن في المضاجع ، واضربوهن** ﴾ والثاني كقوله : ﴿ **فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً** ﴾ . ﴿ **فإذا قَضَيْتُمْ الصلاةَ فانتَشِرُوا في الأرض** ﴾ والثالث كقوله : ﴿ **وأقيموا الصلاةَ وآتُوا الزكَاة** ﴾ .

٥ ـ أن يكون عاماً يراد به خاص[3] كقوله سبحانه حكاية عن النبي ﷺ : ﴿ **وأنا أول المسلمين** ﴾ وحكايةِ عن موسى : ﴿ **وأنا أول المسلمين** ﴾ ولم يرد كل المسلمين والمؤمنين ، وإنما أراد مؤمني زمانه ومسلميه .

٦ ـ الجمع يراد به واحد واثنان كقوله : « **وليَشْهَدْ عَذابَهُما طائفةٌ من المؤمنين** » واحد واثنان فما ِفوق ، وكان قتاده يقول في قوله تعالى : (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات) هو رجل واحد ناداه يا محمدُ إن مدحي زَيْن ، وإن شتمي شَيْن ، فخرج إليه النبي ﷺ فقال : (ويلك : ذاك الله جل وعز) ونزلت الآية .

---

(١) من إضافاته .

(٢) من إضافاته .

(٣) من إضافاته .

وقوله سبحانه : ﴿فإن كان لـه إخوةٌ فـلأمِّه السُّـدُس﴾ أي أخوان فصاعدا . وقوله سبحانه : ﴿وألقَى الألوَاح﴾ جاء في التفسير أنهما لوحان . وقوله ﴿إن تَتُوبَا إلى اللهِ فقد صَغَت قلوبُكُما﴾ وهما قلبان .

٧ ـ الواحد يراد به جميع : والعرب تقـول : فلان كثيـر الدرهم والدينار ، يريدون الدراهم والدنانير وقال الشاعر :

هُمُ المَـوْلَى ، وإنْ جَنَفُـوا علينَـا   وإنَّـا مِـنْ لـقـائِـهِـمُ لَـزُورُ

وقال :

فـقـلنـا أَسْلِمُـوا إنَّـا أَخُـوكُـمْ   وقـد بَـرِئَتْ مِنَ الإحَنِ الصُّـدُورُ

٨ ـ وصف الجميع بالواحد[1] . قال زهير :

متى يَشْتَجِرْ قـومٌ يقُـلْ سَـرَوَاتُهُمْ   هُمُ بيننـا ، فَهُمُ رضاً وهُمُ عَـدْلُ

وقال الشاعر :

إنَّ الـعَـواذِلَ ليسَ لِـي بـأمـيـرِ

وقال آخر :

المـالُ هـدْيٌ والنِّسَـاءُ طَـوَالِقُ

٩ ـ وصف الواحد بالجمع نحو قولهم : بُرْمَة أَعْشَار ، وثوب أَهْدَام ، وأَسْمَال ، ونعل أَسْمَاط أي غير مطبقة ، قال الشاعر :

جَـاءَ الشتـاءُ وقَمِيـصِي أَخْـلَاق

١٠ ـ أن يجمع شيئان ولأحدهما فعل فيجعل الفعل لهما كقوله : ﴿فلما بلغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حوتَهما﴾ . روي في التفسير أنَّ الناسى كان

(١) من إضافاته .

يوشع بن نون ويدلك قوله لموسى : ﴿ إني نسيت الحوت ﴾ . وقوله : ﴿ يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان ﴾ واللؤلؤ والمرجان إنما يخرجان من الماء المِلْح لا من العذب .

١١ ـ أن يجتمع شيئان فيجعل الفعل لأحدهما أو تنسبه إلى أحدهما وهو لهما كقوله : ﴿ وإذا رَأَوْا تجارةً أو لَهْواً انفضُّوا إليها ﴾ وقوله : ﴿ واللّهُ ورسُولُه أَحَقُّ أن يُرضُوه ﴾ وقال الشاعر :

إنَّ شرخَ الشبابِ والشعَرَ الأسودَ ما لَمْ يُعَاصَ كان جُنُونَا

وقال آخر :

نحنُ بما عندنا وأنتَ بما عِنْدَكَ راضٍ والرأيُ مختلِفُ

١٢ ـ أن تخاطب الشاهد بشيء ، ثم تجعل الخطاب له على لفظ الغائب كقول الشاعر :

يا دارَ ميَّةَ بالعَلْيَاءِ فالسَّنَدِ أقْوتْ ، وطالَ عليها سالفُ الأبَدِ[1]

١٣ ـ أن تجعل خطاب الغائب[2] للشاهد كقول الهذلي :

يا ويحَ نفسِي كان جِدَّةُ خالدٍ وبياضُ وجهِكَ للترابِ الأعفرِ

١٤ ـ أن يخاطب الرجل بشيء ، ثم يجعل الخطاب لغيره[3] كقوله : ﴿ فإن لم يستجيبوا لكم ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ، ثم قال للكفار ﴿ فاعلموا أنما أُنزِلَ بعلمِ اللّهِ وأن لاَ إلَهَ إلا هُو ﴾ .

يدلك على ذلك قوله : ﴿ فهل أَنتم مُسْلِمُون ؟ ﴾ .

---

(١) أضاف الشاهد فقط .
(٢) أضاف الشاهد فقط .
(٣) من إضافاته .

١٥ ـ أن تأمر الواحد والاثنين فما فوق أمرك الاثنين فنقول : افعلا . قال الفراء : والعرب تقول ويلك ارحلاها وازجراها . وأنشد لبعضهم :

فقلتُ لصاحِبِي لا تَحْبِسَانَا ... بنَزْعِ أُصُولِهِ واجتَزَّ شِيحَا

وقال الشاعر :

فإنْ تَزْجُرَانِي يا بنَ عَفَّانَ أنزَجِرْ ... وإنْ تَدَعَانِي أَحْمِ عِرْضاً مُمَنَّعَا

١٦ ـ مخاطبة الواحد بلفظ الجميع ، كقوله سبحانه ﴿ قال رب ارجعون ﴾ و﴿ إنا كلَّ شيءٍ خلقناه بِقَدَر ﴾ .

١٧ ـ أن يتصل الكلام بما قبله حتى يكون كأنه قول واحد وهو قولان[1] نحو قوله : ﴿ إنَّ الملوكَ إذَا دخلوا قريةً أفسدُوهَا وجعلوا أَعِزَّةَ أهلِهَا أَذِلَّة ﴾ ثم قال : ﴿ وكذلك يفعلون ﴾ ، وقوله : ﴿ يا ويلنا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ﴾ انقطع الكلام ، ثم قالت الملائكة ﴿ هذا ما وَعَدَالرَّحمن وصَدَقَ المرسَلُون ﴾ .

١٨ ـ أنْ يأتي الفعل على بنية الماضي وهو دائم أو مستقبل كقوله ﴿ كنتم خيرَ أمةٍ أخرِجت للناس ﴾ أي أنتم خير أمة ، وقوله : ﴿ أتى أمرُ الله فلا تَسْتَعْجِلُوه ﴾ يريد يوم القيامة أي سيأتي قريباً فلا تستعجلوه .

١٩ ـ أن يجيء المفعول على لفظ الفاعل والعرب تقول ليل نائم وسر كاتم . قال وعلة الجرمي :

ولَمَّا رأيتُ الخيلَ تَتْرَى أَثَابِجَا ... علمتُ بأَنَّ اليومَ أحمسُ فَاجِرُ[2]

أي يوم صعب مفجور فيه .

---

(١) من إضافاته .

(٢) أضاف الشاهد فقط .

٢٠ ـ أن يأتي فعيل بمعنى مُفْعِل : قال عمرو بن معد يكرب :

أَمِنْ رَيْحَانَةَ الدَّاعِي السَّمِيعُ يُؤْرِقُنِي وأَصْحَابِي هُجُوعُ

يريد الداعي المُسْمِع .

٢١ ـ أن يأتي الفاعل على لفظ المفعول به ، وهو قليل[1] كقوله تعالى : ﴿ إنه كانَ وَعْدُه مَأْتِيًّا ﴾ أي آتياً :

٢٣ ـ التكرار ، وهو نوعان : لفظي بعضه يجزىء من بعض مثل قول الشاعر :

كَمْ نِعْمَةٍ كانَ لكُمْ كَمْ كَمْ وَكَمْ

وقال الآخر :

هَلاَّ سألتَ جُموعَ كِنْدَةَ يومَ ولَّوْا أيْنَ أيْنَا

وربما استوحشوا من إعادة الكلمة ثانية فغيروا منها حرفاً ثم أتبعوها الأولى كقولهم عطشان نَطْشَان ، كرهوا أن يقولوا عطشان عطشان فأبدلوا من العين نوناً وكذلك قولهم حسن بَسَن وشَيْطَان لَيْطَان في أشباه له كثيرة .

وتكرار معنوي بلفظين مختلفين . قال ذو الرمة :

لَمياءُ في شَفَتَيْهَا حُوَّةٌ لَعَسٌ وفي اللِّثَاتِ وفي أنيابِهَا شَنَبُ

واللعس هو حوة ، فكرر لما اختلف اللفظان .

٢٣ ـ الاستعارة ، والكناية ، والتعريض ، وقد أحسن عرض هذين البابين أستاذنا الدكتور محمد زغلول سلام بما لا مزيد عليه ، فلينظرا هناك[2] .

---

(١) من إضافاته .

(٢) د . محمد زغلول سلام : أثر القرآن في تطور النقد العربي ص ١٢٨ فما بعدها .

آثرت أن أعرض جهود ابن قتيبة كما ذكرها دون أن أعزل ما أضافه عما نقله كما فعلت مع الفراء ، حتى لا أفسد تبويبه ، ولكني نصصت على ذلك في الهامش ليتضح ما أضافه ابن قتيبة من جهود ، ونلاحظ أن ابن قتيبة فيما أضافه ـ كما اتضح من العرض السابق ـ لم يعن بالاستشهاد بكلام العرب شعره أو نثره إلا في مواضع قليلة . وقد يظهر في بعض المواضع أن بعض ما ذكره من خصائص هو من سمات التعبير القرآني كخروج الأمر إلى الفرض مثل قوله تعالى : ﴿وأقيمُوا الصلاةَ وآتُوا الزكاة﴾ . ولكنه لم ينص على هذا .

* * *

الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها لأحمد بن فارس (٣٩٠ هـ)

أول ما نلتفت إليه عند ابن فارس أنه عقد بعض أبواب كتابه لنظوم القرآن خاصة[١] وهو أمر نحمده له ، لأنه تنبه فيه إلى أنَّ القرآن الكريم تفرد ببعض الخصائص التعبيرية واختص بها ، ولعله ـ أخيراً ـ لم يجد في هذا خروجاً على سنن العرب في كلامهم لأن الأمر مقصور على التصرف في فن القول في حدود إمكانات اللغة ومعطياتها ، وهذه السنن نفسها جُمَّاع تصرف الشعراء والناثرين في القول . واقتدارهم على التعبير ، وهي قابلة للإضافة إليها . وباب الاجتهاد فيها مفتوح ، والعرب أوسع أفقاً ، وأذكى عقلاً من أن يقولوا « إنما عجزنا عن الإتيان بمثله ، لأنه بغير لغتنا ، وبغير السنن التي نستنها »[٢] كما ذكر ابن فارس من قبل فالتصرف في القول لا ينفي النص عن اللغة ، وإضافة بعض الخصائص التعبيرية لا يخرج الكتاب العزيز عن السنن التي استنتها العرب في شعرهم ونثرهم .

---

(١) ابن فارس : الصاحبي ص ٢٤٠ ـ ٢٤٣ .

(٢) ابن فارس الصاحبي ص ١٩٨ .

فمن نظوم كتاب الله ـ كما أوردها ابن فارس ـ الاقتصاص ، وهو أن يكون كلام في سورة مقتصاً من كلام في سورة أخرى أو في السورة معها كقوله جل ثناؤه : **﴿وآتيناه أجرَهُ في الدنيا ، وإنه في الآخرةِ لَمِنَ الصالحين﴾** والآخرة دار ثواب لا عمل ، فهذا مقتص من قوله : **﴿ومن يأتِهِ مؤمِناً قد عَمِلَ الصالحاتِ فأولئكَ لهُم الدرجَاتُ العُلاَ﴾** . . .

١ ـ ومن ذلك أن يكون الكلام محتاجاً إلى بيان ، وبيانه متصل به . قال الله جل ثناؤه : **﴿ويسألونك عن الأَنْفَال﴾** « فبيان هذا السؤال متصل ، وهو قوله ـ جل وعز ـ **﴿قُلْ الأنفال للهِ والرسُولِ﴾** .

٢ ـ ومنه ما يكون بيانه منفصلاً منه ، ويجيء في السورة معه أو في غيرها . قال الله تعالى : **﴿واوفوا بعهدي أوف بعهدكم﴾** . قال أهل العلم بيانُ هذا العهد قوله ـ جل وعز ـ **﴿لئن أقمتم الصلاةَ وآتيتُمُ الزكاةَ وآمنتمْ برُسُلي﴾** فهذا عهده ـ جل ثناؤه ـ وعهدهم تمام الآية في قوله : **﴿لأكفِّرنَّ عنكم سيئاتكم﴾** فإذا اوفوا بالعهد الأول أُعْطُوا ما وُعِدُوا . وقال سبحانه : **﴿ويقول الذين كفروا لَسْتَ مرسَلاً﴾** . فالرد على هذا قوله : **﴿ يس . والقرآن الحكيم . إنكَ لمن المرسلين ﴾** . وهذا الذي يسميه أهلُ القرآنِ جَوَابا .

٣ ـ ومن نظوم القرآن أن تجيء الكلمة كأنها في الظاهر معها ، وهي في الحقيقة غير متصلة بها ، قال الله جل ثناؤه : **﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، وكذلك يفعلون﴾** . فقوله . « وكذلك يفعلون من قول الله ـ جل اسمه ـ لا من قول المرأة . ومنه : « الآنَ حَصْحَصَ الحقُّ أنا راودْتُه عن نفسِه وإنه لَمِنَ الصَّادِقين » ـ انتهى قول المرأة . ثم قال يوسف : « ذلك لِيَعْلَمَ أَني لم أَخُنْهُ بالغَيْبِ» . ومنه : **« يا ويلنا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا»** تم الكلام فقالت الملائكة : هذا ما وعد الرحمن » .

على أن أبا الحسين أحمد بن فارس قد وقف على ما كتبه العلماء في

الخصائص التعبيرية ، ونقل عنهم في كثير مما كتب ، وكان حيناً يكتفي بالنقل دون أن يضيف من عنده شيئا ، وحينا يضيف بعض الشواهد ، أو يفسر شاهداً ، وقد يضع مصطلحاً جديداً يشمل عدة ظواهر تعبيرية ذكرها العلماء من قبله ، ويدرجها تحته . كما فعل في باب « التعويض » .

ونكتفي هنا بذكر ما أضافه إلى جهود العلماء السابقين في هذا المضمار :

١ ـ التسمية باسم الشيء إذا كان مجاوراً له أو كان منه بسبب ، ومن ذلك تسميتهم السحاب سماء ، والمطر سماء ، وتجاوزوا ذلك إلى أن سموا النبت سماء . قال شاعرهم :

إذا نَـزَلَ السَّماءُ بـأرضِ قَـوْمٍ ....

وربما سموا الشحم نَدَىً ، لأن الشحم عن النبت ، والنبت عن الندى قال ابن أحمر :

كَثْورِ العِدَابِ الفَرْدِ يضربه النَّدَى تعلَّى النَّـدَى في مَتْنِـهِ وتحـدَّرا

ومن هذا الباب قول القائل : « قد جعلت نفسي في أديم » أراد بالنفس الماء وذلك أن قوام النفس يكون بالماء .

٢ ـ ذكر الشيء بإحدى صفتيه ، فيؤثر ذلك ، وقد يذكره فلا يؤثر ، بل يكون الأمر في ذلك وفي غيره سواء ، ألا ترى القائل يقول :

مِنْ أَنَـاسٍ ليسَ مِـنْ أَخْـلاَقِهِـمْ عاجِلُ الفُحْشِ ، ولا سُوءُ الطَمَع

فلو كان الأمر على ما يذهب إليه من يخالف مذهب العرب لاستجيز آجل الفحش ، إذ كان الشاعر إنما ذكر العاجل .

٣ ـ إقامة المصدر مُقام الأمر كقوله جل ثناؤه : ﴿فسُبحانَ اللهِ حينَ

تُمْسُونَ وحِينَ تُصبِحون﴾ فتأويلُ الآيةِ : سبحوا الله . فصار في معنى الأمر والإغراء كقوله تعالى : ﴿فضَرْبَ الرِّقَاب﴾ .

٤ ـ إقامة الفاعل مقام المصدر يقولون : قم قائماً . قال :

قم قائماً ، قم قائماً لقيت عبداً قائماً
وعشراء رائماً وأمة مراغماً

وفي كتاب الله ـ جل وعز ـ ليس لوقعتها كاذبة ، أي تكذيب .

٥ ـ إضافة الشيء إلى من ليس له ، لكنه أضيف إليه لاتصاله به . نحو قول الشاعر :

فروجهن يَحْذُوهُنَّ قَصْراً كما يَحْذُو قَلاَئِصَه الأجِيرُ

٦ ـ جمع شيئين في الابتداء بهما ، وجمع خبريهما ، ثم يرد إلى كل مبتدأ خبره . من ذلك قول القائل : « إني وإياك على عدل أو على جور » فجمع شيئين في الابتداء بهما وجمع الخبرين ، ومراده أني على عدل ، وإياك على جور . وهذا في كلامهم وأشعارهم كثير قال امرؤ القيس .

كأنَّ قلوبَ الطَّيْرِ رَطْباً ويابِساً لدَى وَكْرِهَا العُنَّابُ والحَشَفُ البَالِي

أراد : كأن قلوب الطير رطباً العناب ، ويابساً : الحشف .

٧ ـ إضافة الفعل إلى من وقع به ذلك الفعل . يقولون : ضربت زيداً وأعطيته بعد ضربه كذا فينسب الضرب إلى زيد ، وهو واقع به . قال الله ـ جل ثناؤه ـ ﴿ألم غلبت الروم﴾ فالغلبة واقعة بهم من غيرهم ، ثم قال : وهم من بعد غلبهم سيغلبون ومنه قوله طرفة :

وبَـرْكٍ هَجُود قـد أثارتْ مَخَافَتِي

فأضاف المخافة إلى نفسه ، وإنما المخافة للبرك .

٨ ـ نفي الشيء جملة : من أجل أن وجوده كعدمه سواء كقوله تعالى في صفة أهل النار ﴿ لا يموت فيها ولا يحيا ﴾ فنفى عنه الموت ، لأنه ليس بموت مريح ، ونفى عنه الحياة لأنها ليست بحياة طيبة ولا نافعة ، وهذا في كلام العرب كثير قال أبو النجم :

يلقين بالخبار والاجَارِعِ كلَّ جهيضٍ لين الأكَارعِ
ليسَ بمحفوظٍ ولا بضَائِعِ

فقال : ليس بمحفوظ لأنه ألقي في الصحراء ولا بضائع : لأنه موجود في ذلك المكان وإن لم يوجد ومنه قوله :

بَلْهَاءَ لَمْ تُحفَظْ ولم تُضَيَّعِ

٩ ـ ومن نظم العرب الذي لا يقوله غيرهم « عاد فلان شيخاً » وهو لم يكن شيخاً قط ويقول الهذلي :

قد عاد رهباً رذياً طائش القدم

وقال :

قطعتُ الدهرَ في الشهواتِ حتَّى أعادَتْني عَسِيفاً عبد عبد

١٠ ـ إخراج الشيءِ المحمود بلفظ يوهم غير ذلك . يقولون : فلان كريم غير أنه شريف وكريم غير أن له حسباً وهو شيء تنفرد به العرب . قال :

ولا عيبَ فِيهمْ غيرَ أنَّ سيوفَهُمْ بِهِنَّ فُلولٌ مِنْ قِرَاعِ الكَتَائِبِ

١١ ـ الإفراط في صفة الشيء حتى تجاوز القدر ، اقتداراً على الكلام كقوله :

بخيلٍ تَضِلُّ البُلْقُ في حجراتِه ترى الأُكْمَ فِيهِ سُجَّداً للحَوافِرِ

ويقولون :

لمّـا أتى خَبَرُ الـزُّبيْـرِ تـواضَعَتْ سُـورُ المَـدِينَـةِ والجبـالُ الخُشَّـعُ

وقوله :

بَكَى حارثُ الجولانِ مِنْ هُلْكِ رَبِّهِ

١٢ ـ الاستطراد : وذلك أن يشبه شيء بشيء ، ثم يمر المتكلم في وصف المشبه به كقول الشاعر حين شبه ناقته فقال :

كـأنّـي وَرحْـلِي إذْ رُعْـتُـهَـا على جَمَـزَى جَـازِيء بـالـرمـالِ

فشبه ناقته بثور ، ومضى في وصف الثور ، ثم نقل الشبه إلى الحمار فقال :

أو اصـحـمٍ حـامٍ جَـرامِـيـزُه حـزابِيَـةٍ حيـدي بـالـدِّحَـالِ

ومر في صفة العَيْر إلى آخر كلمته .

● ● ●

هذا ما أضاف ابن فارس إلى جهود سابقيه ، وقد نلاحظ عليه أنه لم يهتم بذكر الشواهد الشعرية في كل موضع بل كان يستشهد بالشعر وبأمثلة من عنده وقد يأتي بظاهرة ولا يذكر لها إلا شواهد قرآنية زاعماً أنَّ العرب تفعل ذلك دون أن يسند كلامه بدليل ، ودون أن ينص على أنها من خصائص النظم القرآني ، وقد مضى ذكر بعض هذه الشواهد والأمثلة بما تكفي مراجعته للتدليل على ما ذكرته .

على أننا نلفت إلى أنَّ السيوطي نقل ـ في المزهر ـ ما ذكره ابن فارس ، وأسنده إلى ابن فارس دون إضافة من عنده[1] .

---

(١) أنظر السيوطي : المزهر ١ / ٣٣٠ فما بعدها .

الخصائص ، لأبي الفتح عثمان بن جني (٣٩٢ هـ)

عرض أبو الفتح لبعض خصائص التعبير في اللغة العربية في سياق حديثه عن قضايا اللغة والنحو ، دون أن يعمد إلى ما عمد إليه سابقوه من الاحتجاج لخصائص النظم القرآني بالشعر أو النثر ، ولكنه يأتي بشاهد من هذا أو ذاك .

على أن أبا الفتح لم يعن بسرد ما ذكره السابقون في هذا المضمار ، وإنما حاول أن يضيف إليه بعض الشواهد والخصائص ، وقد يضع لبعض ما ذكره سابقوه مصطلحاً آخر جديداً كمصطلح « الحمل على المعنى » ، وأدخل فيه ما أطلق عليه أبو عبيدة الاختصار ، والفراء الإضمار ، ويمكننا أن نعرض جهود أبي الفتح في هذا المجال على النحو التالي :

١ ـ وصف المفرد بالجمع كقول مزاحم العقيلي :

لظَلَّ رَهِيناً خاشِعَ الطرفِ حطه تخلّبُ « جَذْوَى » والكَلاَمُ الطَرَائِفُ

فوصفه بالجمع ، وإنما ذلك وصف على المعنى ، كما حكى أبو الحسن عنهم من قولهم :

ذهب به الدينار الحمر والدرهم البيض

٢ ـ الحذف :

أ ـ حذف الجملة كقول الرسول : « الناس مجزيون بأعمالهم إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر » ومنه قول التغلبي :

إذا ما الماءُ خَالَطَها سَخِينَا

أي فشربنا سخيناً ، وعليه قوله سبحانه ﴿ **فقلنا اضربْ بعصاك الحجرَ فانفجرتْ مِنْه اثنتا عشرةَ عيناً** ﴾ أي فضرب فانفجرت ، وقول النابغة :

وكَـأَنْ قـد

أي كانت قد زالت .

ب ـ حذف المفرد :

١ ـ حذف المبتدأ نحو قوله تعالى : ﴿ **كأنهم يومَ يرَوْنَ ما يُوعَدُون لم يلبَثُوا إلا ساعةً من نهارٍ بلاغٌ** ﴾ أي ذلك أو هذا بلاغ وهو كثير .

٢ ـ حذف المضاف ، وذلك كثير واسع ، وإن كان أبو الحسن لا يرى القياس عليه نحو قوله سبحانه : ﴿ **ولكنَّ البرَّ من اتَّقى** ﴾ .

٣ ـ حذف المضاف إليه . كقول العجلي :

« **أقبَّ مِنْ تَحْتُ عَرِيضٌ مِنْ عَلُ** »

٤ ـ حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه وأكثر ذلك في الشعر .

٥ ـ حذف المفعول به نحو قوله تعالى : ﴿ **وأوتيتْ من كلِّ شيء** ﴾ أي أوتيت منه شيئاً وقوله سبحانه ﴿ **فغشاها ما غشى** ﴾ أي غشاها إياه فحذف المفعولين جميعا .

٦ ـ حذف الظرف نحو قول طرفة :

فإن مُتُّ فانعَيْنِي بمـا أَنَـا أهلُهُ وشُقِّي عَلَيَّ الجَيْبَ يا بنَةَ مَعْبَدِ

أي إن متُّ قبلك . هذا ما يريد لا محالة ، ألا ترى أنه لا يجوز أن يشترط الإنسان موتَه لأنه يعلم أَنه مائت لا محالة ؟ .

٧ ـ حذف المعطوف كما روي عن أحمد بن يحيى أنهم يقولون (راكبُ الناقةِ طليحان) أي راكبُ الناقةِ والناقةُ طليحان .

٨ ـ حذف المستثنى نحو قولهم : جاءني زيد ليس إلا ، وليس غير أي ليس إلا إياه ، وليس غيره .

٩ ـ حذف خبر إنَّ مع النكرة خاصة . نحو قول الأَعْشَى :

إنَّ مَحَلاًّ وإنَّ مرتَحَلا وإنَّ في السَّفْرِ إذْ مَضَوْا مَهَلا

أي إنَّ لنا محَلا ، وإنَّ لنا مُرتَحَلا .

١٠ ـ حذف المنادى فيما أنشده أبو زيد من قوله :

فخير نحن عند الناس منكم إذا الداعي المثوبُ قال يَالا . .

أي يا لبني فلان .

٣ ـ الحمل على المعنى :

أ ـ تذكير المؤنث نحو قوله :

فلا مزنةٌ ودَقَتْ وَدْقَهَا ولا أرضَ أبقَلَ إبقَالَهَا

ذهب بالأرض إلى الموضِع والمكان :

ب ـ تأنيث المذكر : نحو قوله :

أتهْجُرُ بَيْتاً بالحِجَازِ تلفَّعَتْ بهِ الخَوْفُ والأَعداءُ مِنْ كلِّ جَانِبِ

ذهب بالخوف إلى المَخَافة . وقال لبيد :

فمضَى وقَدَّمَهَا وكانت عادةً منه إذَا هِيَ عَرَّدَتْ إقْدَامُهَا

وقال آخر :

يأَيُّهَا الراكبُ المُزْجِي مَطِيَّتَه سَائِلْ بَني أَسَدٍ ما هذه الصَّوْتُ ؟

ذهب إلى الاستغاثة .

وقال الآخر :

وإنَّ كلاباً هذه عَشْرُ أَبْطُنٍ وأنتَ بريءٌ مِنْ قبائِلِهَا العَشْرِ

حـ ـ إفراد الضمير مع الجمع . وقال ذو الرمة :

وَمَيَّـةُ أحسَنُ الثَّقَلَيْنِ وَجْهـاً وسـالفـةً ، وأحسَنُـهُ قَـذَالا

فأفرد الضمير مع قدرته على جمعه ، أو ترى أن الموضع موضع جمع ، وقد تقدم في الأول لفظ الجمع فترك اللفظ إلى الإفراد ، لأنه مما يؤلف في هذا المكان .

وقال تعالى : ﴿ **بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ . فأفرد على لفظ ثم جمع من بعد . وقال عبيد :

فـالـقُـطبّـيَـاتُ فـالـذَّنـوبُ

وإنما القطبية ماء واحد معروف .

« واعلم أن العرب إذا حملت على المعنى لم تكد تراجع اللفظ كقولك : « شكرت من أحسنوا إليَّ على فعله » ، ولو قلت « شكرت من أحسن إليَّ على فعلهم » جاز .

وأما قول الفرزدق :

وإذا ذكـرتَ أبـاك أو أيـامَـه أخْـزَاك حين تُـقَبَّـلُ الأحْـجَـارُ

يريد الحجر ، فإنه جعل كل ناحية حجراً ، ألا ترى أنك لو مسست كل ناحية منه لجاز أن تقول : مسست الحجر ، وعليه ' شابت مفارقه وهو كثير العثانين وهذا هو سبب اجتماع لفظة الجماعة على معنى الواحد (في رأي أبي الفتح) .

د ـ حمل الثاني على الأول في المعنى ، ومن ذلك قوله :

يـا لـيـتَ زوجَـكِ قـدْ غـدَا مُـتَـقـلِّداً سَـيْـفـاً ورُمْـحَـا

أي وحاملاً رمحاً ، فهذا محمول على معنى الأول لا لفظة . وعليه :

علفتُها تِبْناً وماءً بارداً حتى شتَتْ هَمَّالةً عيناهَا

أي سَقَيْتُهَا ماءً بارداً . وقوله :

فَعَلا فُرُوعُ الايهُقَان وأطفلت بالجَلْهَتَيْنِ ظِبَاؤُهَا وَنَعَامُهَا

أي وأفرخت نعامها . وقول الراعي النميري :

إذَا ما الغَانِيَاتُ بَرَزْنَ يَوْماً وزججن الحَوَاجِبَ والعُيُونَا

أي وكحلن العيون .

٤ ـ التجريد :

ومعناه أن العرب تعتقد أن في الشيء نفسه معنى آخر كأنه حقيقته ومحصوله وعلى هذا يخاطب الإنسانّ منهم نفسه لا غيره . قال الشاعر :

قالَتْ له النفسُ إنّي لا أرى طَمَعَا وإنَّ مولاك لم يسلم ولم يصدِ

● ● ●

وبعد . . فهذه محاولة القدماء في استنباط الخصائص التعبيرية للغة العربية وقد ظهر من عرضنا لها ما قررناه من قبل من إصرارهم على أن يجدوا لكل ظاهرة تعبيرية في القرآن الكريم نظيرها في شعر الشعراء ، وقد يذكر أحدهم بعض الخصائص التعبيرية ويحتج لها بالقرآن الكريم وحده ، ولكنه لا ينص أبداً على أن القرآن تفرد بها ، بل يحترس غالباً فيذكر أن العرب تفعل ذلك ، وإنْ لم يؤيد كلامه بدليل ، وقد أشرنا إلى محاولة ابن فارس في تخصيص بعض أبواب كتابه لبعض نظوم اختص بها القرآن الكريم ، وقلنا إنها محاولة محمودة ، ولكن ما جاء فيها ليس بذي خطر كبير .

ولقد كان لما كتبه القدماء في هذا الموضوع أثر كبير في الباحثين المحدثين الذين عرضوا لدراسة الأسلوب العربي ، والأسلوب القرآني ، ونجتزىء هنا بذكر مثلين على طرفي نقيض : أما أحدهما فهو الأستاذ مصطفى صادق الرافعي الذي نقل ما ذكره القدماء كما قرروه دون تدخل منه إلا حذف الشواهد الشعرية ، والاكتفاء بالاستشهاد بالآيات القرآنية على سنن العرب في كلامهم[1] . وفي هذا ما أخذناه على القدماء ونأخذه عليه .

وأما الثاني فهو الأستاذ خليل السكاكيني عضو مجمع اللغة العربية القاهري الذي نقل ما ذكره القدماء بكثير من شواهدهم ، وأضافَ إليْه بعض الشواهد ، ثم وضع له عنواناً غريباً هو التشويش في اللغة العربية « ومضى يذكر هذه الخصائص التعبيرية مقرراً أنها لون من التشويش ينبغي على اللغة أن تتنزه عنه وتتسامى »[2] . وهذا رأى عجيب لأحد أساطين اللغة وحماتها .

وليس بنا أن نقف من هذه الخصائص موقف هذين العالمين الجليلين ولا موقف غيرهما من القدماء ، وإنما لا بُدَّ لنا أن نعيد النظر فيما قرروه ، ونقله الخَلَفُ منهم عن السلف مضيفاً إلى ما نقل أو غير مضيف ، ممحصين ذلك ، ولن نقبل منهم الخلط بين خصائص التعبير القرآني ، وخصائص التعبير عند الشعراء أو الاستشهاد على بعض الخصائص القرآنية ببعض الشواهد المجهولة النسبة ، أو المنسوبة إلى قائل مغمور ، أو قائل غير مغمور ولكنه جاء بعد نزول القرآن ، وكان القرآن بعض ثقافته . وهو أخذ بالأحوط حتى يتبين خلاف ذلك ، وليس في هذا تشدد ربما أخذنا به بعض من يرون أن اللغة لا تتطور تطوراً واضحاً في هذه الفترة الزمنية القصيرة. ونحن ـ وإن كنا نوافقهم على ذلك ـ لا نستطيع أن نغفل أثر القرآن الكريم في شعر

---

(١) مصطفى صادق الرافعي : تاريخ آداب العرب ، جـ ١ / ٢٣١ .

(٢) مجلة مجمع اللغة العربية الجزء الثامن سنة ١٩٥٥ ، ص ١١٧ وما بعدها .

الشاعرين ونثر الناثرين بعد الإسلام فربما وجدوا فيه ظاهرة تعبيرية فاحتذوها في شعرهم أو نثرهم . وعلى ذلك سوف نقبل من الخصائص التعبيرية للغة الأدبية قبل الإسلام ما عليه شاهد جاهلي فقط ، وما لم نجد له شاهداً لم نقبله أو توقفنا فيه .

ويمكننا أن نحدد ما قبلناه من خصائص التعبير للغة الأدبية قبل الإسلام ـ دون تكثر بذكر الشواهد التي مضى ذكرها ـ بما يأتي :

أولاً ـ خصائص صوتية :

وتتمثل في مراعاة النسق الموسيقي بحذف بعض أصوات الكلمة لتحقيق الإنسجام الصوتي .

ثانياً : خصائص صرفية :

وتتمثل في إحلال صيغ محل أخرى كوضع فعيل موضع مُفْعِل أو مُفْعَل ، أو أفعل موضع الفاعل،وكاستخدام المصدر في موضع الفاعل،أو الفاعل في موضع المفعول،أو المفعول في موضع المصدر،أو وضع مفعول موضع مُفْعَل،أو بإتباع صيغة لأخرى،وكوضع الفرد موضع الجمع،أو الجمع موضع المثنى،أو المثنى موضع المفرد ، والإضمار لغير مذكور .

ثالثاً : خصائص تركيبية :

وتتمثل في الخروج من الرفع إلى النصب ، والإتباع في حركات الإعراب ، والتضمين ، ومخالفة القياس لهدف فني ، وحذف الجواب والمضاف و« لا » مع الأَيْمَان والظرف والمعطوف ، والمنادى وخبر إنَّ ، والاقتصار على أحد الاسمين في الإخبار عنه ، وذكر الشيء بإحدى صفتيه والقلب بوضع اللفظ في غير موضعه، والحكاية وجمع شيئين في الابتداء بهما وجمع الخبرين ،ومخالفة ظاهر اللفظ كإخراج الشيء المحمود بلفظ يوهم غير

ذلك (وهو ما أطلق عليه البلاغيون تأكيد المدح بما يشبه الذم) ، وكالدعاء على جهة الذم لا يراد به الوقوع ، وفي خروج الأمر والاستفهام إلى أغراض بلاغية ، وفي الاستطراد ، والتجريد .

ولما كانت أغلب ملاحظات القدماء فيما يتصل بخصائص التعبير معتمدة على الشعر دون النثر فقد مضينا نحاول أن نضيف إلى الخصائص السابقة بعض الخصائص التي تظهر في أسلوب النثر الجاهلي ، وقد وجدنا أستاذنا الدكتور عبد المجيد عابدين عرض لبعض هذه الخصائص في سياق حديثه عن « الأمثال »[1] بما يكفي في هذا المضمار ومما ذكره :

١ ـ الميل إلى الجمل القصار المتلاحقة ، والتي تكون منفصلة أو متصلة بروابط خفيفة في وحدات (Units) متتالية أشبه بحبات العقد ، وهي على كل حال لا تصل إلى العبارات الطويلة المركبة (Periodes) التي تترابط فيما بينها ترابط أعضاء الكائن الحي ، ويبدو أن هذه ظاهرة تعبيرية في الأسلوب السامي على وجه العموم .

٢ ـ التوسع الكائن في إستخدام أدوات الشرط والجمل الحالية ، وأفعل التفضيل الذي تنفرد به العربية دون سائر أخواتها الساميات ذلك بأنّ صيغة (أفعل مِنْ) ليس لها نظير في العبرية والآرامية والحبشية والعربية الجنوبية القديمة .

٣ ـ الميل إلى التسوية بين العبارات وكثرة الفواصل والفقرات السريعة والحروف العاطفة الخفيفة كالواو والفاء ونحوهما .

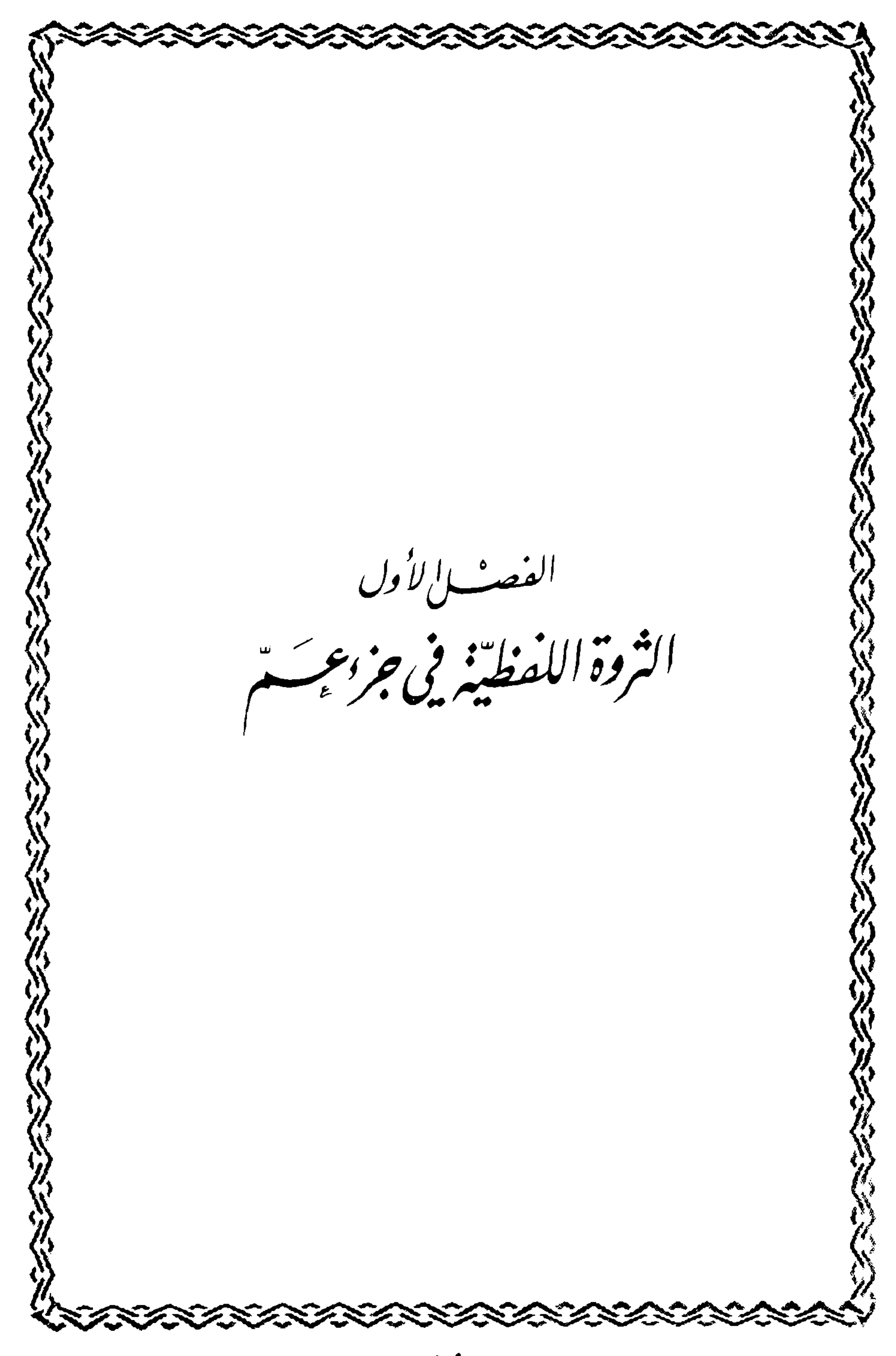
٤ ـ الميل إلى التسجيع المقترن بالتوازن العددي للعبارات ، لأن

---

(١) د . عبد المجيد عابدين : الأمثال (القاهرة ١٩٥٦) ص ٩٨ .

« الحفظ إليه أشرع ، والآذان لسماعه أنشط ، وهو أحق بالتقييد وقلة التفلّت » .

٥ ـ الاتجاه إلى التصوير المجازي السريع الخاطف ، والعزوف عن التحليل المتصل الهادىء .



الفصل الأول

الثروة اللفظية في جزء عمّ

١ ـ غريب القرآن

الغريب في اللغة :

في لسان العرب : « أغرب الرجل : صار غريباً ، وقِدْح غريب ليس من الشجر التي سائر القداح منها ، ورجل غريب ، ليس من القوم ، والغريب : الغامض من الكلام[١] .

وفي مفردات الراغب : « . . . قيل لكل متباعد غريب ، ولكل شيء فيما بين جنسه عديم النظير غريب »[٢] .

فالغريب في اللغة ما خالف الشائع المألوف وتباعد عنه .

والغريب في اصطلاح البلاغيين هو الوحشي أو الحوشي الذي لا يظهر معناه إلا بالتنقير عنه في كتب اللغة المبسوطة ، يقول القزويني : « والغرابة أن تكون الكلمة وحشية لا يظهر معناها فيحتاج أن ينقر عنها في كتب اللغة المبسوطة »[٣] .

---

(١) ابن منظور : لسان العرب مادة (غرب) .
(٢) الراغب : المفردات مادة (غرب) .
(٣) القزويني : الايضاح ص ٣ .

ويرى ضياء الدين بن الأثير أن الوحشي قسمان : غريب حسن ، وغريب قبيح[1] ثم يقسم الألفاظ إلى ثلاثة أقسام : قسمان حسنان ، وقسم قبيح ، « فالقسمان الحسنان أحدهما ما تداول استعماله الأول والآخر من الزمن القديم إلى زماننا هذا ولا يطلق عليه أنه وحشي ، والآخر ما تداول استعماله الأول دون الآخر ويختلف في استعماله بالنسبة إلى الزمن وأهله . وهذا هو الذي لا يعاب استعماله عند العرب ، لأنه لم يكن عندهم وحشيا وهو عندنا وحشي ، وقد تضمن القرآن الكريم منه كلمات معدودة وهو التي يطلق عليها غريب القرآن . . . وأما القبيح من الألفاظ الذي يعاب استعماله فلا يسمى « وحشياً » فقط بل يسمى « الوحشي الغليظ »[2] .

أما أخوه مجد الدين بن الأثير فيقسم الألفاظ قسمين : عَامّ ، وخاص . « أما العام فهو ما يشترك في معرفته جمهور أهل اللسان العربي بما يدور بينهم في الخطاب ، فهم في معرفته شَرَع سواء ، أو قريب من السواء ، تناقلوه فيما بينهم ، وتلقفوه من حال الصغر لضرورة التفاهم وتعلموه . وأما الخاص فهو ما ورد فيه من الألفاظ اللغوية والكلمات الغريبة الحوشية التي لا يعرفها إلا من عُنِيَ بها وحافظ عليها واستخرجها من مظانها ، وقليلٌ ماهم »[3] .

ونلاحظ أن الغريب والوحشي أو الحوشي مصطلحان مترادفان عند علماء البلاغة يقول ابن رشيق في العمدة : « ويقال للوحشي أيضاً حوشي »[4] ، ثم يقول : « وإذا كانت اللفظة خشنة مستغربة لا يعلمها إلا العالم المبرز ،

---

(١) ابن الاثير : المثل السائر : ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(٢) السابق : ص ٢٢٨ وما بعدها .

(٣) ابن الأثير (مجد الدين) : النهاية في غريب الحديث والأثر : (ط . العثمانية ١٣١١ هـ) ص ٢

(٤) ابن رشيق : العمدة في صناعة الشعر ونقده (ط . أولى الخانجي ١٩٠٧) ٢ / ٢٠٥ .

والأعرابي القحّ فتلك وحشية ، وكذلك إن وقعت في غير موقعها ، وأتى بها مع ما ينافرها ولا يلائم شكلها »[1] .

والسؤال الآن : هل الغرابة تنافي الفصاحة ؟

لستُ أرى ذلك ، لأن الغرابة قد تنشأ بسبب اختلاف البيئة المكانية أو البيئة الزمانية ، فالذي يعيش في بيئة محدده قد يستغرب ألفاظ بيئة أخرى ، ومن يعيش بفكره ولغته في عصر قد يستغرب ألفاظ عصر غير عصره ، وليس كل ما يستغربه الناس في مكان ما أو عصر معين منافياً للفصاحة ضربة لازب .

وسؤال آخر : هل الغرابة تكون في اللفظة المفردة ذاتها أم هل تكتسب غرابتها من موضعها في السياق ؟

والجواب في نظري أن كليهما جائز فقد تكون اللفظة في ذاتها غريبة لتنافر حروفها ، أو لأنها غير مستعملة في البيئة المكانية أو الزمانية المقصودة وقد تكتسب الغرابة من التركيب ذاته .

ولنا في النص الذي أوردناه منذ قليل لابن رشيق ما يظاهر ما نقول وهو : « وإذا كانت اللفظة خشنة مستغربة لا يعلمها إلا العالم المبرز والأعرابيُّ القح فتلك وحشية ، وكذلك إن وقعت غير موقعها وأتى بها مع ما ينافرها ولا يلائم شكلها »[2] .

والسؤال الأخير : هل تُعتبر الكلمات الدخيلة نوعاً من الغريب ؟

والجواب : نعم ، إذا لم تكن معروفة في البيئة الزمانية أو المكانية ، ومن ثم وجدنا من يقسم الغريب إلى غريب أصيل ، وغريب دخيل[3] ، وإن

---

(١) السابق نفسه .   (٢) السابق نفسه

(٣) محيي الدين بلتاجي : الغريب وأثره في التفسير القرآني (رسالة دكتوراه مخطوطة بمكتبة كلية الآداب جامعة الاسكندرية برقم ١٩٤٦ لسنة ١٩٧٥) ص ٨٤ .

كنت لا أوافق على هذا التداخل في المصطلحات منعاً للبلبلة والاضطراب ، وأوثر أن يقتصر الغريب على الأصيل فقط ، أما الدخيل فخير له أن يدرس في مبحث خاص به تحت مصطلح « المعرب أو الدخيل » .

غريب القرآن :

يقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في تبيان معنى غريب القرآن وتحديد مفهومه ، « وفي القرآن ألفاظ اصطلح العلماء على تسميتها بالغرائب ، وليس المراد بغرابتها أنها منكرة أو نافرة أو شاذة كما رأيت في باب اللغة ، فإن القرآن منزه عن هذا جميعه ، وإنما اللفظة الغريبة ها هنا هي التي تكون حسنة مستغربة في التأويل بحيث لا يتساوى في العلم بها سائر الناس »[1] .

وأدق منه أن نقول إن اللفظة الغريبة هي اللفظة التي يخفي معناها على عامة المثقفين دون خاصتهم في بيئة معينة بسبب وفودها من بيئة مكانية غريبة أخرى ، أو بسبب إستعمالها في غير المعنى الذي وضعت له ، بقرينة تعين على تحديد المعنى الجديد كما في قوله تعالى : ﴿ولم يلبسوا إيمانهم (بظلم)﴾ .

وقد اعتمدت في هذا التحديد لمفهوم الغريب على الأستاذ الرافعي نفسه فقد ذكر ذلك حين تحدث عن منشأ الغرابة كما سيأتي .

ويبدو أن غريب القرآن قد عاصر التنزيل وجاء معه ، وقد أشار القرآن الكريم نفسه إلى شيء من ذلك حين خاطب الرسول ﷺ بقوله : ﴿ وأنزلنا إليك الذكرَ لتبينَ للناسِ ما نُزِّل إليهم ولعلَّهم يتفَكَّرُون ﴾ (النحل ٤٤) ،

---

(١) مصطفى صادق الرافعي : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (المكتبة الأهلية بمصر ط . ثانية ١٩٢٦) ص ٦٣ .

وقال : ﴿ **وما أنزلنا عليك الكتابَ إلا لتُبيّنَ لهم الذي اختلفوا فيه وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** ﴾ (النحل ٦٤) ، يقول الإمام ابن تيمية : « ويجب أن يعلم أنّ النبي ﷺ بين لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه ، فقوله تعالى : ﴿**لتبين للناس ما نزّل إليهم يتناول هذا وهذا**﴾[1] .

وقد روي أن أعرابياً سأل رسول الله في قوله تعالى : ﴿**الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم**﴾ (الانعام ٨٢) ، قائلاً : وأينا لم يظلم نفسه ، ففسره الرسول الكريم بالشرك ، واستدل عليه بقوله جل شأنه ﴿**إن الشرك لظلم عظيم**﴾[2] (لقمان الآية ١٣) .

كما روي عن إبراهيم التيمي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه سئل عن قوله تعالى ﴿**وفاكهة وأبّاً**﴾ (عبس ٣١) فقال « أي سماء تظلني ، وأي أرض تقلني إن أنا قلت في كتاب الله ما لا أعلم »[3] .

ويبين جولدتسهر معنى العلم في قولة أبي بكر رضي الله عنه فيقول : « ولكن تحت لفظ « علم » لا يفهم عالم الدين الإسلامي أصلاً نتاج التفكير الخاص ، ولا حتى الخبر المتلقى عن مصدر غير مختص ، وإنما يفهم التعاليم المسندة إلى مصادر العلم المعتد بها وحدها ، أي المسندة بالرواية إلى الرسول نفسه أو إلى صحابته ، فمن يستطيع أن يسند قوله إلى هذه المصادر وحدها فهو وحده الذي عنده العلم ، وكل ما عدا ذلك فهو رأى ، أو هوى ، أو حدس وتخمين ، ولا حق له أن يسمى علماً »[4] .

---

(١) ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير (ط . دار القرآن الكريم بالكويت ١٩٧١) ، تحقيق د . عدنان زرزور ص ٣٥ .

(٢) انظر : د . محمد زغلول سلام : أثر القرآن في تطور النقد العربي ص ٢٩ .

(٣) ابن تيمية مقدمة في أصول التفسير ص ١٠٨ والسيوطي : الاتقان في علوم القرآن : ١ / ١١٥

(٤) جولد تسهر : مذاهب التفسير الإسلامي (ترجمة د . عبد الحليم النجار) دار الكتب ١٩٥٥ ص ٨٠ .

كما روي عن أنس أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر : « **وفاكهة وأبّا** » فقال : « هذه الفاكهة قد عرفناها ، فما الأب ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال : إن هذا لهو التكلف يا عمر »[1] .

ويبين الإمام ابن تيمية موضع حيرة عمر وتحرج أبي بكر فيقول : « وهذا كله محمول على أنهما رضي الله عنهما إنما أرادا استكشاف ماهية الأب ، وإلا فكونه نبتاً من الأرض ظاهر لا يجهل ، لقوله تعالى : ﴿**فأنبتنَا فِيها حبًّا ، وعِنَباً وقَضْبا ، وزيتُوناً ونَخْلاَ ، وحدائِقَ غُلْبًا**»[2] .

ثم جاء ابن عباس رضي الله عنه فتوسع في تفسير معنى الغريب في القرآن واستدل عليه بالشعر كما ذكرنا في غير هذا الموضع ، وتلاه عدد كبير من علماء المسلمين حتى أن السيوطي رحمه الله يقول : « أفرده بالتصنيف خلائق لا يحصون »[3] .

ويمكننا أن نتبين في تفسير الغريب القرآني اتجاهين :

أحدهما : يفسر الغريب بترتيب وروده في السور ، ويمثله أبو عبيدة في « مجاز القرآن » والفراء في « معاني القرآن » وابن قتيبة في « غريب القرآن » .

الثاني : يفسر الغريب بترتيب كلماته على حروف المعجم ، ويمثله السجستاني في « نزهة القلوب » والهروي في « كتاب الغريبين » ثم الراغب الأصفهاني في « المفردات »[4] .

---

(١) ابن تيمية : مقدمة في أطول التفسير : ص ١٠٩ .
(٢) السابق نفسه .
(٣) السيوطي : الاتقان في علوم القرآن (الموسوية ١٢٨٧ هـ) ١ / ١٤١ .
(٤) محيي الدين عبد السلام بلتاجي : غريب القرآن وأثره في حياة التفسير القرآني : ص ١٥ وقد فصل الحديث في هذين الاتجاهين .

أما منشأ الغرابة في ألفاظ القرآن الكريم فيحدده لنا الأستاذ **مصطفى صادق الرافعي** بقوله : « ومنشأ الغرابة فيما عدده من الغريب أن يكون ذلك من لغات متفرقة أو تكون الألفاظ مستعملة على وجه من وجوه الوضع يخرجها مخرج الغريب كالظلم والكفر والإيمان ونحوها مما نقل عن مدلوله في لغة العرب إلى المعاني الإسلامية أو يكون في سياق الألفاظ قد دل بالقرينة على معنى معين غير الذي يفهم من ذات اللفظ كقوله تعالى : ﴿ **فإذا قرأناه فاتبع قرآنه** ﴾ أي فإذا بيناه فاعمل به[1] .

ويمكننا أن نستخلص من هذا النص أن منشأ الغرابة فيما يأتي :

١ ـ وجود ألفاظ من بيئة مكانية أخرى غير البيئة الحجازية .

٢ ـ الخروج باللفظ إلى معنى اصطلاحي جديد .

٣ ـ استعمال اللفظ في غير المعنى الذي وضع له بقرينة من القرائن .

ومعنى هذا أن الغريب يشمل :

أ ـ ما وقع في القرآن الكريم من ألفاظ البيئات العربية الأخرى غير الحجازية[2] .

ب ـ ما وقع في القرآن الكريم من ألفاظ الأمم الأجنبية المجاورة لشبه الجزيرة العربية .

حـ ـ الألفاظ الإسلامية .

والناظر في التفسير الذي نقله السيوطي عن ابن عباس ـ بغض النظر عن

---

(١) مصطفى صادق الرافعي : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص ٦١ .

(٢) لا يعارض هذا أن اللغة الأدبية قد تطورت من لهجة قريش كما قررناه في فصل سابق ، فربما علق بها في تطورها بعض ألفاظ فصيحة من لهجات قبائل أخرى استحسنت فاستعملت ، ولعل القرآن الكريم قصد بايرادها كما يقول صاحب رسالة غريب القرآن وأثره في التفسير الإسلامي ، « نوعا من الاستغراق المكاني حتى لا يوصف بالاقليمية » ص ٦٠ .

الشك فيه ـ يجد الرجل قد استوفى في تفسيره كل هذه الأنواع ، فمن تفسيره لبعض ألفاظ القبائل تفسيره لفظة أغطش بـ« أظلم » وهي أنمارية فيما يقولون ، وكلمة « واجفة » بـ« خائفة » وهي هذلية فيما يقررون .

ومن تفسيره لبعض الألفاظ الأجنبية تفسيره « سامدون » بـ« مغنّين » وهي فيما يذكرون من لغة حمير ، ومن تفسيره لبعض الألفاظ الإسلامية تفسيره للرادفة بأنها « النفخة الثانية »[1] .

على أننا نؤثر أن يشمل مصطلح « الغريب » النوع الأول مضافاً إليه ما اكتسب غرابته من استخدامه في سياق معين ، أما النوعان الآخران فنفضل أن يدرسا وحدهما في مبحثين مستقلين ، وذلك منعاً لاختلاط المصطلحات وتداخلها ، ومن ثمّ سوف نقتصر في بحث « الغريب » في جزء عمّ على النوع الأول وهو ما وقع في القرآن من ألفاظ القبائل العربية أما النوعان الآخران فسوف نفرد لكل منهما مبحثا خاصاً أحدهما بعنوان : « المعرب والدخيل ، والثاني عنوانه : « الألفاظ الإسلامية » .

الغريب في جزء عمّ

أحصيت ما ورد عن ابن عباس رضي الله عنه من الغريب الذي وقع في جزء عمّ فوجدته نحواً من ثنتين وخمسين لفظة[2] ، وما ورد عند الفراء في « معاني القرآن » فوجدته نحواً من إحدى وأربعين ومائتين[3] ، وما ورد عند

(١) السيوطي : الاتقان ١ / ١٤١ ، ١ / ١٦٥ ، وانظر أيضاً هامش ص ٨٩ من كتاب مذاهب التفسير الإسلامي لجولد تسهر وهو تعليق للدكتور عبد الحليم النجار .

(٢) انظر ما أورده السيوطي من تفسير غريب القرآن عن ابن عباس من طريق ابن أبي طلحة وهي أصح الطرق : الاتقان ١ / ١٤٢ وما ورد في جزء عم ١ / ١٤٧ .

(٣) الفراء : معاني القرآن ٣ / ٢٢٧ (تحقيق د . عبد الفتاح إسماعيل شلبي) الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ .

الشيخ حسنين محمد مخلوف في « كلمات القرآن » تفسير وبيان « وهو من العلماء المعاصرين فوجدته نحواً من إحدى وسبعين وأربعمائة لفظة[1] .

ومعنى هذا أن دائرة الغريب تتسع من عصر إلى عصر بسبب البعد عن المنابع الأصيلة للفكر الإسلامي ، وضعف الاتصال باللغة العربية وعلومها .

ولست بمستطيع أن أدرس الألفاظ الغريبة في « جزء عم » كلها ، ولكنني أختار منها للدراسة ستة ألفاظ قيل إنها من الألفاظ التي وقعت في القرآن من لغات القبائل[2] ، أي أن غرابتها فيما قيل كانت بسبب اختلاف البيئة المكانية .

ومذهبي في دراستها أن أردّ اللفظة إلى أصلها الحسي المادي ، وأبين تطورها الدلالي من الحسي إلى المعنوي ، ومن الحقيقة إلى المجاز ، ثم أحدد الدلالة العامة للفظة التي تتفرع منها سائر الدلالات ، مع ربط دلالتها بدلالة مشتقاتها ، والاستشهاد على استعمالها بالشعر أو النثر الصحيح كلما أمكن ، ثم أبين دورانها في القرآن الكريم كله ، والمعنى الذي استخدمت به في جزء عمّ ، وأحاول أن أستظهر سبب غرابتها ، وسوف أكتب اللفظة وبجوارها اسم السورة ورقم الآية ليسهل الرجوع إليها ، ثم أذكر اللفظة في سياقها ، ليعين السياق على تبين معناها : وسوق أرتب هذه الألفاظ على السور لا على حروف المعجم .

١ - يرجون : (النبأ ٢٧)

قال تعالى : ﴿ **إنَّ جهنمَ كانتْ مِرْصَاداً ، للطاغِينَ مَآبا ، لا بثينَ فِيهَا**

---

(١) حسنين محمد مخلوف : كلمات القرآن : تفسير وبيان (دار المعارف بمصر ١٩٧٥) .
(٢) السيوطي : الاتقان ١ / ١١٦ (النوع السابع والثلاثون) .

أحْقَابَا لا يذوقون فيها بَرْداً ولا شرَابا ، إلاَّ حَمِيماً وغَسَّاقاً ، جزاءً وِفَاقَا ، إنهم كانوا لا يرجون حِسَابا » .

يرجع أصل معنى الرجاء ـ فيما أرى ـ إلى (الرجا) مقصوراً ، وهو « ناحية البئر من أعلاها إلى أسفلها »[1] ، ولما كانت هذه الناحية مقصودة مرغوبة عند العرب فقد تطورت اللفظة من الدلالة على هذا المعنى الحسي إلى معنى مجرد هو التعلق بتحقيق أمر مرغوب .

وقد أرجع الراغب في مفرداته أصل معنى الرجاء إلى « أرجت الناقة أي دنا نتاجها ، وحقيقته : جعلت لصاحبها رجاء في نفسها بقرب نتاجها »[2] وقد أوردت الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء) ـ حين عرضت لتفسير هذه اللفظة ـ قول الراغب دون تعليق مما يشعر بموافقتها عليه[3] ، ولست أرى ذلك ، لأنه لا يمكن ـ في نظري ـ أن تجعل الناقة لصاحبها (رجاء) في دنوّ نتاجها قبل أن يكون معنى الرجاء نفسه قد تطور من الحسي إلى المجرد .

ويرجّح ما نقول أن الهمزة في صيغة « أفعل » في « أرجت الناقة » ربما دلت على الصيرورة ، ومعنى أرجت الناقة حينئذ صارت مرجوّة لقرب نتاجها ، وعبارة الراغب « جعلت لصاحبها رجاء في نفسها لقرب نتاجها » تكاد تؤيد ذلك ، ويجوز أن تكون صيغة « أفعل » ههنا للاستحقاق كأزوجت هند أي استحقت الزواج ، ويكون المعنى أن الناقة استحقت أن تكون مرجوّة لدنوّ نتاجها .

« ويقال : رجوت فلاناً رجوا ، ورجاء ، ورجاوة ، ويقال : ما أتيتك إلا

---

(١) الزبيدي : تاج العروس مادة (رجو)

(٢) الراغب الأصفهاني : المفردات في غريب القرآن مادة (رجو) .

(٣) د . عائشة عبد الرحمن : الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق (دار المعارف بمصر ١٩٧١) ص ٤٧٤

رجاوة الخير ، وتَرَجّيته ، وارتَجَيْتُه ، ورجَّيته كله بمعنى رجوته ، قال بشر يخاطب بنته :

فـرَجِّي الخيرَ وانتَـظِرِي إيَـابِي إذَا مَـا القَـارِظُ العَنْـزِيُّ آبَـا

« قال الليث : والرجو : المبالاة ، ما أرجو : ما أبالي ، قال الأزهري وهذا منكر ، وإنما يستعمل الرجاء بمعنى الخوف إذا كان معه حرف نفي ، ومنه « ما لكم لا ترجون لله وقاراً » المعنى : ما لكم لا تخافون لله عظمة ، قال الفراء : ولم نجد معنى الخوف يكون رجاء إلا ومعه جحد تقول : ما رجوتك أي ما خفتك ، ولا تقول رجوتك في معنى خفتك ، قال أبو ذؤيب :

إذا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لم يَـرْجُ لسْعَهَا وخَـالفَهَا في بيتِ نُـوبٍ عَوَاسِـلِ

وقال الجوهري : أي لم يخف ، ولم يبال :

« وقال الراغب بعد ما ذكر قول أبي ذؤيب : ووجه ذلك أن الرجاء والخوف يتلازمان ، وفي المصباح : لأن الراجي يخاف ألاَّ يدرك ما يترجاه »[1] .

وقد عرضت الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطيء) للفظة (ترجون) مع غيرها من الألفاظ الغريبة التي وردت في مسائل نافع بن الأزرق ، وكان نافع قد سأل ابن عباس رضي الله عنهما عن قوله تعالى : ﴿ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً﴾ ، ومما قالته الدكتورة في ذلك : « وفي القرآن فعل الرجاء مضارعاً إحدى وعشرين مرة ، وفعل أمر مرة واحدة ، ومرة كذلك إسم مفعول ، مرجوّون » ، وواضح أن السؤال يتجه إلى الكلمة في آية (نوح) وحدها لخصوصية في معناها إذ يجيء الرجاء في سائر مواضعه الأخرى بمعناه المتبادر المألوف[1] من الطلب والأمل والتعلق بالمرجو »[2] .

(١) الزبيدي : تاج العروس : مادة (رجو) ، (بتصرف) .
(٢) د . عائشة عبد الرحمن : الاعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق ص ٤٧٤ .

وقد راجعت إحصاء الدكتورة فوجدته صحيحاً فيما عدا اسم المفعول (مرجوّون) هذا ، فلم أجد في القرآن آية فيها (مرجوُون) ، والآية التي ذكرتها الدكتورة عائشة وهي ﴿وآخَرُونَ مرجوون لأمر الله﴾ صحتها ﴿وآخَرُون مُرْجَوْنَ لأمرِ الله﴾[1] وتقرأ ﴿مُرْجَئُونَ لأمرِ الله﴾ من الإرْجَاء لا من الرجاء !

وقد وجدت في القرآن الكريم آية فيها اسم المفعول (مَرْجُوّ) في غير الموضع الذي ذكرته الدكتورة عائشة والآية هي ﴿قالوا يا صالحُ قد كنتَ فينا مَرْجُوًّا قبْلَ هذا﴾[2] وليس ثمة اسم مفعول من الرجاء غيره .

هذه واحدة ، وأخرى لا بدّ منها إذ قررت أن الرجاء في سائر مواضعه الأخرى - غير آية نوح - يجيء بمعناه المألوف وهو التعلق بالمرجوّ . وهذا التقرير في الحقيقة مجاف للواقع ، إذا ضربنا صفحاً عن التأويل والتعسف فيه ، فهل الرجاء بمعناه المألوف في آية النبأ : ﴿إنهم كانوا لا يَرْجُون حِسَابا﴾ ؟ وهل هو كذلك في آية الفرقان ﴿بل كانوا لا يرجُونَ نُشُورا﴾ ؟

لقد سبق أن نقلنا أن الفراء يرى أن فعل الرجاء المنفي يختلف في معناه عن فعل الرجاء المثبت ، فالمنفي يفيد الخوف ، والمثبت لا يفيده ، فإذا حكمنا رأي الفراء - على فرض التسليم به - فيما تقوله الدكتورة عائشة وجدنا في القرآن الكريم عشرة أفعال رجاء منفية وكلها في رأي الفراء متفقة في الدلالة على الخوف وهي :

١ - ﴿ فإنهم يألُمونَ كما تألُمونَ وترجُونَ من اللَّهِ ما (لا يروجون ﴾ النساء ١٠٤
٢ - ﴿ إنَّ الذين (لا يرجون) لقاءَنَا ورَضُوا بالحياةِ الدُّنْيَا . . ﴾ يونس ٧
٣ - ﴿ فَنذَرُ الذينَ (لا يرجون) لقاءَنا في طُغْيَانِهم يَعْمَهُونَ ﴾ يونس ١١

---

(١) التوبة : ١٠٦ .
(٢) هود : ٦٢ .

٤ ـ ﴿ قال الذين (لا يرجون) لقاءَنا ائت بقرآنٍ غيرِ هذا أو بدّله﴾ يونس ١٥

٥ ـ ﴿ والقواعدُ من النساءِ اللاتي (لا يَرْجُونَ) نِكَاحًا ﴾» النور ٦٠

٦ ـ ﴿ وقال الذين (لا يرجُونَ) لقاءَنَا لولا أُنْزِلَ علينا الملائِكَةُ ﴾ الفرقان ٢١

٧ ـ ﴿ أفلم يكُونُوا يَرَوْنَها بل كانُوا (لا يرجُونَ) نُشُوَرا ﴾ الفرقان ٤٠

٨ ـ ﴿ قل للذين آمنوا يَغْفِرُوا للذين (لا يَرْجُون) أيامَ الله ﴾ الجاثية ١٤

٩ ـ ﴿ ما لكم (لا ترجُونَ) للّهِ وَقَارًا ﴾ نوح ١٣

١٠ ـ ﴿ إنهُمْ كانُوا (لا يرجون) حِسَابا ﴾ النبأ ٢٧

على أننا لا نوافق الفراء على ما ذهب إليه ، فكيف يمكن أن يكون (لا يرجون) في معنى (لا يخافون) في هذه الآية الكريمة مثلاً : ﴿ فإنهم يألُمُونَ كما تألمون ، وترجون من الله ما لا يرجون ﴾ ؟

ونريد الآن أن نتلبث عند قوله تعالى في سورة النبأ ﴿ إنهم كانوا لا يرجون حسابا ﴾) ، فما معنى (لا يرجون) في سياق الآية الكريمة ؟

لقد ذكر المفسرون ثلاثة معان لفعل الرجاء ، هي : التعلق بأمر والرغبة في تحقيقه ـ الخوف ـ المبالاة ، وهي كلها معان متقاربة ، لأن التعلق بأمر والرغبة في تحقيقه تقترن بالخوف من فوت المرجوّ ـ كما تقول الدكتورة عائشة عبد الرحمن ـ أو هما متلازمان كما يقول الراغب ، ولا ريب أن التعلق بشيء يقتضي المبالاة به ، ولكن السياق قد يرجح واحداً منها فيبرزه ويكون المعنيان الباقيان تابعين يشتركان مع المعنى المراد في الإيحاء والتبيين ، والمعنى الذي نختاره في هذه الآية الكريمة أن (لا يرجون) بمعنى (لا يبالون) ، لأن اللامبالاة تقتضي الاستخفاف والمكابرة والعناد ، وهي من صفات الطاغين ﴿إنَّ جهنم كانت مِرْصَاداً ، للطاغِينَ مآبا ، لا بِثِينَ فيها أحقابا . لا يذُوقُونَ فيها بَرْداً ولا شَرَابا ، إلاّ حَمِيماً وغَسَّاقًا ، جزاءً وِفاقًا . إنهم كانوا لا يرجُونَ حِسَابا﴾ .

ولأن المؤمن الحق قد لا يخاف الحساب لثقته بعمله وبعفو الله عنه (لا أعبد الله طمعاً في ثوابه ولا خوفاً من عقابه) ولكنه يبالي به ، ولأن مجرد نفي الرغبة والتعلق بالحساب لا يكفي في تصوير حال أولئك الطغاة . ومن ثم كان (لا يبالون) أقرب شيء إلى المعنى المقصود في سياق الآية الكريمة .

والسؤال الآن : لماذا استغربت هذه الكلمة في وقت مبكر جداً ومعاصر للتنزيل الحكيم ؟

لقد روي أن نافع بن الأزرق سأل ابن عباس عن معناها في قوله تعالى : ﴿ما لكم لا ترجون الله وقارا﴾ فهل كان ذلك لخصوصية في معناها كما ذكرت الدكتورة عائشة .

الرأي عندي أنّ المادة ربما كانت غريبة على البيئة المكية ، والسؤال عنها في موضع لا يعني أنها واضحة في بقية المواضع ضربة لازب ، فغرابتها ناتجة من بعدها عن الإستعمال في البيئة المكانية التي تلقت التنزيل أول مرة ،وإلاَّ فالمعنى السياقي يمكن التنبه إليه بفضل النظر ةالتأمل ، ومن هنا نميل إلى اعتبارها غريبة على البيئة المكية ولتكن من لهجة هذيل كما ذكر السيوطي ، فقد وردت في شعر أبي ذؤيب الهذلي وفسرها الجوهري « لم أرج : لم أبال » . وربما عرفت هذه المادة بهذا المعنى في بعض اللهجات الأخرى . قال قطرب : « وهذيل وخزاعة ومضر يقولون : لم أرج : لم أبال »(١) .

٢ ـ واجفة : (النازعات ٨)

الوجف في الأصل نوع من السير . جاء في تاج العروس : « الوجف والوجيف ضرب من سير الخيل والإبل سريع وهو دون التقريب ، وقد وجف

---

(١) أبو حيان : البحر المحيط (مكتبة النصر الحديثة بالرياض ـ دون تاريخ) ٨ / ٣٣٩ (نشرة مصورة عن مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٢٩ هـ) .

الفرس يجف وجفا أسرع ، وأوجفته حثثته ، ويقال : أوجف فأعجف ، وشاهد وجف قول العجاج :

«نَاجٍ طَوَاهُ الأَيْنُ مِمَّا وَجَفَا   طَيَّ اللَّيَالِي زُلَفاً زُلَفَا
سَمَاوَةَ الهِلَالِ حَتَّى احقَوْقَفَا»[1]

قال الراغب : « وأوجف فأعجف أي حمل الفرس على الإسراع فهزلة بذلك »[2] .

ثم توسع العرب في الدلالة فقالوا : « وجف الشيء إذا اضطرب ، ووجف القلب إذا خفق ، ويقال استوجف الحب فؤاده إذا ذهب به وأنشد :

«ولكنَّ هذا القلبَ قلبٌ مضَلَّلٌ   هفَا هَفْوَةً فاستَوْجَفَتْهُ المَقَادِرُ»[3]

وقد وردت هذه المادة في القرآن الكريم مرتين : احداهما بصيغة الفعل الماضي المتعدي بالهمزة (أوجف) في قوله تعالى : « فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب » (الحشر ٦) أي لم تحثوا في سبيله الخيل والركاب لتحصلوا عليه ، والثانية بصيغة إسم الفاعل من الفعل الثلاثي (واجفة) في قوله تعالى : ﴿قلوب يومئذ واجفة﴾ .

وجاءت هذه اللفظة في سياق حديث القرآن الكريم عن يوم القيامة ، وما يحدث فيه من اضطراب نظام الكون واختلاله « **فتهتز الأرض بمن عليها ، وتتبعها السماء فتنشق وتنتثر كواكبها** »[4] ، ثم بيان الأثر النفسي لذلك في القلوب والأبصار : ﴿ **يوم ترجف الراجفة ، تتبعها الرادفة ، قلوبٌ يومَئِذٍ**

---

(١) الزبيدي : تاج العروس مادة (وجف) .
(٢) المفردات : مادة (وجف) .
(٣) ابن منظور : لسان العرب (مادة وجف) .
(٤) الإمام محمد عبده : تفسير جزء عمّ ص ١١ .

واجِفَة ، أبصارُهَا خاشِعَة ، يقولون أئِنَّا لمردُودُونَ في الحَافِرَة أئِذَا كنا عِظَاماً نَخِرَة ﴾ .

وقد فسر بعض المفسرين واجفة بخائفة وبعضهم بمضطربة سريعة الخفقان وكلا التفسيرين مرتبط بالآخر ، لأن الخفقان والاضطراب ناتج من الخوف والارتياع لما يحدث في الكون العظيم من اختلال : « قال الزجاج : شديدة الاضطراب . قال قتادة : وجفت عما عاينت ، وقال ابن الكلبي : خائفة[1] » ، وقال الراغب : « واجفة أي مضطربة كقولك طائرة وخافقة ، ونحو ذلك من الاستعارات لها »[2] .

وقد عرض ابن عباس ـ فيما نسب إليه من تفسير ـ لهذه اللفظة وذكر أنها بمعنى « خائفة » ، وهذا يعني أنها استغربت في عصر ابن عباس مما اضطره إلى تفسيرها . فماذا كان وجه غرابتها ؟

يرى السيوطي أنها من لغة هذيل[3] ، ومعنى هذا أنها استغربت لأنها كانت غير شائعة الاستعمال في البيئة المكية ، وهو أقرب الفروض إلى تعليل سبب غرابتها . على أني بحثت عنها في ديوان الهذليين[4] فلم أقف لها فيه على أثر .

٣ ـ أغطش : (النازعات ٢٩)

قال تعالى : **﴿أأنتُمْ أشَدُّ خَلْقاً أم السماءُ بنَاهَا . رفَعَ سَمْكهَا فسواها وأغَطشَ ليلها وأخرَ ج ضُحَاهَا﴾** .

---

(١) ابن منظور : لسان العرب مادة (وجف)

(٢) المفردات : مادة (وجف) .

(٣) الاتقان : ١ / ١٦٦ .

(٤) انظر ديوان الهذليين (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب في سنتي ٦٤ ـ ١٩٦٥) الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة ١٩٦٥ .

أطلق الغطش في الأصل على الضعف في البصر من مرض أو كبر فيما نرجح قال الجوهري في الصحاح : « والغطش في العين شبه العمش[1] » . وقال الراغب : « وأصله من الأغطش وهو الذي في عينه شبه عمش »[2] . وفي لسان العرب : « الغطش الضعف في البصر كما ينظر ببعض بصره ، ويقال : هو الذي لا يفتح عينيه في الشمس . قال رؤبة :

أُرِيهِمُ بِالنَّظَرِ التَّغْطِيش »[3] .

وفي تاج العروس : « غَطَشَ فلان يغْطِشُ من حد ضرب غَطْشاً بالفتح وغَطَشَانا بالتحريك إذا مشى رويداً من مرض بعينه أو كبره . . . قال رؤبة يصف كبره :

أُرِيهِمُ بِالنظرِ التَّغْطِيش وهزَّ رأسِي رِعْشَةَ التَّرعِيش »[4]

ولأن الغطش لا يهدي الإنسان في طريقه نقلوا الدلالة إلى المفازة ، لأن الإنسان لا يهتدي فيها . قالوا : « وفلاة غطشى لا يهتدي لها . قال الأعشى :

ويَهْمَاءَ بِاللَّيلِ غطشىَ الفَلا ةِ يُؤْنِسُنِي صوتُ فَيَّادِهَا »[5]

« وحكى أبو عبيد عن الأصمعي : فلاة غطشى : غمة المسالك لا يهتدي لها . وقال الأصمعي في باب الفلوات : الأرض اليهماء التي لا يهتدي فيها لطريق ، والغطش مثله »[6] .

ولهذا جعلوا « غطشى من أسماء السراب : عن ابن الأعرابي قال أبو على

---

(١) الجوهري : تاج اللغة وصحاح العربية : مادة (غطش) .
(٢) الراغب : المفردات مادة (غطش) .
(٣) ابن منظور : لسان العرب مادة (غطش) .
(٤) الزبيدي : تاج العروس من جواهر القاموس مادة (غطش) .
(٥) الجوهري : الصحاح مادة (غطش) .
(٦) الزبيدي : تاج العروس مادة (غطش) .

وهو تصغير الأغطش تصغير الترخيم ، وذلك لأن شدة الحر تَسْمَدِرٌّ فيه الأبصار فيكون كالظلمة »[1] .

ثم انتقلت الدلالة إلى وصف الليل فقالوا : « والغُطَاش بالضم ظلمة الليل واختلاطه وليل غطش ، وأغطش مظلم ، قال الأعشى :

نَحَرْتُ لهم مَوْهِناً ناقَتِي   وغامَرَهُمْ مُوهِمٌ أغْطَشُ »[2]

« وغطش الليل فهو غاطش أي مظلم . الفراء في قوله تعالى : « وأغطش ليلها أظلم ليلها ، وقال الأصمعي : الغطش : السَّدَف . وجعل أبو زيد الغطش معاقباً للغبش »[3] .

ثم انتقلت الدلالة إلى التغافل عن الشيء ، والتعامي عنه ، قال الجوهري : « والتغاطش : التعامي عن الشيء »[4] ، وقال الزبيدي : « وتغاطش عن الأمر تغافل عنه »[5] .

ولفظة « أغطش » وحيدة في القرآن الكريم مادة وصيغة .

وقد وردت في سياق خطاب الله جل وعز للمعاندين المنكرين للبعث « لتقريعهم وتسفيه أحلامهم في استبعاد ما يوعدون به من البعث وما يتبعه أو استبطاء أخذ الله لهم في هذه الدنيا مع أنه هو الذي أنشأهم وخلقهم أول مرة ، فإن كانوا قد غفلوا عن أنه هو خالقهم فلينظروا إلى السماء وإلى الأرض ليعلموا أن من خلقهما وأنشأهما لا يصعب عليه خلقهم »[6] . قال عز من قائل :

---

(1) ابن منظور : لسان العرب مادة (غطش) .
(2) الزبيدي : تاج العروس مادة (غطش) .
(3) ابن منظور : لسان العرب مادة (غطش) .
(4) الصحاح : مادة غطش .
(5) تاج العروس : مادة غطش .
(6) الإمام محمد عبده : تفسير جزء عمّ (مطابع الشعب دون تاريخ) ص ١٢ .

﴿أأنتم أشدُّ خَلْقاً أم السماءُ بناها . رفع سَمْكَهَا فسواها . وأغطش ليلَهَا وأخرج ضُحَاها . والأرض بعد ذلك دَحَاها . أخرج منها ماءَها وَمرْعَاها . والجبالَ أرسَاهَا . متاعاً لكم ولأنعامكم﴾ .

وقد اختارها التعبير القرآني البليغ دون غيرها من نحو « أظلم » لأن الغطش درجة من درجات الظلمة ـ فيما قال أبو زيد ـ تعقب الغبش ، واختيار درجة من الدرجات إشعار بغيرها ، وجعل الظلمة درجات أدلّ في القدرة وأعظم في التدليل على التدبير القادر أو القدرة المدبرة ، ومن ثمّ وجدنا التعبير القرآني يختار « الضحا » أيضاً ليوازن درجة من درجات الليل بدرجة من درجات النهار » وليس وراء ذلك روعة في الاستخدام ، ودقة في التعبير ، وجودة في الاختيار .

ولعل هذه الخصوصية في التعبير هي التي جعلتها مستغربة في موضعها ، وجعلت ابن عباس ومَنْ بعده يتصدون لها بالتفسير ، فالمادة ـ كما اتضح مما ذكرنا ـ مستعملة في شعر الأعشى ، وهو نجدي كان يرتاد عكاظ ، وهو صناجة العرب ، وشعره على كل لسان ، ومن ثم نستبعد أن تكون المادة غريبة على أسماع الحجازيين أو أن تكون أنمارية كما ذكر السيوطي [١] ، وعلى فرض التسليم بأنها أنمارية « فلعلها من ألفاظ القبائل التي علقت باللغة الأدبية واستحسنتها فاستعملتها » .

٤ ـ رجيم : (التكوير ٢٥) .

« وما هوَ بقولِ شيطانٌ رَجِيم»

أصل الرجم : الرمي بالرجام وهي الحجارة ، والرجم : حجارة توضع على القبر ثم عُبّر بها عنه . وأنشد الجوهري لكعب بن زهير :

---

(١) الاتقان : ١ / ١١٦ (النوع السابع والثلاثون) .

أنا ابنُ الذي لم يُخْزِني في حياتِه ولم أُخْـزِه لما تغيَّبَ في الـرَّجْمِ

وتراجموا بالحجارة أي تراموا بها ، وفرس مِرْجَم : يرجم الأرض بحوافره ، وجاء يرجُم إذا مرّ يضطرم في عدوه ، وقد رجمْته أرجمه رجماً فهو رجيم ومرجوم ثم أصبح الرجم يعني القتل ، لأنه ناتج عنه ، ثم تطورت الدلالة فقيل : رَاجَم فلان عن قومه إذا ناضل عنهم ، ورجل مِرْجم أي شديد كأنه يرجم معاديه ، وتراجموا بالكلام تسابُّوا ، والمُراجمة مثل ذلك .

ثم تطورت الدلالة فقيل : رجم بالظن أو الغيب رمي به ، ثم كثر في موضع الظن ، ويقال : صار رجماً : لا يوقف على حقيقة أمره ، وقال أبو العيال الهذلي :

إن البلاءَ لدَى المقاوس مُخرِجٌ ما كان من غَيْبٍ ورَجْمٍ ظُنُونِ

وكلام مرجَّم . غير يقين . قال زهير :

وما هو عنها بالحديثِ المرجَّم

والرجم اللعن ، ومنه الشيطان الرجيم أي الملعون المرجوم باللعنة وهو مجاز ويكون الرجم أيضا بمعنى السبّ والشتم ، ومنه « لأرجمنّك » أي « لأسبنّك » ويكون بمعنى الهجران أيضا والطرد ، وبكل من الثلاثة فُسّر لفظ الرجيم في وصف الشيطان[1] .

ولقد ورد الرجم في القرآن الكريم مرة واحدة بصيغة الماضي ، وأربع مرات بصيغة المضارع ، وثنتين بصيغة المصدر (رجم ، رجوم) إذا اعتبرنا (رجوما) مصدرا ، ولم نعتبرها جمع رجم على خلاف بين المفسرين ، ثم

---

(١) لسان العرب مادة رجم (بتصرف) ، وانظر أيضا المادة نفسها في الصحاح وتاج العروس والمفردات للراغب .

ست مرات بصيغة فعيل (رجيم) ثنتان منها معرفة، والباقي نكرة، وهذه الست كلها في وصف الشيطان أو خطابه، واستعمل الرجم في هذه المواضع بمعناه الحسي أي القذف بالحجارة في خمسة مواضع وبالمعنى المجرد أو المجازي في سائر المواضع.

وقد وردت لفظة رجيم في سياق الحديث عن القرآن الكريم، والرسول الكريم (جبريل) الذي حمله إلى المصطفى ﷺ، ونفى الجنون عن المصطفى، لأنه: «عرف بصحة العقل وبالأمانة على الغيب، فلا يكون ما يحدّث به من خبر الآخرة والجنة والنار، والشرائع والأحكام قول شيطان رجيم تظنون أنه قد تبعه وخالط عقله»[1]. قال تعالى: ﴿إنه لقولُ رسولٍ كريم ذي قوةٍ عند ذي العرش مكين. مطاعٍ ثَمَّ أمين. وما صاحِبُكم بمجنون. ولقد رآه بالأفقِ المبين. وما هو على الغيب بِضَنِين، وماهو بقولِ شيطانٍ رجيم﴾.

ورجيم في الآية الكريمة: فعيل بمعنى مفعول أي مرجوم، والخلاف في كون الرجم بشيء مادي أو غير مادي فبعضهم يرى أنه مرجوم بالكواكب استنادا إلى قوله تعالى: ﴿وجعلناها رُجُوما للشياطين﴾ (الملك ٥)، وبعضهم يرى أنه مرجوم باللعنة أو مطرود من رحمة الله.

وهذه اللفظة لم ترد في التفسير المنسوب إلى ابن عباس، وهذا دليل على أنها لم تستغرب في عصر التنزيل، والمادة وفيرة، ومستعملة في الشعر الجاهلي، أي أنها كانت مستعملة في اللغة الأدبية قبل الإسلام ومفهومه، وليس في استعمالها وصفا للشيطان أو خطابا له خصوصية تؤدي إلى غرابتها، ومن هنا فنحن نتوقف في نسبتها إلى قيس عيلان كما ذكر السيوطي في

---

(١) الإمام محمد عبده: تفسير جزء عم ص ٢٦.

الإتقان[1] . وعلى فرض التسليم بأنها دخلت اللغة الأدبية من غير اللهجة القرشية التي تطورت منها ـ وهذا ممكن ـ فإننا لا نسلم غرابتها ، فالمادة وردت بمعنييها الحسي والمجرد في القرآن الكريم مرات عديدة ، ووردت كما ذكرنا في الشعر الجاهلي ، ولم تستغرب في عصر ابن عباس ، بل إنها لم تستغرب بعد عصر ابن عباس بفترة طويلة ، فلم أجد الفراء في « معاني القرآن » عرض لها .

٥ ـ مسغبة : (البلد ١٤)

قال تعالى : ﴿ فلا اقتَحَمَ العقَبَة ، وما أدراك ما العقبة . فكُّ رقبةٍ . أو إطعامٌ في يومٍ ذي مسغَبَةٍ ، يتيما ذا مقربة ، أو مِسْكِيناً ذا متربة ﴾ .

السّغب في اللغة : الجوع أو الجوع مع التعب جاء في لسان العرب : « سغب الرجل يسغُب سَغْباً وسغابة وسُغوبا ومسغبة جاع ، وقيل هو الجوع مع التعب ، ورجل ساغب لاغب ذو مسغبة ، وسِغبٌ وسغبان لغبان جوعان أو عطشان ، وقال الفراء في قوله تعالى : ﴿ في يوم ذي مسبغة ﴾ ، أي مجاعة ، وأسغب الرجل فهو مُسغِب إذا دخل في المجاعة كما تقول أقحط الرجل إذا دخل فى القحط .

وفي الحديث أنه قدم خيبر بأصحابه وهم مسغبون أي جائعون ، وامرأة سغبى وجمعها سغاب ، ويتيم ذو مسغبة أي ذو مجاعة[2] .

ونلحظ أن المادة قليلة فما ذكرته الآن هو ما أورده اللسان عن هذه المادة ولم يزد عليه شيئا ، ولم يتطور معنى هذه المادة من الحسيّ إلى غيره من المعاني المجردة أو المجازية أو الاصطلاحية . ولم يذكر أصحاب

---

(١) الاتقان : ١ / ١٦٦ .

(٢) ابن منظور : لسان العرب مادية (سغب)

المعاجم شغرا وردت فيه هذه المادة مما يجعلنا نفكر في احتمالين :

أحدهما : أن تكون هذه اللفظة مما دخل لغة العرب من لغات الأمم المجاورة لهم .

والثاني : أن تكون هذه اللفظة من المشترك السامي واقتطعت لغةالعرب جزءا من الدلالة العامة لها واكتفت به .

والاحتمال الثاني أقرب إلى الصواب ، لأني لم أجد أحدا ممن عرضوا للألفاظ المعربة أو الدخيلة ذكرها ، ولأن السين والغين والباء حروف أصيلة في لغة العرب . وقدوجدت في معجم جزنيوس مادة « سغف » (saghaf) العبرية وهي تعني : عذّب ، أوجع ، آلم ، أمات الجسد ، كبح الشهوات بالتعذيب الذاتي[١] ، وواضح أنها تشترك مع « سغب » العربية في الدلالة العامة على الألم الذي قد ينتج من الجوع .

ومن عجب ألا تستغرب هذه اللفظة في عصر ابن عباس في حين استغربت كلمة (متربة) ووردت ضمن مسائل نافع بن الأزرق .

وهذه اللفظة (مسغبة) وحيدة في القرآن الكريم صيغة ومادة . وقد وردت في سياق قوله تعالى : ﴿ فلا اقتحم العقبة ، وما أدراك ما العقبة . فك رقبة أو إطعام في يوم ذي مسغبة ، يتيما ذا مقربة . أو مسكينا ذا متربة ﴾ .

وإطعام اليتيم في يوم ذي مسغبة يوضح أن المسغبة هنا المجاعة كما نصت عليه المعجمات وذكره الفراء .

على أننا لا نكاد نجد قرينة من القرائن تدل على ما ذكره السيوطي من أن

---

(١) Gesenius; Hebraisches und Aramaisches Handwôrterbuch Leipzig, 1921.

هذه اللفظة بلغة هذيل[1] ، وقد تصفحت ديوان الهذليين فلم أجدها فيه[2] .

٦ ـ كَنُود : (العاديات : ٦)

قال تعالى : ﴿ إن الإنسانَ لربِّه لكَنُود . وإنه على ذلك لشَهيد . وإنه لحُبِّ الخيرِ لَشَدِيد﴾ .

الكنود في الأصل : الأرض التي لا تنبت شيئا ، والكِنْدة بالكسر القطعة من الحبل ، وكَنَدَه : قطعة ، قال الأعشى :

أمِيطِي تُمِيطي بصُلْبِ الفؤاد   وصولَ حبالٍ وكنَّادَها

والمرأة الكنود التي تبخل بمودتها ، وهو نوع من التطور الدلالي ، قال النَّمر بن تولب :

فقلتُ وكيفَ صادتْني سُلَيْمَى   ولَمّا أرْمِهَا حتى رَمَتْنِي
كنودُ لا تَمُنُّ ولا تُفَادِي   إذا عَلِقَتْ حبائلُها برَهْنِ

ويقال : كند كنودا أي كفر النعمة فهو كنود ، وهي نقلة أخرى في الدلالة . وتقول : فلان إن سألته نكد ، وإن أعطيته كند ، وإنه لكنود ، وكناد . وكِنْدَة أبو حيّ من اليمن[3] :

وقال الله في كتابه العزيز : ﴿ إن الإنسانَ لربِّه لَكنُود ﴾ وهي بالفتح كجَحُود . وقال ابن منظور ، وهو أحسن ، وقال الكلبي معناه الكفور بالنعمة ، وقال الزجاج لكنود معناه لكفور يعني بذلك الكافر ، وقال الحسن : هو اللوام لربه تعالى : يعد المصيبات وينسى النعم . وفي لغة بني مالك هو

---

(١) الاتقان : ١ / ١٦٦ .

(٢) ديوان الهذليين (طبعة مصورة عن دار الكتب) القاهرة ١٩٦٥ .

(٣) الزبيدي : تاج العروس (بتصرف) مادة (كند) .

البخيل ، وفي لغة كندة هو العاصي كما نقله البيضاوي وغيره من المفسرين قال ابن سيده : ولا أعرف له في اللغة أصلا ولا يسوغ أيضا مع قوله لربه »[1] .

وهذه اللفظة وحيدة في القرآن الكريم صيغة ومادة ، وقد وردت في سياق قول الله عز وجل : ﴿ إن الإنسانَ لربه لكَنُود ، وإنه على ذلك لَشَهِيد . وإنه لحبِّ الخيرِ لشديد ﴾ .

وقد استغربت هذه اللفظة في عصر ابن عباس ، ووردت في مسائل نافع بن الأزرق فمن أين جاءتها الغرابة ؟

إن قول ابن سيدة : « ولا أعرف لها في اللغة أصلا » يجعلنا نتلبث طويلا أمام هذه اللفظة لنحاول معرفة أصلها ، وقد بحثت عنها في معجم جزينيوس فلم أجدها فيه ، ولكن المعجمات ذكرت أن كندة أبو حيِّ من اليمن ، وربما كانت هناك علاقة بين الكنود وكندة ، وربما كانت هذه اللفظة في الأصل عربية جنوبية .

---

(١) الزبيدي : تاج العروس : مادة (كند) .

٢ ـ الألفاظ الإسلامية

جاء الإسلام ـ حين جاء ـ بأنماط من عقائد وعبادات لم تكن مألوفة عندهم كما جاء بها الإسلام ، فقد زاد على بعض ما ألفوا شرائط وأوصافا ، وقيد بعض ما كان مطلقا ، وأوجد ما اقتضته العقيدة الدينية من معان واصطلاحات . وكان لا بد لهذه العقائد والعبادات من ألفاظ تدل عليها ، وتعرف بها . ولا توجد الأسماء من عدم وإنما تؤخذ من أصل الوضع اللغوي ، ثم يتجوز بها إلى ما يراد من معان جديدة مع ملحظ دلالي يربط بين الحقيقة والمجاز ، أو اللغة والاصطلاح إن شئت .

وليس هذا بدعا من الأمر فقد رأينا قبل الإسلام ما اقتضته التجارة من اصطلاحات تُجوز بها إلى معان جديدة اقتضتها ضرورة الحياة . يقول أحمد بن فارس : « كانت العرب في جاهليتها على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونسائكهم ، وقرابينهم فلما جاء الله جل ثناؤه بالإسلام حالت أحوال ، ونسخت ديانات ، وأبطلت أمور ، ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع أخر بزيادات زيدت ، وشرائع شرعت ، وشرائط شرطت فعفّى الآخر على الأول »[1] .

(١) ابن فارس : الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها (بيروت ١٩٦٣) ص ٧٨ تحقيق مصطفى الشويمي) .

وقال ابن برهان فيما يرويه السيوطي عنه : « وصاحب الشرع إذا أتى بهذه الغرائب التي اشتملت الشريعة عليها من علوم حار الأولون والآخرون في معرفتها مما لم يخطر ببال العرب فلا بد من أسامي[1] تدل على تلك المعاني[2] .

وهذه الحقيقة على وضوحها وجلاء مرماها كانت محل خلاف بين العلماء ينقله لنا السيوطي في المزهر حيث يقول : « وقال ابن برهان في كتابه الأصول : اختلفت العلماء في الأسامي : هل نقلت من اللغة إلى الشرع ؟ فذهبت الفقهاء والمعتزلة إلى أن من الأسامي ما نقل كالصوم والصلاة والزكاة ، والحج . وقال القاضي أبو بكر : الأسماء باقية على وضعها اللغوي غير منقولة . قال ابن برهان : والأول هو الصحيح ، وهو أن رسول الله ﷺ نقلها من اللغة إلى الشرع ، ولا تخرج بهذا النقل عن أحد قسمي كلام العرب وهو المجاز ، وكذلك كل ما استحدثه أهل العلوم والصناعات من الأسامي كأهل العروض والنحو والفقه ، وتسميتهم النقض ، والمنع ، والكسر ، والقلب ، وغير ذلك والرفع والنصب والخفض ، والمديد والطويل . . .

« وممن صحح القول بالنقل : الشيخ أبو إسحاق الشيرازي وإلْكِيَا . قال الشيخ أبو إسحاق : وهذا في غير لفظ « الإيمان » فإنه مُبْقَى على موضوعه في اللغة . قال : وليس من ضرورة النقل أن يكون في جميع الألفاظ ، وإنما يكون على حسب ما يقوم عليه الدليل .

« وقال التاج السبكي : رأيت في كتاب الصلاة للإمام محمد بن نصر : عن أبي عبيد أنه استدل على أن الشارع نقل الإيمان عن معناه اللغوي إلى

(١) جرها بالفتحة وهو صحيح .
(٢) السيوطي : المزهر ١ / ٢٩٨ .

الشرعي بأنه نقل الصلاة والحج وغيرهما إلى معان أخر . فما بال الإيمان ؟

« قال السبكي : وهذا يدل على تخصيص محل الخلاف بالإيمان »[1] .

وهكذا كان بين العلماء من رفض انتقال الألفاظ إلى معان اصطلاحية جديدة وهو رفض مرفوض ، ولا تقبله طبيعة اللغة ، وأكثر العلماء على أن هذا واقع في اللغة ولكنهم اختلفوا في بعض الألفاظ كما رأينا في لفظة « الإيمان » . وأثاروا في بعض الأحيان قضايا تتعلق بهذا النقل من اللغة إلى الاصطلاح أو إلى الشرع كما يقولون .

ومن هذه القضايا : هل النقل يقع في الأسماء دون الأفعال والحروف أم هل يقع فيها جميعا ؟ ثم ما المقصود بالاسم ؟ هل هو قسيم الفعل والحرف أم هل يطلق الاسم علما عليها كلها ؟ وهل يقع هذا النقل في الألفاظ المترادفة إن صح أن هناك ترادفا ؟

يقرر الإمام فخر الدين صَدَدَ القضية الأولى أن النقل « في الأسماء دون الأفعال والحروف ، فلم يوجد النقل فيهما بطريق الأصالة بالاستقراء ، بل بطريق التبعية ، فإنَّ الصلاة تستلزم صَلَّى »[2] .

وهو بذلك يقرر أن الأصل في النقل يقع في الأسماء بالأصالة ، وفي الأفعال والحروف بالتبعية . أما الاسم فقد حدده التاج السبكي في شرح المنهاج بأنه « الموضوع بإزاء الماهيات الجعلية كالصلاة ، والمصدر في أنتِ طَلَاق ، واسم الفاعل في أنتِ طالق وأنا ضامن ، واسم المفعول في الطلاق والعتق والوكالة ، والصفة المشبهة في أنت حر ، والفعل الماضي في الإنشاءات . وذلك في العقود كلها والطلاق ، والمضارع في لفظ أشهد من

---

(١) السيوطي : المزهر ١ / ٢٩٨

(٢) أنظر السيوطي : المزهر ١ / ٢٩٩

الشهادة ، وفي اللعان ، والأمر في الإيجاب والاستيجاب في العقود نحو : بعني ، واشتر مني»[1] .

ومعنى هذا أن الاسم يدخل فيه الفعل ماضيا كان أم مضارعا أم أمرا .
ويقرر الإمام فخر الدين أن النقل لا يكون في الأسماء المترادفة «لأنها على خلاف الأصل ، فتقدر بقدر الحاجة»[2] .

قال الصفيّ الهندي : «بل وجد فيها الفرض والواجب ، والتزويج والإنكاح»[3] .

على أن البحث في الألفاظ الإسلامية أمر في غاية الصعوبة والدقة ، وليست كل الألفاظ كالصلاة والزكاة والحج يمكن معرفة أصل وضعها اللغوي ، ثم المعنى الاصطلاحي أو الإسلامي الذي أصبحت تدل عليه ، وإنما هناك كلمات «شائكة الدلالة ، وعليها ظلال من القدسية أو الروحانية ، وتتطلب ممن يعرض لها الحيطة والحذر ، وذلك لأن أقل انحراف في شرحها قد يجلب على الشارح نقمة العامة أو الخاصة ، أو الحكام ، وقد يوصف شارحها بالإلحاد والزندقة . وهي نفس الكلمات التي فرقت المسلمين الأولين شيعا وأحزابا وجعلت منهم فرقامتخاصمة متناحرة ، وأشعلت بينهم نار الفتنة والخصومات ، ويكفي أن تعرف أن من بين هذه الكلمات : العرش ، واللوح ، والروح ، وجنات عدن ، والقيامة ، والوحي وغير ذلك من ألفاظ قد يجلب الخوض فيها أشد النقمة وأقسى العذاب في الدنيا والآخرة»[4] .

وهذه الصعوبة البالغة لم تقعد بعلماء المسلمين عن محاولة الوصول

---

(١) السابق ١ / ٣٠٠ .
(٢) السابق نفسه ١ / ٢٩٩ .
(٣) السيوطي المزهر ١ / ٢٩٩ .
(٤) د. إبراهيم أنيس : كلمة قدم بها كتاب الزينة لأبي حاتم الرازي ص ٩ من الكتاب المذكور .

إلى دلالتها ، وبعضهم انتهج في هذا نهجا لغويا دقيقا وتتبع دورانها في القرآن الكريم كله ، ونظر في سياق الكلام محاولا استخلاص المعنى أو المعاني التي تدل عليها اللفظة .

وقد شهدت الحياة الفكرية العربية محاولات جادة لتفسير الكلمات الإسلامية وتحديد مدلولاتها . وكان « كتاب الزينة في الكلمات العربية الإسلامية » لأبي حاتم أحمد بن حمدان الرازي المتوفي سنة ٣٢٢ هـ قمة هذه المحاولات . يقول محقق الكتاب العالم الجليل حسين بن فيض الله الهمداني : « وضع الشيخ أبو حاتم أحمد بن حمدان الرازي كتابا جامعا في أوائل القرن الرابع الهجري كان أول مرجع يتضمن الأسماء العربية التي نطق بها القرآن والأسماء التي اصطلح عليها المسلمون ، وسماه كتاب الزينة ، وقد حاول المؤلف في هذا الكتاب أن يجمع من شتى الألفاظ العربية ألفاظا تغيرت مدلولاتها ومعانيها في العصر الإسلامي عما كانت عليه في العصر الجاهلي ، وبعمله هذا وضع اللبنة الأولى في علم معاني الأسماء العربية والمصطلحات الإسلامية (Arabic Islamic Semantics) وقد تتبعنا ما وضع من الكتب في هذا الموضوع حتى القرن الرابع فلم نعثر على كتاب يعالج هذا اللون من الدراسات»[١] .

والحق أن كتاب أبي حاتم الرازي ربما كان أول كتاب في هذا المضمار ينهج هذا النهج في تناوله للكلمات الإسلامية ، ولكنه لم يكن أول كتاب يعرض للكلمات الإسلامية إذ صدر قبله بزمن طويل كتاب « الأشباه والنظائر في القرآن الكريم » لمقاتل بن سليمان البلخي المتوفي سنة ١٥٠ هـ وهو كتاب ذو أهمية بالغة ، لأنه ـ وإن اختلف منهجا عن كتاب الزينة ـ يُعَد أول كتاب

---

(١) حسين بن فيض الله الهمداني : مقدمة لكتاب الزينة في الكلمات الإسلاميه العربية الجزء الأول (القاهرة ١٩٥٧) ص ١٤ .

في « السيمانتكس القرآني » ولأن مؤلفه نهج فيه نهجا لغويا مستقيما إذ أورد خمسا وثمانين ومائة لفظة قرآنية ، وتتبع دورانها في القرآن الكريم كله ، ونظر في سياق الكلام وقرائنه ، ثم حاول أن يستخلص معنى « محددا » للفظة في كل موضع وردت فيه . وقد استطاع بمهارة فائقة ، وحس لغوي أصيل أن يجد للفظة « الهدى » مثلا سبعة عشر وجها في سياق الاستعمال القرآني لها . وللفظة « السبيل » ثلاثة عشر وجها ، وللحق أحد عشر ، وللنور عشرة أوجه ، ولكل من الآخرة ، والحسنة والسيئة ، والدين ، والروح ، والوحي ، والتقوى خمسة أوجه . . . الخ[1] .

والمؤلف بذلك يتفق مع النظرة الحديثة التي ترى أن اللفظة لا تكتسب معناها « المحدد » إلا من السياق أو المقام .

على أن مقاتل بن سليمان لم يقتصر فيما أورده على الأسماء فقط ، وإن غلبت على الكتاب ،وإنما ضمّن كتابه الأفعال والحروف ، فتحدث عن معاني « تولى » و« اتقوا » و« يوزعون » و« جعلوا » و« يصدون » وغير ذلك من أفعال ، وتحدث عن معاني بعض الحروف نحو : هل ، وفي ، ومن ، وإلى ، و« أو » و« أم » وغيرها من حروف .

ولكن بعض العلماء لم يرتض هذا النهج الذي نهجه مقاتل ، ورأى فيه انحرافا عن جادة الصواب ، فتصدى للرد عليه ، ونعني به الحكيم الترمذي في كتابه « تحصيل نظائر القرآن » وهو من علماء القرن الثالث الهجري ، يقول الحكيم الترمذي في بداية كتابه « تحصيل نظائر القرآن » : « فإذا نظرنا في هذا الكتاب المؤلف في نظائر القرآن فوجدنا الكلمة الواحدة مفسرة على

---

(١) مقاتل بن سليمان البلخي : الأشباه والنظائر في القرآن الكريم : تحقيق د . عبد الله محمود شحاته (القاهرة ١٩٧٥) ص ٨٩ ، ١٨٥ ، ١٧٥ ، ٣٠٣ ، ٣٠٢ ، ١٠٨ ، ١٣٣ ، ١٦١ ، ١٦٨ ، ١٦٥ .

وجوه فتدبرنا ذلك ، فإذا التفسير الذي فسره إنما اختلفت الألفاظ في تفسيره ، ومرجع ذلك إلى كلمة واحدة . وإنما انشعبت حتى اختلفت ألفاظها »[1] .

ومضى الحكيم الترمذي يتعقب إحدى وثمانين لفظة مما أورده مقاتل محاولا أن يرد معانيها التي ذكرها مقاتل إلى معنى أصلي انفرعت عنه هذه المعاني ، فرد كل المعاني التي ذكرها مقاتل للفظة الهدى مثلا ، والتي اكتسبتها من المقام أو السياق إلى معنى واحد هو « الميل » ومضى يعتسف التأويل في كثير من المواضع ، ويجهد نفسه ويجهدنا معه دون مبرر واضح أو سبب معقول .

على أنّ ما فعله الحكيم الترمذي ، وعارض به مقاتل بن سليمان ليس منهجا مستقيما ولا مقبولا من الوجهة اللغوية ، ولا من الوجهة النقدية إذ هو ينطلق من أن اللفظة لها معنى « محدد » قبل أن تنتظم في كلام أو تأتلف في جمل ، ومهما تصرف بها القول يمكن أن ترد إلى أصلها . والأمر خلاف ذلك وبخاصة في أسماء المعاني ، يقول عبد القاهر الجرجاني : « اعلم أنّ ههنا أصلا ترى الناس فيه في صورة من يعرف من جانب وينكر من آخر ، وهو أنّ الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها ، ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض فيعرف ما بينها من فوائد »[2] .

ويقول أستاذنا الدكتور محمد زكي العشماوي في توضيح مقالة عبد القاهر هذه : « فالألفاظ المفردة عنده هي مجرد علامات اصطلاحية للإشارة إلى شيء ما ، وليست للدلالة على حقيقة هذا الشيء ، وما دام اللفظ المفرد

---

(١) الحكيم الترمذي : تحصيل نظائر القرآن (تحقيق وضبط حسني نصر زيدان) القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٢٠ .

(٢) عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز في علم المعاني صحح أصله الشيخ محمد عبده والشيخ محمد محمود التركزي الشنقيطي (مطبعة السعادة دون تاريخ) ص ٣٧٧ .

مجرد إشارة فإنّ اللفظة المفردة لا يمكن أن تدل على معنى « محدد » وإنما تدل على معنى « مجرد » وما دامت تدل على معنى مجرد فهي تحتمل مئات المعاني ، ومن ثم فلا معنى لها . ولكن متى تؤدي اللفظة معنى محددا ؟ تؤدي اللفظة معنى محددا إذا استخدمت في سياق . فالسياق وحده هو القادر على أن يمنح اللفظة دلالتها المحددة»[1] .

ونقاد الغرب أيضا يقررون هذا الأمر ، يقول ريتشاردز « إنّ معنى أية لفظة لا يمكن أن (يتحدد) إلا من علاقة هذه اللفظة بما يجاورها من ألفاظ »[2] .

ثم يجيء أبو حاتم فلا يقتصر على ألفاظ القرآن الكريم ، وإنما يضم إليها ألفاظ الحديث الشريف ، ولا يكتفي بتتبع دوران اللفظة في القرآن الكريم أو الحديث الشريف ، وإنما يحاول أن يحدد المعنى الاصطلاحي أو الإسلامي الذي خرجت إليه اللفظة عن أصل الوضع اللغوي ، وعرض لعدد من الكلمات الشائكة الدلالة مثل « الصور » و« العرش » وغيرهما مما لم يعرض له مقاتل ، فكان كتابه إضافة إلى علم الدلالة الإسلامي .

وقد انتهج أبو حاتم في كتابه هذا منهجاً أشار إلى مثله أحمد بن فارس من بعد حين قال في معرض حديثه عن الصلاة : « فالوجه في هذا إذا سئل الإنسان عنه أن يقول في الصلاة اسمان لغوي وشرعي ، ويذكر ما كانت العرب تعرفه ، ثم جاء الإسلام به »[3] .

فكان أبو حاتم يذكر أصل المعنى اللغوي الذي كانت العرب تعرفه قبل

---

(١) د. محمد زكي العشماوي : قضايا النقد الأدبي والبلاغة (دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة ١٩٦٧) ص ٣٠٣ .

(٢) السابق : ص ٣٢٠ .

(٣) ابن فارس : الصاحبي : ص ٨١ .

الإسلام مستشهداً على ذلك بالشعر الجاهلي غالباً ، ثم يذكر المعنى الذي جاء به الإسلام وإن كان في كثير من الأحيان « يتناول هذه الكلمات على حذر ، ويمرّ ببعضها مروراً عابراً ، لأنه عاش في أواخر القرن الثالث الهجري حين ساد القلق والاضطراب بين المسلمين من الناحيتين الدينية والسياسية »[1] .

على أن دراستي للألفاظ الإسلامية سوف تقتصر على الألفاظ التي وردت في جزء عمّ بمعنى إسلامي لم تكن العرب تعرفه قبل مجيء الإسلام ، ومذهبي في هذه الدراسة ما قرره ابن فارس من نهج لدراستها ، وهو ذكر ما كانت العرب تعرفه من معانيها ، ثم ما جاء به الإسلام .

وقد تتبعت هذه الألفاظ في جزء عمّ ، وجمعت الأشباه منها إلى النظائر فوجدتها تكون ثلاث مجموعات :

المجموعة الأولى : خاصة بعالم الغيب ومن ألفاظها : الروح ـ العرش ـ اللوح المحفوظ .

المجموعة الثانية : تختص باليوم الآخر ، وألفاظها : الآخرة ـ البعث ـ الجحيم ـ الجنة ـ الحساب ـ الحطمة ـ الزبانية ـ الساعة ـ السعير ـ الصاخة ـ الطامة ـ الغاشية ـ القارعة ـ النار ـ النشور ـ يوم الدين ـ يوم الفصل .

المجموعة الثالثة : تختص بأصول العقيدة الدينية وما يتصل بها ، وألفاظها : الإيمان ـ التسبيح ـ التقوى ـ الرسول ـ الزكاة ـ السجود ـ الصلاة ـ العبادة ـ القرآن ـ الكفر ـ ليلة القدر ـ النحر .

وسوف أدرس هذه الألفاظ دراسة موجزة تكشف عن معناها اللغوي ومعناها الإسلامي .

---

(1) د . إبراهيم أنيس : كلمة قدم بها لكتاب الزينة لأبي حاتم : ص ٩ .

أولاً : المجموعة الأولى : عالم الغيب :

١ - الروح :

قال تعالى : ﴿يومَ يقومُ الروحُ والملائِكةُ صفّاً﴾ (النبأ ٣٨) ، ﴿تَنَزَّلُ الملائكة والروح فيها﴾ (القدر ٤) .

الرُّوح بالضم في كلام العرب : النفخ ، سمي روحاً لأنه ريح يخرج من الروح ، ومنه قول ذي الرمة في نار اقتدحها وأمر صاحبه بالنفخ فيها فقال :

فقلتُ لـه ارفَعْهَا إليْـكَ وأَحْيِهـا بـروحك واجْعَلْهُ لهـا قِيتَـةً قـدرَا

أي أحيها بنفخك . والروح النفس . قال ابن الأنباري : الروح والنفس واحد غير أنّ الروح مذكر والنفس مؤنثه عند العرب . والروح خلق من خلق الله لم يعط علمه لأحد ، قال الزجاج : الروح خلق كالإنس وليس هو بالإنس ، وقال ابن عباس هو ملك في السماء السابعة وجهه على صورة الإنسان وجسده على صورة الملائكة وجاء في التفسير أن الروح ههنا جبريل[1] .

وقال الراغب : « وجعل الروح اسماً للنفس . . وذلك لكون النفس بعض الروح كتسمية النوع باسم الجنس ، نحو تسمية الإنسان بالحيوان ، وجعل اسما للجزء الذي تحصل به الحياة ، والتحرك ، واستجلاب المنافع ، واستدفاع المضار ، وهو المذكور في قوله : ويسألونك عن الروح ، قل الروح من أمر ربي . . . . وسمي أشراف الملائكة أرواحاً نحو : يوم يقوم الروح

---

(١) لسان العرب : مادة (روح) .

والملائكة صفا . تعرج الملائكة والروح . نزل به الروح الأمين . سمي به جبريل »[1] .

وقد ذكر مقاتل بن سليمان البلخي للروح في القرآن الكريم خمسة أوجه منها وجهان في جزء عمّ أحدهما في قوله تعالى : **﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفا﴾** . وفسره بأنه ملك من الملائكة في السماء السابعة ، وجهه على صورة الإنسان ، وجسده على صورة الملائكة ، وهو أعظم من كل مخلوق غير العرش ، والثاني في قوله تعالى : **﴿ تنزل الملائكة والروحُ فيها﴾** وفسره بقوله : »يعني جبريل »[2] .

اللغوي : النفخ ، والنفس ، والشيء الذي تحصل به الحياة .

الإسلامي : أعظم الملائكة خلقاً أو هو جبريل .

٢ ـ العرش :

قال تعالى : **﴿إنه لقولُ رسولٍ كريم . ذي قوةٍ عندَ ذي العرشِ مَكِين﴾** (التكوير ٢٠) .

﴿وهو الغفورُ الودودُ ذو العرشِ المجيدُ فعَّالٌ لما يُريد﴾ .

العرش في اللغة بناء يبني من خشب على رأس البئر يكون ظلالا ، قال القطامي :

ومـا لمثابـاتِ العـروشِ بقيَّـةً ... إذا استُلَّ من تحتِ العروشِ الدعائِمُ

والعرش الملك ، وثلّ عرشه : هدم ما هو عليه من قوام أمره ، وقيل وهي أمره ، وذهب عزّه . قال زهير :

---

(١) الراغب الاصفهاني : المفردات في غريب القرآن مادة (روح) .

(٢) مقاتل بن سليمان البلخي : الأشباه والنظائر في القرآن الكريم (القاهرة ١٩٧٥) ص ١٦ .

تداركتُمَا الأحلافَ قد ثُلَّ عرشُهَا وذبيانَ إذ زلَّت بأحلاَمِها النَّعلُ

والعرش ما يستظلّ به . قالت الخنساء :

كانَ أبو حسّانَ عرشاً خوى مما بناه الدهرُ دانٍ ظليلُ[1]

وجاء في المفردات للراغب : « العرش في الأصل شيء مسقف ، وجمعه عروش والعرش شبه هودج للمرأة شبيهً في الهيئة بعرش الكرم ، وسمي مجلس السلطان عرشاً اعتبارا بعلوه ، وعرش الله ما لا يعلمه البشر على الحقيقة إلا بالاسم ، وليس كما تذهب إليه أوهام العامة ، وقوله : ذو العرش المجيد ، رفيع الدرجات ذو العرش ، وما يجري مجراه قيل هو إشارة إلى مملكته وسلطانه لا إلى مقر له يتعالى عن ذلك »[2] .

اللغوي : البناء ، والملك ، ومجلس السلطان .

الإسلامي : ملك الرحمن ، ولا يحدّ .

٣ ـ اللوح المحفوظ :

قال تعالى : ﴿بلْ هو قرآنٌ مجيدٌ في لَوْحٍ محفُوظ﴾ (البروج ٢٢) .

اللوح في لغة العرب كل صفيحة عريضة من صفائح الخشب ، وكل عظم عريض لوح ، والجمع ألواح ، واللوح المحفوظ مستودع مشيئات الله تعالى وإنما هو على التمثيل[3] .

قال أبو حاتم في الزينة : « قال بعض أهل المعرفة : سمي اللوح الذي يكتب فيه لوحاً ، لأنهم كانوا يكتبون في العظام كعظم الكتف وغير ذلك فكل عظم

---

(١) ابن منظور : لسان العرب مادة (عرش) .

(٢) الراغب : المفردات مادة (عرش) .

(٣) ابن منظور : لسان العرب مادة (لوح) .

كتبوا فيه سموه لوحاً ، ثم قيل لكل ما يكتب فيه من الخشب لوح ، لأنه نحت على تلك الهيئة »[1] . وقال : « روى أبو عبيد بإسناد له عن مجاهد في قوله الله عزّ وجل ﴿وكتبنا له في الألواح من كل شيء﴾ قال : كانت الألواح من زمرد أخضر فلما ألقي موسى عليه السلام الألواح بقي الهدى والرحمة ، وذهب التفصيل »[2] .

وقال محقق الكتاب : « ورد اللوح في التنزيل بمعنى ما يكتب فيه من حجر أو خشب أو عظم ، وبمعنى ألواح السفينة . . . ونظير اللفظ في العبرية « لوح » (Lowah) وفي الآرامية لوحا ، وفي السريانية لوحا ، واستعملت نظائرها في هذه اللغات بمعنى ألواح موسى التي كتبت فيها الكلمات العشر وبمعنى ألواح سفينة نوح فمن ثم يرى بعض العلماء اللغويين أنّ اللفظ ولو كان عربياً اقتبس هذه المعاني من إحدى اللغات ، والأغلب أنها الآرامية »[3] .

وقال الراغب : « وقوله : في لوح محفوظ ، فكيفيته تخفي علينا إلا بقدر ما روي لنا في الأخبار ، وهو المعبر عنه بالكتاب في قوله : إنَّ ذلك في كتاب ، إنَّ ذلك على اللهِ يسير »[4] .

اللغوي : الصفائح العريضة من عظم أو خشب يكتب فيها .

الإسلامي : مستودع مشيئات الله .

---

(١) أبو حاتم الرازي : الزينة في الكلمات الإسلامية العربية ، الجزء الثاني ، (القاهرة ١٩٥٨) ص ١٤٧ .

(٢) أبو حاتم الرازي : الزينة في الكلمات الإسلامية العربية ، الجزء الثاني ، القاهرة ١٩٥٨ ص ١٤٧ .

(٣) حسين بن فيض الله الهمداني : هامش ص ١٤٨ من كتاب الزينة لأبي حاتم الرازي .

(٤) الراغب : المفردات مادة (لوح) .

ثانياً : المجموعة الثانية : اليوم الآخر :

١ ـ الآخرة :

﴿فأخذه الله نكال الآخرة والأولى﴾ (النازعات ٢٥) .

﴿والآخرة خير وأبقى﴾ (الأعلى ١٧) .

﴿وإنَّ لنا للآخرةَ والأولى﴾ (الليل ١٣) .

﴿وللآخرة خيرٌ لك من الأولى﴾ (الضحى ٤) .

عرفت العرب الآخرة مؤنث الآخر وهو خلاف الأول « قال الليث : الآخر والآخرة نقيض المتقدم والمتقدمة »[١] ، ثم أطلقها القرآن صفة غالبة على دار البقاء في كثير من الآيات .

قال أبو حاتم : « ويذهب قوم إلى أنّ الدنيا هي الأرض والسماء وما بينهما وهو خطأ ، ولكنا نقول : هما حياتان : فمن كان في هذه الحياة الدنيا فهو في الدنيا ، لأنّ الله عزّ وجل قد جعل الدنيا نعتا للحياة ، ومن مضى فهو في الحياة الآخرة »[٢] .

وقال الراغب : « ويعبر بالدار الآخرة عن النشأة الثانية كما يعبر بالدار الدنيا عن النشأة الأولى نحو : وإنّ الدار الآخرة لهي الحيوان ، وربما تَرك ذكر الدار نحو قوله تعالى : ﴿ أولئك الذين ليسَ لهم في الآخرةِ إلا النار﴾ ، وقد توصف الدار بالآخرة تارة ، وتضاف إليها تارة »[٣]

---

(١) ابن منظور : لسان العرب مادة (أخر) .
(٢) أبو حاتم الرازي : الزينة ص ١٤٢ من الجزء الثاني .
(٣) الراغب : المفردات مادة (أخر) .

وقد ذكر مقاتل بن سليمان في الأشباه والنظائر للآخرة خمسة أوجه : القيامة والجنة وجهنم ، والقبر ، والآخرة بمعنى الأخيرة ، وذكر من الآيات التي وردت فيها لفظة الآخرة في جزء عمّ قوله تعالى : ﴿وإنّ لنا للآخرة والأولى﴾ وفسر الآخرة فيه بالقيامة[٢] . ويجوز لنا أن نحمل عليه قوله تعالى : ﴿فأخذه الله نكال الآخرة والأولى﴾ .

ويفهم من الوجوه التي عرضها أن الآخرة في قوله تعالى : ﴿والآخرة خير وأبقى﴾ وقوله : ﴿وللآخرة خير لك من الأولى﴾ قد تعني « الجنة » فقد ذكر نظيراً لها في سياق يشبه سياقها وهو قوله تعالى : ﴿والآخرة عند ربك للمتقين﴾ وفسرها بالجنة[١] .

اللغوي : مؤنث الآخر نقيض الأول .

الإسلامي : دار البقاء ، وتطلق على الجنة وعلى غيرها تجوزاً .

٢ ـ البعث :

قال تعالى : ﴿ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون . ليوم عظيم﴾ (المطففين ٤) .

البعث في لغة العرب : الإرسال ، والتوجيه ، والإثارة يقال : بعثه بعثاً أرسله وحده ، وبعث به أرسله مع غيره ، وابتعثه أيضاً أرسله فانبعث ، والبَعْث الرسول ، والبَعثْ بعثُ الجند إلى الغزو ، والبَعْث القوم المبعوثون ، وجمع البعث بعوث قال :

ولكنَّ البعوثَ جَرَتْ عَلَيْنَا فَصِرْنَا بين تطويحٍ وغُرْمِ

مقاتل بن سليمان البلخي : الأشباه والنظائر في القرآن الكريم ص ٣٠٢ .
(٢) السابق نفسه .

وبعثه من نومه بعثا فانبعث أيقظه وأهبَّه ، ورجل بَعْثٌ وبَعَثٌ لا تزال همومه تؤرقه وتبعثه من نومه . قال حميد بن ثور :

تعـدو بأشعثَ قـد وهى سِرْبـالُـه بعثٍ تـؤرّقُـه الهـمـومُ فيَسْهَـرُ

والجمع أبعاث ، وبعث البعير فانبعث حلّ عقاله ، فأرسله ، أو كان باركاً فهاجه »[1] .

قال أبوحاتم الرازي : « وقيل ليوم القيامة (يوم البعث) لأنّ الخلائق يبعثون فيه أي يثارون من قبورهم وينهضون »[2]

وقال الراغب : « أصل البعث إثارة الشيء وتوجيهه . يقال : بعثته فانبعث . ويختلف البعث بحسب اختلاف ما علق به فبعثت البعير أثرته وسيّرته ، وقوله جلّ وعزّ : والموتى يبعثهم الله أي يخرجهم ويسيرهم إلى يوم القيامة »[3] .

اللغوي : الإثارة ، والإرسال ، والتوجيه .

الإسلامي : إحياء الموتى .

٣ ـ الجحيم :

قال تعالى :

﴿وبُرِّزت الجحيمُ لِمَنْ يَرى﴾ (النازعات ٣٦)

﴿فإنَّ الجحيمَ هي المأوى﴾ (النازعات ٣٩)

﴿وإذا الجحيمُ سُعِّرَت . .﴾ (التكوير ١٢)

---

(١) ابن منظور : لسان العرب مادة (بعث) .

(٢) أبو حاتم الرازي : الزينة ٢ / ١١٨ .

(٣) الراغب : المفردات مادة (بعث) .

﴿وإنّ الفجارَ لفِي جحيم﴾ (الانفطار ١٤)

﴿ثم إنهم لصالو الجحيم﴾ (المطففين ١٦)

﴿لترونّ الجحيم﴾ (التكاثر ٦)

الجحيم في لغة العرب كل نار عظيمة في مهواة ، وكل نار توقد على نار جحيم أنشد الأصمعي :

وضالةٍ مثـلِ الجحيمِ المـوقَـدِ.

قال ابن سيدة : الجحيم النار الشديدة التأجج ، وأصله ما اشتد لهبه من النار ، والجاحم المكان الشديد الحر ، وجحم النار أوقدها ، وجَحَمت ناركم تجحم جحوماً عظمت وتأججت ، وجَحِمت جَحَما وجُحُوما اضطرمت وكثر حرها ولهبها وتوقدها فهي جحيم وجاحمه . . . »[1] .

قال أبو حاتم الرازي : « الجحيم ويقال لها : الجحيم والجحمة شدة حرّ النار ، وجمعها جُحَم قال ساعدة :

إنْ تـأتِه في نهـارِ الصّيف لا تَرَهُ إلّا يجمِّعُ ما يَصْلَى مِنَ الجُحُمِ

وقال قيس بن الخطيم :

وتصـدُقُ في الصّبـاحِ إذا التَقَيْنَـا ولو كان الصباحُ جَحِيمَ جَمْرِ»[2]

وقال الراغب : « الجحمة : شدة تأجج النار ، ومنه الجحيم »[3] .

اللغوي : ما اشتد لهبه من النار .

الإسلامي : اسم للعذاب في الآخرة بالنار .

---

(١) ابن منظور : لسان العرب مادة (جحم) .
(٢) أبو حاتم الرازي : الزينة ٢ / ٢١٠ .
(٣) الراغب : المفردات مادة (جحم) .

٤ ـ الجنة :

قال تعالى : ﴿ فإنّ الجنة هي المأوى﴾ (النازعات ٤١) .
﴿ وإذا الجنّة أزلفت . . . ﴾ (التكوير ١٣) .
﴿وُجُوهٌ يومئذٍ ناعِمَة . لِسَعْيِهَا راضية . في جَنَّةٍ عاليَة﴾ (الغاشية ١٠) .

الجنة في اللغة البستان ، ومنه الجَنَّات ، والعرب تسمي النخيل جنة قال زهير :

كأنّ عينيَّ في غَرْبَيْ مُقَتَّلَةٍ   من النواضِحِ تَسْقِي جَنَّةً سُحُقا

والجنة الحديقة ذات الشجر والنخل وجمعها جِنَان .وقال أبو علي في التذكرة : لا تكون الجنة في كلام العرب إلا وفيها نخل وعنب ، فإن لم يكن فيها ذلك ، وكانت ذات شجر فهي حديقة وليست بجنة[1] .

قال الراغب : « والجنة كل بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض . . . وسميت الجنة إما تشبيها بالجنة في الأرض ، وإن كان بينهما بَوْن ، وإما لسترة نعمها عنّا المشار إليها بقوله تعالى : ﴿ فلا تَعْلَمُ نَفْسٌ ما أُخْفِي لَهُمْ من قُرَّةِ أعْيُنٍ﴾[2] .

وقد استخدمها القرآن الكريم في جزء عمّ في المواضع الثلاثة اسما لدار النعيم في الآخرة .

- اللغوي : البستان أو الحديقة فيها نخل وعنب .
- الإسلامي : دار النعيم في الآخرة .

---

(١) ابن منظور : لسان العرب مادة (جنن) .
(٢) الراغب : المفردات مادة (جنن) .

٥ ـ الحساب :

قال تعالى : ﴿ إنهم كانوا لا يرجون حسابا﴾ (النبأ ٢٧) .

﴿ فأما من أوتي كتابه بيمينه . فسوف يُحَاسَبُ حِسَابا يَسيرًا ﴾ (الانشقاق ٨) .

﴿ إنَّ إلينا إيابَهم . ثم إنَّ علينَا حِسَابَهم ﴾ (الغاشية ٢٦) .

الحساب في اللغة الكثير ، وفي التنزيل « عطاءً حِسَابا » أي كثيراً كافيا . وشيء حِسَاب أي كافٍ ، ويقال : أتاني حِسَابٌ من الناس أي جماعة كثيرة ، وهي لغة هذيل ، قال ساعدة بن جؤيه الهذلي :

فلم يَنْتَبِه حتّى أحَاطَ بظَهْرِهِ حِسَابٌ وسِرْبٌ كالجرادِ يَسُومُ

والحِساب والحِسَابة عدّك الشيء ، أنشد ابن الأعرابي لمنظور بن مرثد الأسدي :

يا جُمْلَ أسْقَيْتِ بِلا حِسَابَه سُقْيَا مَلِيكٍ حَسَنِ الرَّبابَة
قَتلتِني بالذُّلِّ والخَلاَبَة

أي : أسقيتِ بلا حِسَاب»[1] .

وقال الراغب : « وإنما هو ـ يعني الحساب ـ في الحقيقة ما يحاسب عليه فيجازى بحسبه»[2] .

وذكر مقاتل للحساب وجهين في القرآن الكريم جاء أحدهما في جزء عمّ وهو الجزاء قال مقاتل : « ﴿ ثم إنّ علينا حسابهم ﴾ : يعني جزاءهم » .

---

(١) ابن منظور : لسان العرب مادة (حسب) .
(٢) الراغب : المفردات مادة (حسب) .

● اللغوي : الكثير الكافي ، العدّ .

● الإسلامي : الجزاء يوم القيامة .

٦ ـ الحُطَمَة :

قال تعالى ﴿ **كلا لينبذنّ في الحطمة . وما أدراك ما الحطمة** ﴾ (الهمزة ٤ ، ٥) .

الحَطْم في اللغة الكسر في أي وجه كان . وقيل هو كسر الشيء اليابس خاصة كالعظم ونحوه ، والحَطْمة ، والحُطْمة والحَاطُوم السنة الشديدة ، لأنها تحطم كل شيء ، ورجل حُطَمة كثير الأكل ، وإبل حُطَمَة ، وغنم حُطَمَة ، لأنها تحطم كل شيء ، وقال الأزهري : لحطمها الكلأ ، وكذلك الغنم إذا كثرت ، ورجلٌ حطم وحطمة إذا كان قليل الرحمة للماشية يهشم بعضها ببعض ، وفي المثل : « شَرُّ الرِّعَاءِ الحُطَمَة » ، قال ابن الأثير هو العيف برعاية الإبل في السّوق والإيراد والإصدار ، ويلقي بعضها على بعض ويعسفها ، ضربه مثلا لوالي السوء .

والحُطَمة من أبنية المبالغة ، وهو الذي يكثر منه الحطم[1] .

قال أبو حاتم الرازي : « الحطمة التي تدقّ الشيء بعضه على بعض وتكسره وتبلعه ، ويقال حطمه إذا دقه دقا عنيفا ، ويقال للرجل النهم الشديد الأكل السريع الاسترا ط رجل حطمة ، فسميت النار حطمة ، لأنها تحطم الكافرين وتسترطهم وتدقهم »[2] .

وقال الراغب : « سُمِّيَتْ الجَحِيمُ حُطَمَة »[3] .

---

(١) ابن منظور : لسان العرب مادة (حطم) .

(٢) أبو حاتم الرازي : الزينة ٢ / ٢٠٩ .

(٣) الراغب : المفردات مادة (حطم) .

● اللغوي : شديد الكسر كثير الحطم .

● الإسلامي : نار العذاب في الآخرة .

٧ ـ **الزَّبانِيَة** :

قال تعالى : ﴿ **فليدعُ نادِيَه . سندعُو الزبانية** ﴾ (العلق ١٨) .

« الزَّبْنُ في اللغة الدفع ، وزبنت الناقة إذا ضربت بِثفَنَاتِ رِجْلِها عند الحلب . قال ابن سيدة وغيره : الزبن دفع الشيء عن الشيء كالناقة تزبن ولدها عن ضرعها برجلها ، وحرب زبون تزبن الناس أي تصدمهم وتدفعهم على التشبيه بالناقة وتزابن القوم تدافعوا ، وزابَنَ الرجلَ دَافَعَه . قال :

بِمثْلِي زَابِنِي حِلْماً ومجدا إذا التَقَتْ المجامِعُ للخطُوبِ

والزبانية الذين يزبنون الناس أي يدفعونهم ، قال حسان :

زبانِيَةٌ حولَ أبياتِهِم وخُورٌ لدَى الحَرْبِ في المَعْمَعَة

« وقال قتادة : الزبانية عند العرب الشُّرط ، وكله من الدفع .

وقد أطلق هذا اللفظ على بعض الملائكة لدفعهم أهل النار إليها . قال تعالى : ﴿ **فليدع ناديه ، سندعو الزبانية** ﴾ . قال الفراء : يقول الله عز وجل سندعو الزبانية وهم يعملون بالأيدي والأرجل فهم أقوى ، قال الكسائي : واحد الزبانية زِبْنِي ، وقال الزجاج : الزبانية : الغِلاظ الشِّداد وأحدهم زِبْنِيَة وهم هؤلاء الملائكة الذين قال الله تعالى فيهم ﴿ **ملائكة غلاظ شداد** ﴾ وهم الزبانية »[1] .

قال أبو حاتم الرازي : « في النار ملائكة يقال لهم الزبانية . قال الله تعالى : ﴿ **سندعو الزبانية** ﴾ وهم الموكلون بعذاب أهل النار ، واشتق

---

(١) ابن منظور : لسان العرب مادة (زبن) .

اسمهم من الزبن والزبن الدفع سموا بذلك زبانية ، لأنهم يدفعون أهل النار فيها . قال تعالى : ﴿ يوم يُدَعُّونَ إلى نارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴾ فالدَّعُّ الدَّفْعُ ، وقال عز وجل : ﴿ فذلك الذي يَدُعُّ اليتيم ﴾ والزبن الدفع ، فسموا بذلك»[1] .

● اللغوي : الشُّرَط ، أو المدافعون الناس .

● الإسلامي : الملائكة الموكَّلون بعذابِ أهلِ النار .

٨ ـ الساعة :

قال تعالى : ﴿ يسألونك عن السَّاعة أيانَ مُرْسَاهَا﴾ النازعات ٤٢) .

الساعة في لغة العرب جزء من أجزاء الليل أو النهار ، والجمع ساعات ، وساع قال القطامي :

وكنا كالحَريقِ لدى كفاحٍ فيخبُو ساعةً ، ويهبُّ ساعَا

وقال رجل لأعرابية : أينَ منزلُكِ ؟ فقالت :

أمَّا على كسْلاَنَ وانٍ فساعَةٌ وأمَّا على ذِي حَاجَةٍ فَيَسِيرُ

وقد استخدمها القرآن الكريم اسما للوقت الذي يصعق فيه العباد ، وتقوم القيامة . قال الزجاج : « معنى الساعة في كل القرآن الوقت الذي تقوم فيه القيامة يريد أنها ساعة خفيفة يحدث فيها أمر عظيم ، فلقلة الوقت الذي تقوم فيه سماها ساعة»[2] .

وقال الراغب : « الساعة جزء من أجزاء الزمان ، ويعبر به عن القيامة»[3] .

---

(١) أبو حاتم الرازي : الزينة ٢ / ١٦٩ .
(٢) ابن منظور : لسان العرب مادة (سوع) .
(٣) الراغب : المفردات مادة (سوع) .

● اللغوي : جزء من أجزاء الزمان .

● الإسلامي : القيامة .

٩ ـ السعير :

قال تعالى : ﴿ فسوف يدعو ثُبُورا . ويصلى سَعِيرا ﴾ (الانشقاق ١٢) .

« يقال : سعر النار والحرب يسعرهما ، وأسعرهما ، وسعّرهما ، أوقدهما وهيجهما ، واستعرت وتسعرت استوقدت . ومُسْعِرُ الحرب : مُوقِدُها ، ونار سعير ، ويقال للرجل إذا ضربته السَّموم فاستعر جوفُه ، به سُعَار ، وسعار العطش التهابُه ، والسعير والساعورة : النار ، وقيل لهبها»[1] .

قال أبو حاتم الرازي : السعير سميت من الاستعار . يقال : استعرت النار إذا التهبت ، والمستَعِر الملتَهِب : قال طرفه :

أصحوتَ اليومَ أم شاقَتْكَ هِرْ و مِنَ الحبِّ جُنُونٌ مُستَعِر»[2]

● اللغوي : النار الموقَدَة .

● الإسلامي : النار الموقَدَة للعذاب في الآخرة .

١٠ ـ الصّاخّة :

قال تعالى : ﴿فإذا جاءت الصَّاخَّة . . .﴾ عبس ٣٣

الصخّ في اللغة : الضرب بالحديد على الحديد ، والعصا الصلبة على شيء مصمت ، وصخّ الصخرة وصخيخها صوتها إذا ضربتها بحجر أو غيره ، وكل صوت من وقع صخرة على صخرة ونحو صخّ . والصاخّة الداهية ، والصاخّة تطلق على يوم القيامة ، وبه فسّر أبو عبيدة قوله تعالى : ﴿ فإذا

---

(١) ابن منظور : لسان العرب مادة (سعر) .

(٢) أبو حاتم الرازي : الزينة ٢ / ٢٠٦ .

جاءت الصَّاخَّة ﴾ . وقال أبو اسحق الصاخة هي الصيحة التي يكون منها القيامة تصخ الأسماع أي تصمها فلا تسمع إلا ما تُدْعى به الأحياء ، قال ابن سيدة : الصاخة صيحة تصخ الأذن أي تطعنها فتصمها لشدتها . ومنه سميت القيامة الصاخة»[1] .

وقال الراغب : « الصاخة : شدة صوت ذي المنطق ، يقال : صخ يصخ صخّا فهو صاخّ ، قال : ﴿ فإذا جاءت الصاخة ﴾ وهي عبارة عن القيامة»[2] .

- اللغوي : شديدة الصوت .
- الإسلامي : القيامة ، أو الصيحة .

١١ ـ الطامّة :

قال تعالى : ﴿ فإذا جاءت الطامّة . يوم يتذكر الإنسانُ ما سَعَى ﴾ (النازعات ٣٤) .

تقول العرب : طمّ الماءُ طمًّا إذا علا وغمر ، وهو طامّ ، وجاء السيل فطمّ ركيّة آل فلان إذا دفنها وسواها . وأنشد ابن بري للراجز :

خابية طُمَّت بسيلٍ مفعَمِ

والطامة : الداهية تغلب ما سواها ، ومنه سميت القيامة طامة . قال الفراء في قوله عزّ وجلّ فإذا جاءت الطامة : هي القيامة تطم على كل شيء . وقال الزجاج : الطامة هي الصيحة التي تطم على كل شيء»[3] .

قال الراغب : الطمّ : البحر المطموم يقال له : الطمّ والرِّم ، وطمّ على

---

(١) ابن منظور : لسان العرب مادة (ص خ خ) .
(٢) الراغب : المفردات مادة (ص خ خ) .
(٣) ابن منظور : لسان العرب مادة (ط م م) .

كذا ، وسميت القيامة طامَّة لذلك . قال : فإذا جاءت الطامّة الكبرى»[1] .

● اللغوي : الداهية تغلب ما سواها .

● الإسلامي : القيامة .

١٢ ـ الغاشية :

قال تعالى : ﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾ (الغاشية ١) .

تقول العرب : غشّيت الشيء تغشّيه إذا غطيته ، وعلى بصره وقلبه غَشْو ، وغَشْوَة ، وغُشْوَة ، وغِشَاوة، وغُشَاوه ، وغاشية ، وغُشْيَة . وغاشية القلب وغشاوته ، قميصه . والغاشية : غاشية السرج ، وقيل غطاؤه والغاشية ما ألبس جفن السيف من الجلود ، وقيل ما يتغشى قوائم السيف من الأسفان . وقال جعفر بن علبة الحارثي :

نقاسمهم أسيافَنا شرَّ قِسْمةٍ ففينا غواشِيهَا ، وفيهم صدُورها

والغاشية داء يأخذ في الجوف ، وكله من التغطية . يقال : رماه الله بغاشية .

وقد أطلق هذا اللفظ على القيامة ، لأنها تغشى الخَلْقَ بأفزاعها وتعمهم»[2] .

وقال الراغب : « والغاشِيَةُ : كل ما يغطي الشيء كغاشية السرج ، وقوله أن تأتيهم غاشية ، أي نائبة تغشاهم وتجللهم . وقيل الغاشية في الأصل محمودة وإنما استعير لفظها ههنا على نحو قوله : ﴿ لهم من جهنم مهاد ،

---

(١) الراغب : المفردات مادة (ط م م) .

(٢) ابن منظور : لسان العرب مادة (غشى) .

ومن فوقهم غواشٍ ﴾ وقوله : ﴿ هل أتاك حديثُ الغاشية ﴾ كناية عن القيامة »[1] .

● اللغوي : الغطاء ، والداء يصيب البطن .

● الإسلامي : القيامة .

١٣ ـ القارعة :

قال تعالى : ﴿ القارعة . ما القارعة . وما أدراك ما القارعة ﴾ (القارعة ١ ، ٢ ، ٣) .

« القرع في اللغة : الضرب ، ويقال : العصا قُرِعت لذي الحِلْم أي إذا نُبِّه انتبه . قال الحارث بن وعلة :

وزعمتُم أنْ لا حُلُومَ لَنَا   إنّ العَصَا قُرِعَتْ لِذِي الحِلْمِ

وقال المتلمس :

لذي الحِلْمِ قبلَ اليومِ ما تُقْرَعُ العَصَا   وما عُلِّمَ الإنسانُ إلاَّ لِيَعْلَما

وقرع فلان سِنّه ندما . أنشد أبو نصر :

ولو أني أطعتك في أمور   قرعت ندامة من ذاك سنّي

وأما القراع والمقارعة : المضاربة بالسيوف : قال الشاعر :

بهنّ فلولٌ من قِراعِ الكَتَائِبِ

أي قتال الجيوش ومحاربتها . والقارعة من شدائد الدهر وهي الداهية والنازلة الشديدة تنزل عليهم بأمر عظيم ، ويقال : قرعتهم قوارع الدهر أي أصابتهم . قال الأصمعي : يقال أصابته قارعة يعني أمرا عظيما يقرعه »[2] .

---

(١) الراغب : المفردات مادة (غشى) .

(٢) ابن منظور : لسان العرب مادة (قرع) .

وقال الراغب : « القرع ضرب شيء على شيء ، ومنه قرعته بالمقرعة . قال : كذبت ثمود وعاد بالقارعة ، القارعة ما القارعة»[1] .

- اللغوي : الداهية التي تقرع أي تصيب في شدة .
- الإسلامي : القيامة .

١٤ ـ النار :

قال تعالى : ﴿ **النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود** ﴾ (البروج ٥). ﴿ **ويتجنبها الأشْقَى الذي يصلى النار الكبرى** ﴾ (الأعلى ١٢) . ﴿ **عليهم نارٌ موصَدة** ﴾ (البلد ٢٠) . ﴿ **إنَّ الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها** ﴾ (البينة ٦) . ﴿ **وما أدراك ماهيه . نار حامية** ﴾ (القارعة ١١) . ﴿ **وما أدراك ما الحطمة . نار الله الموقدة** ﴾ (الهمزة ٦) . ﴿ **وجوه يومئذ خاشعة . عاملة ناصبة . تصلى نارا حامية** ﴾ (الغاشية ٤) . ﴿ **فأنذرتكم نارا تَلَظَّى** ﴾ (الليل ١٤) . ﴿ **سيصلى نارا ذات لهب** ﴾ (المسد ٣) .

النار في لغة العرب : ما يوقد من حطب ونحوه . وقد تذكّر النار ، عن أبي حنيفة ، وأنشد في ذلك :

فَمَنْ يأتِنَا يُلْمِمْ بنا في دِيَارِنا ... يجِدْ أثَراً دَعْساً ، ونارا تأججا[2]

ورواية سيبويه : « يجد حطبا جَزْلاً ونارا تأَجَّجَا » ، والجمع أنور ، ونيران ، والنار الرأي والمشورة ، ومنه قوله : « **لا تستضيئوا بنار المشركين** » ، والنارُ السمة ، وكل وسم بمكوى فهو نار ، وما كان بغير

---

(١) الراغب : المفردات مادة (قرع)

(٢) هذا على فرض أن الفعل ماض ، ويجوز أن يكون مضارعا حذفت التاء الأولى منه والأصل (تتأجج) .

مكوى فهو حرق ، والعرب تقول : ما نار هذه الناقة أي ما سِمَتَها ؟ سميت نارا لأنها بالنار توسم . ومن أمثالهم . « نِجَارُهَا نَارُها » أي سمتها تدلّ على نجارها يعني الإبل . قال الراجز يصف إبلاً بسماتٍ مختلفة :

نـجـارُ كـلِّ إبْـلٍ نِـجَـارُهَـا   ونَـارُ إبْـلِ العَـالَمِينَ نَـارُهَـا

يقول : اختلفت سماتها ، لأن أربابها من قبائل شتى فأغير على سرح كَل قبيلة واجتمعت عند من أغار عليها سمات تلك القبائل كلها»[1] .

وقال الراغب : « النار : تقال للهيب الذي يبدو للحاسة . قال : ﴿ أفرأيتم النار التي تورون ﴾ . والنار جهنم المذكورة في قوله : ﴿ النار وعدها الله الذين كفروا . وقودها الناس والحجارة . نار الله الموقدة﴾[2] .

● اللغوي : ما يوقد من حطب ونحوه ، ويتجوز بها إلى الرأي والمشورة ، والسمة .

● الإسلامي : اسم للعذاب في الآخرة .

١٥ ـ النشور :

قال تعالى : ﴿ ثم أماته فأقبره . ثم إذا شاء أنشره ﴾ (عبس ٢٢) .

تقول العرب : نشرت الأرض تنشر نشورا أصابها الربيع فأنبتت . وما أحسن نشرها أي بدء نباتها ، والنشر أن يخرج النبت ، وقد نشرت الأرض فهي ناشرة إذا أنبتت ذلك . قال الجوهري : نشر المتاع وغيره ينشر نشرا بسطه والنشر خلاف الطيّ»[3] .

---

(١) ابن منظور : لسان العرب : مادة (نور) .
(٢) الراغب : المفردات مادة (نور) .
(٣) ابن منظور : لسان العرب مادة (نشر) .

وقال الراغب : « النشر : نَشَر الثوب ، والصحيفة ، والسحاب ، والنعمة ، والحديث : بسطها قال : ﴿ وإذا الصحف نشرت . . . ﴾ وأنشر الله الميت فنشره قال : ﴿ ثم إذا شاء أنشره ، فأنشرنا به بلدة ميتا ﴾ ، وقيل ، نشر الله الميت وأنشره بمعنى ، والحقيقة أن نشر الله الميت مستعارة من نشر الثوب . قال الشاعر :

طوتْكَ خُطُوبُ دَهْرِكَ بعدَ نَشْرٍ كذاك خطوبُه طَيًّاً ونَشْرا»[1]

وذكر مقاتل بن سليمان للنشور في القرآن الكريم أربعة أوجه هي الحياة ، والبعث ، والبسط ، والتفرق . ولكنه لم يستشهد بآية من جزء عمّ على أحد هذه الأوجه[2] .

● اللغوي : الإنبات ، والبَسْط .
● الإسلامي : بعث الموتى يوم القيامة .

١٦ - يوم الدين :

قال تعالى : ﴿ وإنّ الفجار لفي جحيم . يَصْلَوْنَها يوم الدين . وما أدراك ما يومُ الدين . ثم ما أدراك ما يومُ الدين ﴾ . (الإنفطار ١٥ ، ١٧ ، ١٨) . ﴿ الذين يكذبون بيوم الدين ﴾ (المطففين ١١) .

الدين في اللغة : الجزاء والمكافأة ، ودِنْتُه بفعله دينا جزيته : قال :

دِينَ هذا القلبُ مِنْ نُعْمٍ بِسَقَامٍ ليسَ كالسُّقْمِ

وفي المثل : كما تدين تُدَان ، أي كما تجازِي تُجْزَى بفعلك . قال خويلد ابن نوفل الكلابي للحارث ابن أبي شمر الغسّاني ، وكان اغتصب ابنته :

---

(١) الراغب : المفردات مادة (نشر) .
(٢) مقاتل بن سليمان البلخي : الأشباه والنظائر في القرآن الكريم ص ٢٠٨ .

يـا حَـارِ أيْقِنْ أنّ ملكَـك زائِـلٌ   واعْلَمْ بِـأنّ كمـا تَـدِينُ تُـدَانُ

والدين الطاعة . قال عمرو بن كلثوم :

وأيـامـا لـنـا غُـرّاً كِـرَامَـاً   عَصَيْنَـا المَلْكَ فيها أنْ نَـدِينَـا

والدين العادة والشأن تقول العرب : ما زال ذلك ديني وديدني أي عادتي .

قال المثقب العبدي يذكر ناقته :

تـقـول إذا درأتُ لهـا وَضِـيني   أهـذا دِيـنُـه أبـداً ودِينِـي»[1]

وقال الراغب : « والدين يقال للطاعة والجزاء ، واستعير للشريعة »[2] .

وقد أورد مقاتل بن سليمان للدين خمسة وجوه في القرآن الكريم : التوحيد والحساب ، والحكم ، والإسلام ، والملة . ونصّ على أنَّ « الدين » في قوله تعالى من سورة المطففين ﴿ **الذين يُكَذِّبون بيوم الدين** ﴾ يعني « الحساب »[3] .

- **اللغوي** : الجزاء ، والطاعة ، والعادة والشأن .
- **الإسلامي** : يوم الدين : يوم الحساب .

١٧ - يوم الفصل :

قال تعالى : ﴿ **إنَّ يومَ الفصلِ كان مِيقَاتًا** ﴾ (النبأ ١٧) .

قال الليث : « الفصل : بون ما بين الشيئين . وقال ابن سيدة : الفصل : الحاجز بين الشيئين»[4] .

---

(١) ابن منظور : لسان العرب مادة (دين) .
(٢) الراغب : المفردات مادة (دين) .
(٣) مقاتل بن سليمان : الأشباه والنظائر في القرآن الكريم ص ١٣٣ .
(٤) ابن منظور : لسان العرب مادة (فصل) .

وقال الراغب : « الفصل إبانة أحد الشيئين من الآخر حتى يكون بينهما فرجة . وفصل القوم عن مكان كذا وانفصلوا فارقوه ، قال : **ولمَّا فَصَلت العِيرُ** قال أبوهم . ويستعمل ذلك في الأفعال والأقوال نحو قوله : **﴿ إن يوم الفصل ميقاتُهم أجمعين ﴾** هذا يوم الفصل « أي اليوم يبيِّن الحقّ من الباطل . ويُفْصَل بين الناس فيه بالحكم »[1] .

- اللغوي : القطع ، والحجز بين الشيئين .
- الإسلامي : يوم الحساب يبين فيه الحقّ من الباطل .

ثالثا : المجموعة الثالثة : أصول العقيدة الدينية وما يتصل بها :

١ ـ الإيمان :

قال تعالى **﴿ إنّ الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ﴾** (المطففين ٢٩)

﴿ فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون ﴾ (المطففين ٣٤)

﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴾ (الانشقاق ٢٥)

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات ﴾ (البروج ١١)

﴿ ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر . . . ﴾ (البلد ١٧)

﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ﴾ (التين ٦)

﴿ إنّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية ﴾ (البينة ٧)

﴿ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق ﴾ (العصر ٣)

﴿ وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ (البروج ٨)

﴿ فما لهم لا يؤمنون ﴾ (الانشقاق ٢٠)

الإيمان في اللغة مصدر آمن يؤمن إيمانا فهو مؤمن ، واتفق أهل العلم من اللغويين وغيرهم أنّ الإيمان معناه التصديق .

---

(١) الراغب : المفردات مادة (فصل) .

وحدّ الزجاج الإيمان بمعناه الإسلامي فقال : الإيمان إظهار الخضوع والقبول للشريعة ولما أتى به النبي ﷺ واعتقاده وتصديقه بالقلب ، فمن كانْ على هذه الصفة فهو مؤمن مسلم غير مرتاب ولا شَاكّ ، وهو الذي يرى أنّ أداء الفرائض واجب عليه لا يدخله من ذلك ريب[1] . وقال أبو حاتم الرازي : « المؤمن أصله من الأمان . قال النابغة :

والمؤمنُ العائذاتِ الطيرَ يمسحُها ركبانُ مكةَ بين الغَيْلِ والسَّنَدِ

يعني أمّن الطير في الحرم أن تصاد ، فهو مؤمن لها إذا عاذت بالحرم . . . ويقال للعبد مؤمن ، وهو ههنا من التصديق ، فالإيمان من العبد هو التصديق بما أتى به الرسول ﷺ ، فإذا صدق به أطاع أمره تنجزا لما وعده ويقينا ، فيقال للعبد آمن بالله ورسوله أي صدق الله ، وصدق رسوله بما ألقى إليه من الوعد والوعيد »[2] .

وقال الراغب : « وآمن إنما يقال على وجهين : أحدهما متعد بنفسه : يقال آمنته أي جعلت له الأمن ، ومنه قيل مؤمن . والثاني : غير متعدّ ، ومعناه صار ذا أمن .

والإيمان يستعمل تارة اسماً للشريعة التي جاء بها محمد عليه الصلاة والسلام، وعلى ذلك الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون ، ويوصف به كل من دخل في شريعته مقراً بالله وبنبوته . وتارة يستعمل على سبيل المدح . ويراد به إذعان النفس للحق على سبيل التصديق ، وذلك باجتماع ثلاثة أشياء : تحقيق بالقلب ، وإقرار باللسان ، وعمل بحسب الجوارح »[3] .

---

(١) ابن منظور : لسان العرب مادة (أمن) .

(٢) أبو حاتم الرازي : الزينة ٢ / ٧٠ .

(٣) الراغب : المفردات مادة (أمن) .

وقد ذكر مقاتل بن سليمان للإيمان في القرآن أربعة وجوه :

الإقرار باللسان من غير تصديق ، والتصديق في السرّ والعلانية ، وجعل منه قوله تعالى من جزء عمّ : ﴿ **إنّ الذين آمنُوا وعَمِلوا الصالحاتِ أولئك هم خير البريَّة** ﴾ ، والتوحيد ، وإيمان في شِرْك كقوله تعالى : ﴿ **وما يؤمن أكثرهم بالله إلاَّ وهم مُشْرِكون** ﴾[1] .

• اللغوي : التصديق .

• الإسلامي : التصديق القلبي بما جاءت به الشريعة ، والعمل به .

٢ ـ التسبيح :

قال تعالى : ﴿ **سبِّح اسمَ ربّك الأعلى** ﴾ (الأعلى ١) .

﴿ **فسبح بحمد ربك واستغفره** ﴾ (النصر ٣) .

السَّبْح في اللغة والسباحة العوم ، وسَبْحُ الفرس جريه ، والسوابح : الخيل صفة غالبة ، وسبح في الكلام إذا أكثر فيه ، وتقول سبحان من كذا إذا تعجبت منه . قال الأعشى :

أقــولُ لَـمَّــا جــاءني فــخــره ... سبحــانَ مِنْ علقَـمَـةَ الفَــاخِــرِ

وقيل معنى سبحان في البيت البراءة أي : براءة منه . وقد جاء في الشعر « سبحان » نكرة منونة . قال أمية :

سبحانه ثم سُبحَــانــاً يعــودُ لــه ... وَقَبْلَنَــا سَبَّـح الجُــودِيُّ والجَمَـدُ

وقال ابن جني : سبحان اسم علم لمعنى البراءة والتنزيه بمنزلة عثمان وعمران . وقد يكون التسبيح بمعنى الصلاة والذكر . قال الأعشى :

---

(١) مقاتل بن سليمان : الأشباه والنظائر في القرآن الكريم ص ١٣٧ .

وسبحْ على حين العشيات والضحا   ولا تَعْبُد الشيطانَ ، واللَّهَ فـاعْبُدَا

وقد جاء التسبيح في القرآن الكريم بمعنى الذكر والتنزيه ، قال تعالى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى ﴾ وقال : ﴿ فسبح بحمد ربك واستغفره ﴾[1] .

قال أبو حاتم في الزينة : « وقال بعض العلماء : سبحان الله عمّا يشركون أي تنزيهاً وتبرئة من الشرك ، وسبحت الله يعني وحّدته ، ونزهته من أن يكون له شريك ، ووصفته بالوحدانية والفردانية »[2] .

وقال الراغب : « والتسبيح تنزيه الله تعالى . وأصْله المرّ السريع في عبادة الله تعالى ، وجعل في فعل الخير كما جعل الإيعاد في الشرّ فقيل : أبعده الله ، وجعل التسبيح عاماً في العبادات قولاً كان أو فعلاً أو نيه »[3] .

• اللغوي : المرّ السريع ، وكثرة الذكر للإله .
• الإسلامي : توحيد الله وتنزيهه من أن يكون له شريك .

٣ ـ التقوى :

قال تعالى : ﴿ وسيجنبها الأتقى ﴾ (الليل ١٧) ، ﴿ فأما من أعطى واتقى ﴾ (الليل ٥) ، ﴿ أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ﴾ (العلق ١٢) ﴿ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ (الشمس ٨) .

تقول العرب : « وَقَيْتُ الشيءَ أَقِيه إذا صنته ، وسترته عن الأذى ، وتوقّيته ، واتقيته بمعنى ، أي تحرزت منه ، ووقاه : صانه . قال مهلهل :

ضـربَتْ صَـدْرَهَـا إليَّ وقـالَتْ   يـا عَدِيًّـا لقد وَقَتْـكَ الأَوَاقِي »[4]

---

(١) ابن منظور : لسان العرب مادة (سبح) .
(٢) أبو حاتم الرازي : الزينة ٢ / ٩١ .
(٣) الراغب : المفردات مادة (سبح) .
(٤) ابن منظور : لسان العرب مادة (وقى) .

قال الراغب : « والتقوى : جعل النفس في وقاية مما يُخَاف . هذا تحقيقه، ثم يسمي الخوف تارة تقوى ، والتقوى خوفاً حسب تسمية مقتَضى الشيء بمقتضيه ، والمقتضِي بمقتضاه ، وصار التقوى في تعارف الشرع حفظ النفس عما يؤثم ، وذلك بترك المحظور ، ويتم ذلك بترك بعض المباحات لما روي : الحلال بيّن والحرام بيّن ، ومن رتع حول الحمى فحقيق أن يقع فيه »[1] .

وقد أورد مقاتل بن سليمان للتقوى في القرآن الكريم خمسة أوجه : الخشية ، والعبادة ، وترك العصيان ، والتوحيد ، والإخلاص[2] ، ولم يذكر من جزء عمّ شيء يندرج تحت هذه الأوجه .

- اللغوي : الصيانة ، والستر من الأذى .
- الإسلامي : حفظ النفس من الإثم بترك المحظور وبعض المباح .

٤ ـ الرسُول :

قال تعالى : ﴿ إنه لقولُ رسولٍ كريم ﴾ (التكوير ١٩) .
﴿ فقال لهم رسولُ اللّهِ ناقةَ اللّهِ وسُقْيَاها ﴾ (الشمس ١٣) .
﴿ رسولٌ من اللّهِ يتلو صُحُفاً مُطَهَّرة ﴾ (البينة ٢) .

الإرسال في اللغة التوجيه ، والاسم الرسالة ، والرسول ، والرسيل ، الأخيرة عن ثعلب ، والرسول : الرسالة ، والمرسَل : وأنشد الجوهري :

ألا أبلغ أبا عمرٍ رسولا بأني عن فُتَاحَتِكُم غَنِيّ

عن فتاحتكم : عن حكمكم . ومثله لعباس بن مرداس .

---

(١) الراغب : المفردات مادة (وقى) .
(٢) مقاتل بن سليمان : الأشباه والنظائر في القرآن الكريم ص ١٦٥

ألا من مبلغٌ عَنِّي خُفَافَا رسولاً بيتُ أهلِكَ منتَهاهَا

فأنث الرسول حيث كان بمعنى الرسالة . ومنه قول كثير :

لقد كَذَبَ الواشون ما بُحْتُ عِنْدَهُمْ بِسِرٍّ ، ولا أرسَلْتُهُمْ بِرَسُولِ

والرسول : الذي يتابع أخبار الذي بعثه ، أخذا من قولهم : جاءت الإبل رسلاً أي متتابعة ، وأرسل الشيء أطلقه وأهمله »[1] .

وقال الراغب : « أصل الرّسل : الانبعاث على التؤدة ، ويقال : ناقة رسله : سهلة السير ، وإبل مراسيل منبعثة انبعاثاً سهلاً ، ومنه الرسول المنبعث وتصوّر منه تارة الرفق فقيل على رسلك إذا أمرته بالرفق ، وتارة الانبعاث فاشتق منه الرسول ، ورسول الله تارة يراد بها الملائكة ، وتارة يراد بها الأنبياء »[2] .

- اللغوي : المبعوث بالأخبار ينقلها ، أو الرسالة .
- الإسلامي : المبعوث من قبل الله مَلَكاً كان أم نبيّا .

٥ ـ الزكاة :

قال تعالى : ﴿ **ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، وذلك دين القيّمة** ﴾ (البينة ٥) .

الزكاة في اللغة الطهارة ، والنماء ، والبركة ، والمدح ، والزكاة الصلاح ، ورجل تقيّ زكيّ أي زاك من قوم أزكياء ، وقد زكا زكاء وزكّوا ، وزكى وتزكى ، وزكاه الله ، وزكى نفسه تزكية : مدحها »[3] .

---

(١) ابن منظور : لسان العرب مادة (رسل) .
(٢) الراغب : المفردات مادة (رسل) .
(٣) ابن منظور : لسان العرب مادة (زكو) .

وقال الراغب : « وأصل الزكاة النموّ الحاصل من بركة الله تعالى . ويعتبر ذلك بالأمور الدنيوية والأخروية . . . ومنه الزكاة لما يخرج الإنسان من حق الله تعالى إلى الفقراء ، وتسميته بذلك لما يكون فيها من رجاء البركة ، أو لتزكية النفس أي تنميتها بالخيرات والبركات ، أولهما جميعاً ، فإنّ الخيرين موجودان فيها »[1] .

• اللغوي : الطهارة ، والنماء ، والمدح ، والبركة ، والصلاح .
• الإسلامي : فريضة دينية تؤدى بإخراج حق الله للفقراء والمساكين من المال وغيره .

٦ ـ السجود :

قال تعالى : ﴿ وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون ﴾ (الانشقاق ٢١) .
﴿ كلا لا تطعه ، واسجد واقترب ﴾ (العلق ١٩) .

أصل السجود : الانحناء والميل ، وأسجد الرجل طأطأ رأسه ، وانحنى وكذلك البعير . قال حميد بن ثور :

فُضُولَ أزِّمتِها أسجَدَتْ سُجُودَ النَّصَارى لأَرْبَابِهَا

قال ابن بري : صواب إنشاده :

فلما لَوَيْنَ على مِعْصَمٍ وكفٍّ خَضِيبٍ وأسوارها
فضول أزمّتها أسجدت سجود النصارى لأحبارها

وسجدت ، وأسجدت إذا خفضت رأسها لتركب . ونخلة ساجدة إذا

---

(١) الراغب : المفردات مادة (زكو) .

أمالها حملها ، وسجدت النخلة إذا مالت ، ونخل سواجد مائلة ، عن أبي حنيفة ، وأنشد للبيد :

بَيْنَ الصّفَا وخَليجِ العِينِ ساكنةٌ غُلبٌ سَوَاجِدُ لم يَدْخُلْ بِهَا الخَصَرُ

وسجد خضع . قال الشاعر :

« ترى الأكم فيها سجّدا للحوافر »[1] .

قال ابن فارس : « وقد كانوا عرفوا الركوع والسجود ، وإن لم يكن على هذه الهيئة فقالوا :

أو درَّةٍ صَدَفِيَّةٍ غوّاصُهَا بَهِجٌ ، متى يَرَهَا يُهِلُّ ويَسْجُدِ »[2]

وقال الراغب : « السجود أصله التطامن والتذلل . وجعل ذلك عبارة عن التذلل لله وعبادته »[3] .

● اللغوي : الانحناء والميل والخضوع .
● الإسلامي : وضع الجبهة على الأرض خضوعاً لله ، وعبادة .

٧ ـ الصلاة :

قال تعالى : ﴿ **وذكر اسم ربه فصلى** ﴾ (الأعلى ١٥) .
﴿ **أرأيت الذي ينهي عبداً إذا صلّى** ﴾ (العلق ١٠) .
﴿ **فصل لربك وانحر** ﴾ (الكوثر ٢) .
﴿**حنفاءَ ويقيموا الصلاة** ﴾ (البينة ٥) .
﴿ **فويلٌ للمصلين . الذين هم عن صلاتِهم سَاهُون** ﴾ (الماعون ٥) .

---

(١) ابن منظور : لسان العرب مادة (سجد) .
(٢) ابن فارس : الصاحبي ص ٨٠ .
(٣) الراغب : المفردات مادة (سجد) .

الصلاة في اللغة الدعاء : قال الأعشى :

وصـهـبـاءَ طـافَ يـهـودِيُّـهـا وأبـرزَهـا وعـلـيـهـا خَـتَـم
وقـابـلَهَـا الـريـحُ فـي دَنِّـهَـا وصـلَّى عـلى دَنِّـهـا وارتَـسَـم

دعا لها ألا تحمض ولا تفسد ، وكل داع فهو مصلّ . ومنه قول الأعشى :

عليكِ مثلُ الذي صليتِ فاغتَمِضِي نوماً فإن لجَنبِ المرءِ مضطجعا

معناه أنه يأمرها بأن تدعو له »[1] .

قال الراغب : « والصلاة التي هي العبادة المخصوصة أصلها الدعاء . وسميت هذه العبادة بها كتسمية الشيء باسم بعض ما يتضمنه »[2] .

وقد أورد مقاتل بن سليمان للصلاة في القرآن وجهين : أحدهما الإقرار من غير تصديق ، والثاني إقام الصلاة يعني تمامها »[3] .

- اللغوي : الدعاء .
- الإسلامي : فريضة دينية تؤدى بأقوال وأفعال مخصوصة .

٨ ـ العبادة :

قال تعالى : **﴿قل يأيها الكافرون . لا أعبدُ ما تَعبُدونَ﴾ ولا أنتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابد ما عبدتم . ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾** (الكافرون ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥) .

﴿وما أمِرُوا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ (البينة ٥) .

﴿فليعبدوا رب هذا البيت﴾ (قريش ٣) .

---

(١) ابن منظور : لسان العرب : مادة (صلو) .

(٢) الراغب : المفردات مادة (صلو) .

(٣) مقاتل بن سليمان : الأشباه والنظائر في القرآن الكريم ص ١٣٩ .

العبادة في اللغة : الطاعة مع الخضوع ، ومنه طريق معبدة إذا كانت مذللة بكثرة الوطء قال الشاعر :

وبلدٍ نائي الصوَى مُعَبَّدِ   قطعتُه بذاتِ لَوْثٍ جَلْعَدِ

والمعبد : المكرم المعظم قال حاتم :

تقولُ : ألا تُمْسِك عليك فإنني   أرى المالَ عند الباخلين معَبَّدا

أي معظماً مخدوماً . والعبد الإنسان حراً كان أم رقيقا ، والعبد المملوك خلاف الحر . قال سيبويه : هو في الاصل صفة قالوا : رجل عبد ، ولكنه استعمل استعمال الأسماء ، والجميع أعبد وعبيد ، وأصل العبودية : الخضوع والتذلل . قال الأزهري ولا يقال : عبد يعبد عبادة إلا لمن يعبد الله . قال : وأما عبدٌ خَدَمَ مولاه فلا يقال عبده »[1] .

وقال الراغب : « العبودية إظهار التذلل ، والعبادة أبلغ منها ، لأنها غاية التذلل ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال ، وهو الله تعالى ، ولهذا قال : ﴿ولا تعبدوا إلا إياه﴾[2] وقد ذكر مقاتل بن سليمان للعبادة في القرآن ثلاثة أوجه : التوحيد ، والطاعة ، والملكية[3] .

● اللغوي : الطاعة مع الخضوع .

● الإسلامي : التنسك والطاعة لله ، والتأله له .

٩ ـ القرآن :

قال تعالى :

﴿وإذا قُرِىءَ عليهم القرآنُ لا يسجُدُون﴾(الانشقاق ٢١)
﴿بل هو قرآنٌ مَجيد في لوحٍ محفُوظ﴾(البروج ٢١)

---

(١) ابن منظور : لسان العرب مادة (عبد) .
(٢) الراغب : المفردات مادة (عبد) .
(٣) مقاتل بن سليمان : الأشباه والنظائر في القرآن الكريم ص ٢٨٨ .

القرآن في اللغة مصدر قرأ ، وهو بمعنى الجمع ، ومنه قولهم . ما قرأتْ هذه الناقة سَلىً قط ، وما قرأت جنينا قط ، أي لم يضطم رحمها على الجنين ، وبمعنى القراءة تقول : قرأت الكتاب قراءة وقرآنا .

والقرآن كتاب الله ، قيل سمى بذلك لأنه يجمع السور ويضمها . وروى الشافعي رضي الله عنه أنه قرأ القرآن على إسماعيل بن قسطنطين ، وكان يقول : القرآن اسم ، وليس بمهموز ، ولم يؤخذ من قرأت ، ولكنه اسم لكتاب الله مثل التوراة والإنجيل ، ويهمز قرأ ، لا يهمز القرآن »[1] .

ولم يعرض الراغب لهذه اللفظة في المفردات ، ولا عرض لها مقاتل بن سليمان في الأشباه والنظائر .

- اللغوي : الجمع ، والقراءة .
- الإسلامي : اسم كتاب الله .

١٠ ـ الكفر :

قال تعالى :

﴿لستَ عليهِم بمصيطرٍ إلا مَنْ تولَّى وكَفَر﴾(الغاشية ٢٣)

﴿بل الذين كَفَرُوا يكذِّبُون﴾(الانشقاق ٢٢)

﴿بل الذين كفروا في تكذيب﴾(البروج ١٩)

﴿والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة﴾(البلد ١٩)

﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين مُنفكين﴾

﴿إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم﴾

﴿قل يأيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون﴾(الكافرون ١)

﴿أولئك هم الكفرة الفجرة﴾(عبس ٤٢)

﴿فمَهِّل الكافرين أمْهِلْهم رويدا﴾(الطارق ١٧)

﴿فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون﴾(المطففين ٣٤)

﴿هل ثُوِّبَ الكُفَّار ما كانوا يفعلون﴾(المطففين ٣٦)

---

(١) ابن منظور : لسان العرب مادة (قرأ) .

أصلُ الكفر تغطيه الشيء تغطية تستهلكه ، وكل من ستر شيئاً فقد كفره ، وكفّره ، والكافر الزارع لستره البذرة في التراب ، والكفار : الزُرَّاع ، وتقول العرب للزَّارع كافر لأنه يكفر البذر المبذور بتراب الأرض ، والكافر : الليل ، وفي الصحاح : الليل المظلم ، لأنه يستر بظُلمَتِهِ كل شيء . قال لبيد :

حتى إذا ألقَتْ يداً في كافرٍ وأجَنَّ عوراتِ الثُّغُورِ ظَلاَمُهَا

والكافر البحر لستره ما فيه ، والكافر النهر العظيم . قال المتلمس يذكر طرح صحيفته فيه :

وألقيتُها بالثِّنْيِ من جَنْبِ كَافِرٍ كذلك أقْنِي كلَّ قط مُضَلَّلِ

قال ابن بري : والكافر : المطر . قال الليث : والكافر من الأرض ما بعد عن الناس لا يكاد ينزله أو يمر به أحد .

وأنشد :

تبيَّنَتْ لمحَةً من فَرِّ عِرْكِشَةٍ في كافرٍ ما به أمتٌ ولا عِوَجُ

والكافر : السَّحاب المظلم(١) .

وقد استخدم القرآن الكريم الكفر نقيضاً للإيمان . قال الليث : إنما سمي الكافر كافراً ، لأن الكفر غطى قلبه كله . قال الأزهري : ومعنى قول الليث هذا يحتاج إلى بيان يدل عليه ، وإيضاحه أن الكفر في اللغة التغطية ، والكافر ذو كفر ، أي ذو تغطية لقلبه بكفره ، كما يقال للابس السلاح كافر ، وهو الذي غطاه السلاح ، ومثله : رجل كاسٍ أي ذو كسوة ، دافق أي ذو دفق . قال وفيه قول آخر أحسن مما ذهب إليه ، وذلك أن الكافر لما دعاه الله إلى توحيده ، فقد دعاه إلى نعمة وأحبها له ، فلما أبى ما دعاه إليه من توحيده كان كافراً نعمة الله أي مغطيا لها بإبائه حاجباً اها(٢) .

(١) ابن منظور : لسان العرب (مادة كفر) .

(٢) السابق نفسه .

وقال الراغب : « الكفر في اللغة ستر الشيء » ، ووصف الليل بالكافر لستره الأشخاص والزارع لستره البذرة في الأرض ، وليس ذلك باسم لهما كما قال بعض أهل اللغة لما سمع :

ألقَتْ ذُكَاءُ يمينَها في كافِرِ

. . . وكفر النعمة وكفرانها سترها بترك أداء شكرها ، قال تعالى : ﴿فلا كُفرَانَ لسعيه﴾ . وأعظم الكفر جحود الوحدانية أو الشريعة أو النبوة ، والكفران في جحود النعمة أكثر استعمالاً ، والكُفْر في الدين أكثر ، والكَفُور فيهما جميعاً[1] .

وقد ذكر مقاتل بن سليمان في القرآن أربعة أوجه : انكار الوحدانية ، وكفر الحجة ، وكفر النعمة ، والبراءة[2] .

- اللغوي : الستر والتغطية ، وكل ساتر كافر ، والجحود .
- الإسلامي : نقيض الإيمان .

١١ ـ ليلة القدر :

قال تعالى : ﴿إنا أنزلناه في ليلةِ القَدْر . وما أدراك ما ليلةُ القدر . ليلةُ القدر خيرٌ من ألفِ شَهْر﴾ (القدر ١ ، ٢ ، ٣) .

قدر كل شيء ومقداره : مقياسه ، ويقال : قَدَرت لأمر كذا أقدِرُ له وأقدُر له إذا نظرت فيه ودبرته وقايسته . ويقال قدرت أي هيأت ، وقدرت أي : أطقت ، وقدرت أي ملكت ، وقدرت أي وقَّت . قال لبيد :

فقدرتُ للوِردِ المغلِّسِ غُدْوَةً ... فوردْتُ قبل تبيُّنِ الألْوَانِ

وقال الأعشى :

فاقدر بذرعك بيننا ... إنْ كنتَ بوَّأتَ القَدَارة

(١) الراغب : المفردات مادة (كفر) .

(٢) مقاتل بن سليمان : الاشباه والنظائر في القرآن الكريم ص ٩٥ .

وقدر القومُ أَمْرَهُم يقدرونه قدرا دبروه ، وقدرت عليه الثوب قدرا فانقدر أي جاء على المقدار .

وقدر عليه الشيء يقدره قَدْراً وقَدَرا ، وقَدَّره ضيَّقَه ، والقدر الوسط من الرحال والسروج ونحوهما »[1] .

قال أبو حاتم في الزينة : « وليلة القدر : قالوا هي ليلة تقدير الأشياء كلها إلى آخر السنة ، وقال بعض الناس تقدير الأشياء التي تكون من السنة إلى السنة القابلة هي ليلة النصف من شعبان وقال آخرون : في ليلة القدر لقوله تعالى : ﴿فيها يُفرَقُ كلُّ أمرٍ حكيم﴾[2] .

ولم يعرض الراغب لتفسير هذه اللفظة .

● اللغوي : المقياس ، والطاقة ، والتوقيت ، والتضييق ، والوسط من الرحال .

● الإسلامي : ليلة القدر هي التي نزل فيها القرآن ، وهي ليلة مباركة يفرق فيها كل أمر حكيم .

١٢ ـ النحر :

قال تعالى : ﴿فصل لربك وانحر﴾ .

النحر في اللغة الصدر ، والنحور الصدور . قال ابن سيدة : نحر الصدر أعلاه وقيل هو موضع القلادة منه . ونحره ينحره : أصاب نحره ، وتناحر القوم على الشيء وانتحروا تشاحوا عليه فكاد بعضهم ينحر بعضاً من شدة حرصهم ، والنحيرة أول يوم من الشهر ، ويقال لآخر ليلة من الشهر نحيرة لأنها تنحر الهلال . قال الكميت :

فبادَرَ ليلةَ لا مُقْمِرٍ نحيرةَ شهرٍ لشهرٍ سرارا

---

(١) ابن منظور : لسان العرب مادة (قدر) .

(٢) أبو حاتم الرازي : الزينة ٢ / ١٣٥ .

وقال ابن أحمر الباهلي :

ثم استمـــرَّ عليـــه واكِـفٌ هَمِــعٌ   في ليلةٍ نحرتْ شعبانَ أو رَجَبَا[1]

وقال الراغب : « وقوله : فصلِّ لربك وانحر هو حث على مراعاة هذين الركنين وهما الصلاة ونحر الهَدْى ، وأنه لا بد من تعاطيهما »[2] .

« وقالوا : وضع اليمين على الشمال في الصلاة ، وقيل معناه : وانحر البدن ، وقال طائفة أمر بنحر النسك بعد الصلاة ، وقيل أمر بأن ينتصب بنحره بإزاء القبلة وألا يلتفت يميناً ولا شمالا ، وقال الفراء : استقبل القبلة بنحرك . ابن الأعرابي : النحر انتصاب الرجل في الصلاة بإزاء المحراب »[3] .

- اللغوي : موضع القلادة من الصدر ، والذبح بإصابة النحر .
- الاسلامي : نحر البدن أو النسك ، أو الانتصاب بالنحـر جهة القبلة .

على أني أود قبل أن أختم هذا الفصل أن أشير إلى أن القرآن الكريم في استعماله للألفاظ الإسلامية لا يقتصر على المعنى الإسلامي للفظة ، بل كان يستعملها أحياناً بأصل المعنى اللغوي ، أو يمنحها معاني أخر .

كما أود أن أشير إلى أنني في ترتيبي لهذه الألفاظ لم أُعْنَ بتجريدها من حروف الزيادة أو برد بعض الحروف إلى أصولها .

---

(١) ابن منظور : لسان العرب مادة (نحر) .
(٢) الراغب : المفردات . مادة (نحر) .
(٣) لسان العرب مادة (نحر) .

يمكننا بعد ذلك أن نقرر ما يأتي :

أولا : عدد المواد اللغوية التي ورد ذكرها في جزء عمّ أكثر من مرة ، وورد في غيره من أجزاء القرآن الكريم ٢٧٥ مادة .

ثانيا : عدد المواد اللغوية التي وردت في جزء عمّ مرة واحدة ، ووردت في غيره من أجزاء القرآن الكريم مرة أو أكثر ١٩٢ مادة .

ثالثا : عدد الألفاظ التي وردت في جزء عمّ وحيدة المادة والصيغة في القرآن الكريم كله ٥٧ لفظاً .

رابعا : عدد المواد اللغوية التي استخدمت في هذا الجزء من القرآن العظيم ٥٢٤ مادة .

خامسا : أكثر الألفاظ دوراناً وشيوعاً في هذا الجزء من القرآن لفظ (رب) ٤٨ مرة ، وتليها لفظة يوم بمعنى اليوم الآخر ٣٧ مرة . ثم القول ومشتقاته ٢٢ مرة ، ثم لفظ الجلالة « الله » ٢١ مرة ، ثم بقية الألفاظ على النحو الموضح في الجدول الرابع .

ومن هذا الإحصاء تتضح لنا حقيقتان هامتان :

أولاهما : كثرة المواد اللغوية وتنوعها ، فعدد صفحات جزء عمّ حوالي ٢٢ صفحة فيها نحو ٢٥٥ سطراً واشتملت على ٥٢٤ مادة لغوية غير الضمائر وأسماء الإشارة والأسماء الموصولة ، وأدوات النصب والجزم والجر ، والأعلام ، والسوابق واللواحق مما لم أدخله في الإحصاء ، وفي هذا ما فيه من الثراء اللفظي والتنوع في المعاني .

الثانية : عُني هذا الجزء من القرآن بالعقيدة الدينية ، والدعوة إليها ، وإقرارها في النفوس ، وقد انعكس هذا على الألفاظ ، فكانت الألفاظ الدينية

هي الألفاظ المحورية : Nodal Items وقد دارت حول كل منها مجموعة لفظية Lexical Set تبين هذه العناية بإقرار العقيدة ، فحول لفظة (رب) دارت مجموعة من الألفاظ نحو : أخاف ، يشاء ، ليعبدوا ، ـ أعوذ ، جزاء ، عطاء حسابا ، أهدي ، تخشى ، منتهى ، غرك ، ملاقيه ، بطش شديد ، سبح ، سوط عذاب ، بالمرصاد ، ودعك ، قلى ، أرغب ، خلق ، أوحى ، صل ، حمد ، استغفر ، تواب ، ابتلى ، أكرم ، نعمه ـ تجزي ، كنود ، أذنت ، محجوبون ، دمدم ، خبير ، جنات .

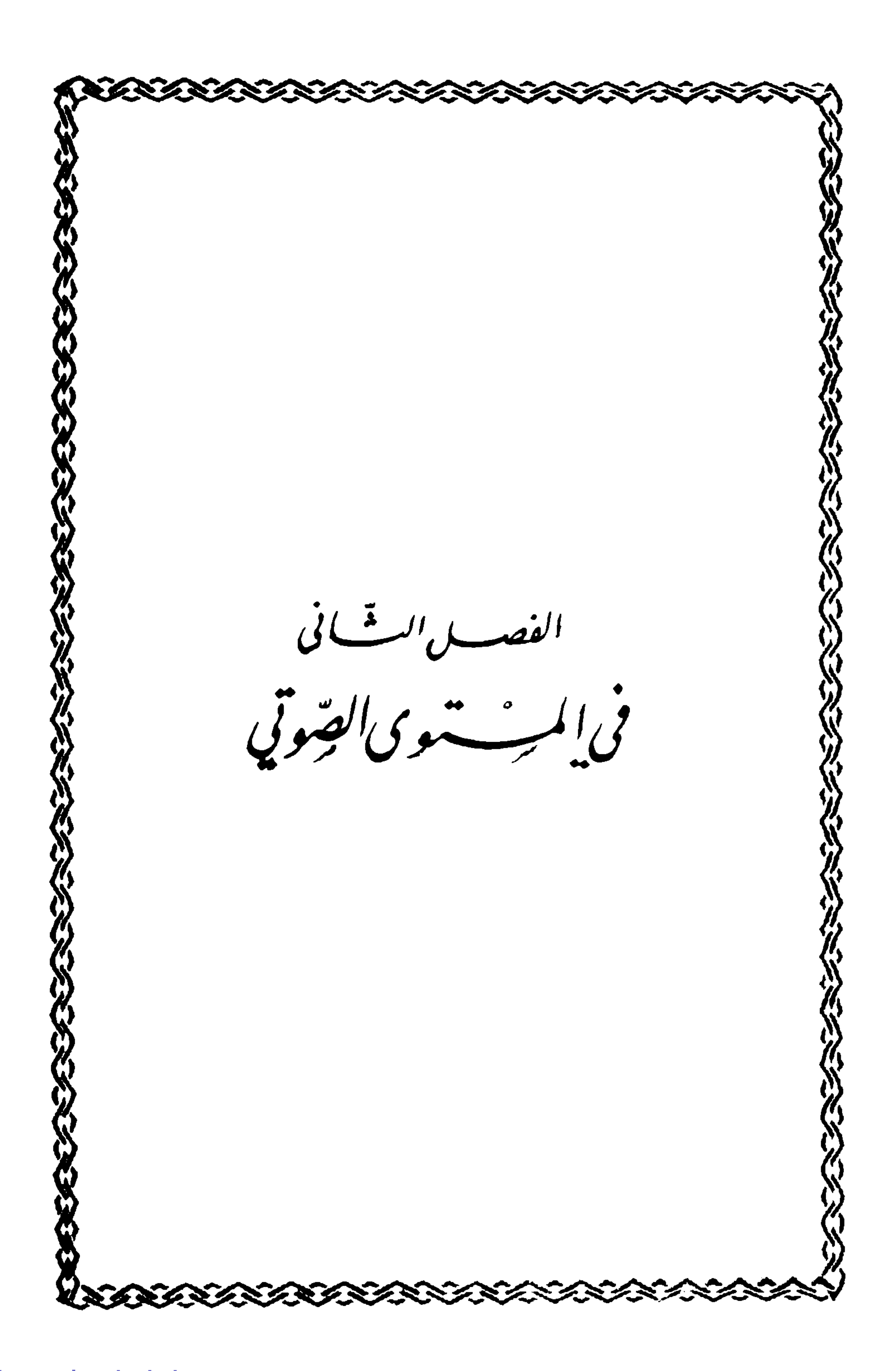
وحول لفظ الجلالة دارت مجموعة من الألفاظ نحو : نكال ـ أعلم ـ ملك السموات والأرض ـ شهيد ، محيط ـ يعلم الجهر وما يخفى ـ يعذبه العذاب الأكبر ـ أحكم الحاكمين ـ الصمد ـ أحد ـ لم يلد ـ لم يولد ـ لم يكن له كفواً أحد ـ دين ـ رسول ـ الأمر ـ يؤمنون ـ نار ـ نصر .

ومن ذلك يتضح ما تثيره لفظة (رب) ولفظ الجلالة (الله) من إيحاءات في أذهان المؤمنين والمعاندين على سواء ، من خشية الله ، وإقرار بقدرته ، وطمع في ثوابه ، وخوف من عقابه ، مما يزيد المؤمنين إيماناً ، ويزعزع عقيدة الكافرين ، ويدفعهم إلى الإيمان بالله رب العالمين ، والتقرب إليه لينالهم الخير ، ولا يصيبهم الأذى .

أما لفظة يوم فقد وردت في كل مواضعها ـ ما عدا موضعاً واحداً ـ بمعنى اليوم الآخر أو يوم القيامة الذي يحاسب الله الناس فيه على أعمالهم ، وقد دارت حولها مجموعة لفظية منها : الفصل ـ الحق ـ قدمت يداه ـ ترجف الراجفة ـ يتذكر الإنسان ما سعى ـ ويل للمكذبين ـ تبلى السرائر ـ وجوه مسفرة ـ وجوه عليها غبرة ـ لا تملك نفس لنفس شيئاً ـ وجوه خاشعة ـ وجوه ناعمة ـ جهنم ـ يعذب ـ النعيم .

وهي كلها تظهر ما ينتظر المؤمنين من حسن الثواب ، وما ينتظر الكافرين المعاندين من سوء العقاب ، وتصور حال كل من الفريقين في الدار الآخرة ، وفي هذا توضيح لجانب من جوانب العقيدة الدينية لدى المؤمنين بالدين ، وتخويف للمعاندين ودفع لهم إلى إتقاء هذا اليوم بالدخول في الدين ، والإخلاص لله في العبادة .

وقل مثل ذلك في غير هذه الألفاظ الدينية مما كثر وروده في جزء عمّ .



الفصل الثاني

في المستوى الصوتي

علاقة الصوت بالمعنى :

علاقة الصوت بالمعنى قضية قديمة أثارها الخليل بن أحمد ، وتبعه سيبويه وأقرهما على ذلك جلّة العلماء ، يقول أبو الفتح عثمان بن جني في كتابه « الخصائص » في باب عقده لذلك وأسماه (باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني) يقول : « أعلم أنّ هذا موضع شريف لطيف ، وقد نبّه عليه الخليل وسيبويه وتلقته الجماعة بالقبول له ، والاعتراف بصحته[1] .

وقد مضى ابن جني يتوسع في الاحتجاج لهذه القضية ، وإثبات صحتها معلنا أنه « كلما ازدادت العبارة شبها بالمعنى كانت أدلّ عليه ، وأشهد بالغرض فيه »[2] .

ويجدر بنا أن نعرض رأي ابن جني في هذه القضية عرضا مفصلا لصلته الوثيقة بما نحاوله في هذا الفصل . يقول ابن جني في كبر حجم هذه القضية ووضوحها : « فأمّا باب مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب واسع ، ونهج متلئب عند عارفيه مأموم ، وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبّر عنها فيعدلونها بها ، ويحتذونها عليها ، وذلك أكثر مما نقدره وأضعاف ما نستشعره »[3] .

ثم مضى أبو الفتح يذكر ما لحظه في هذا الباب فقال : « وذلك أنك تجد المصادر الرباعية المضعفة تأتي للتكرير نحو الزعزعة ، والقلقلة ، والصلصلة ، والقعقعة ، والصعصعة والجرجرة ، والقرقرة ، ووجدت أيضا (الفَعَلَى) في المصادر والصفات إنما تأتي للسرعة نحو : البَشَكَى ، والجَمَزَى ، والوَلَقَى . . . فجعلوا المثال المكرر للمعنى المكرر ـ أعني باب القلقلة ـ والمثال الذي توالت حركاته للأفعال التي توالت الحركات فيها[4] .

---

(١) ابن جني : الخصائص (تحقيق محمد علي النجار) الجزء الثاني مطبعة دار الكتب المصرية (القاهرة ١٩٥٥) ص ١٥٢ .

(٢) السابق : ٢ / ١٥٤ .

(٣) الخصائص : ٢ / ١٥٧ .

(٤) الخصائص ٢ / ١٥٣ .

« ومن ذلك أنهم جعلوا تكرير العين في المثال (يقصد البناء) دليلا على تكرير الفعل فقالوا : كسّر ، وقطّع ، وفتّح ، وغلّق ، وذلك أنهم لما جعلوا الألفاظ دليلة المعانى فأقوى اللفظ ينبغي أن يقابل به قوة الفعل . . . فلما كانت الأفعال دليلة المعاني كرروا أقواها ، وجعلوه دليلا على قوة المعنى المحدث به وهو تكرير الفعل فهذا أيضا من مساوقة الصيغة للمعاني »[1] .

« وقد أتبعوا اللام في باب المبالغة العين ، ودلك إذا كررت العين معها في نحو « دَمَكْمَك ، صَمَحْمَح ، وعركرك ، وعصبصب ، وعشمشم ، والموضع في ذلك للعين ، وإنما ضامتها اللّام هنا تبعا لها ولاحقة بها ألا ترى إلى ما جاء عنهم للمبالغة من نحو : اخلولق ، واعشوشب ، واغدودن ، واحمومى واذلولى واقطوطى ، وكذلك في الاسم نحو عثوثل ، وغدودن ، وحفيدد ، وعقنقل ، وعبنبل ، وهجنجل »[2] .

ويلحظ أبو الفتح أنّ الزيادة في المبنى تقابلها زيادة في المعنى فيقول : « ومن ذلك ـ وهو أصنع منه ـ أنهم جعلوا (استفعل) في أكثر الأمر للطلب نحو استسقى ، واستطعم ، واستوهب ، واستمنح ، واستقدم عمرا ، واستصرخ جعفرا فرتبت في هذ الباب الحروف على ترتيب الأفعال . . . فجاءت الهمزة والسين والتاء زوائد ، ثم وردت بعدها الأصول : الفاء والعين واللام ، فهذا من اللفظ وفق المعنى الموجود هناك ، وذلك أن الطلب للفعل والتماسه والسعي فيه والتأتي لوقوعه تقدمه ، ثم وقعت الإجابة إليه فتبع الفعل السؤال فيه ، والتسبب لوقوعه ، فكما تبعت أفعال الإجابة أفعال الطلب ، كذلك تبعت حروف الأصل الحروف الزائدة التي وضعت للالتماس والمسألة »[3] .

---

(١) الخصائص ٢ / ١٥٥ .

(٢) الخصائص ٢ / ١٥٥ .

(٣) الخصائص ٢ / ١٥٣ ـ ١٥٤ .

وينتقل أبو الفتح إلى الحديث عن علاقة الصوت بالمعنى في اللفظة المفردة ويقارن بين أزواج من الفونيمات (Minimal Pairs) مبينا سبب اختيار كل منها للتعبير عن معنى يناسب محرجه ، يقول : « ومن ذلك قولهم خضم وقضم ، فالخضم لأكل الرطب كالبطيخ والقثاء ، وما كان نحوهما من المأكول الرطب ، والقضم للصلب اليابس نحو قضمت الدابة شعيرها ، ونحو ذلك ، وفي الخبر « قد يُدرَك الخَضْمُ بالقَضْم » أي قد يدرك الرخاء بالشدة ، واللين بالشظف وعليه قول أبي الدرداء « يخضِمون ونَقْضِم والموعد الله » فاختار الخاء لرخاوتها للرطب ، والقاف لصلابتها لليابس حذوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث »[1] .

ولكن أبا الفتح لا يكتفي بذلك بل يحاول أن ينظر في ترتيب أصوات اللفظة المفردة ، ودلالة كل صوت على جزء من المعنى الذي تعبر عنه اللفظة . يقول : « نعم ، ومن وراء هذا ما اللطف فيه أظهر والحكمة أعلى وأصنع ، وذلك أنهم قد يضيفون إلى اختيـار الحروف وتشبيـه أصواتهـا بالأحداث المعبر عنها بها ترتيبها ، وتقديم ما يضاهي أول الحدث ، وتأخير ما يضاهي آخره ، وتوسيط ما يضاهي وسطه ، سوقا للحروف على سمت المعنى المقصود والغرض المطلوب وذلك قولهم : بحث ، فالباء لغلظها تشبه بصوتها خفقة الكف على الأرض والحاء لصحلها تشبه مخالب الأسد وبراثن الذئب ونحوها ، إذا غارت في الأرض ، والثاء للنفث والبث في التراب ، وهذا أمر تراه محسوسا محصلا فـأي شبهة تبقى بعـده أم أي شك يعـرض على مثله ؟ . . . »[2]

وهو يعقب على هذا وأشباهه بقوله : « فهذا ونحوه أمر إذا أنت أتيته من بابه ، وأصلحت فكرك لتناوله وتأمله أعطاك مقادته ، وأركبك ذروته ،

---

(١) الخصائص ٢ / ١٥٧ - ١٥٨ .
(٢) الخصائص ٢ / ١٦٣ .

وجلا عليك بهجاته ومحاسنه ، وإن أنت تناكرتَه ، وقلت • هذا أمر منتشر ، ومذهب صعب موعر ، حرمت نفسك لذته ، وسددت عليها باب الحظوة به . . . »[1] .

ويتوقع ابن جني أن يعارضه معارضون فيما قرر من رأي فيذكر اعتراضهم ويرد عليه بقوله : « فإن قلت : هلاّ أجزت أيضاً أن يكون ما أوردته في هذا الموضع شيئاً اتفق ، وأمراً وقع في صورة المقصود من غير أن يعتقد . وما الفرق ؟

قيل : في هذا حكم بإبطال ما دلّت الدلالة عليه من حكمة العرب التي تشهد بها العقول ، وتتناصر إليها أغراض ذوي التحصيل ، فما ورد على وجه يقبله القياس وتقتاد إليه دواعي النظر والإنصاف حمل عليها ونسبت الصنعة فيه إليها . وما تجاوز ذلك فخفيّ لم تُؤنَس النفس منه ، ووكل إلى مصادقة النظر فيه ، وكان الأحرى به أن يتهم الإنسان نظره ، ولا يخفّ إلى ادعاء النقص فيما ثبت الله أطنابه وأحصف بالحكمة أسبابه . ولو لم ينبه على ذلك إلا بما جاء عنهم من تسميتهم الأشياء بأصواتهم كالخازباز لصوته ، والبط لصوته ، . . وغاق للغراب . . . ونحو منه حاحيت وعاعيت وهاهيت ، إذا قلت حاء ، وعاء ، وهاء ، وقولهم بسملت وهيللت وحولقت ، كل ذلك وأشباهه إنما يرجع في اشتقاقه إلى الأصوات ، والأمر أوسع »[2] .

ثم يقول : « فإن أنت رأيت شيئاً من هذا النحو لا ينقاد لك فيما رسمناه ، ولا يتابعك فيما أوردناه فأحد أمرين : إما أن تكون لم يمعن النظر فيه فيقعد بك فكرك عنه ، أو لأنّ لهذه اللغة أصولاً وأوائل قد تخفي عنا ،

---

(١) الخصائص : ٢ / ١٦٢ .

(٢) الخصائص : ٢ / ١٦٤ ـ ١٦٥ .

وتقصر أسبابها دوننا (كما قال سيبويه) أو لأنّ الأول وصل إليه علم لم يصل إلى الآخر »[1] .

ويمكننا بعد هذا العرض المفصل لرأي ابن جني أن نستنتج منه ما يلي :

أولا : تكرار الصوت يؤدي إلى تكرار المعنى وتصويره وتقويته والمبالغة فيه .
ثانيا : إضافة أصوات إلى الأصول إضافة إلى المعنى الأصلي .
ثالثا : ثمة علاقة بين صوت الحرف ومخرجه وبين ما يدل عليه من معنى .
رابعا : كل صوت في اللفظة قد يعبر عن جزء من المعنى الذي تعبر عنه اللفظة بأصواتها جميعاً .

وقد لاقت هذه القضية من آمن بها ـ غير أبي الفتح ـ إيماناً قوياً ، فقد ذكر السيوطي في المسألة العاشرة من المزهر ما نصه : « نقل أهل أصول الفقه عن عباد بن سليمان الصيمري من المعتزلة أنه ذهب إلى أنّ بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة للواضع على أن يضع . قال : وإلا كان تخصيص الاسم المعين بالمسمى المعين ترجيحاً من غير مرجح »[2] .

ويقرر السيوطي أنّ ثمة ما يشبه الإجماع بين العلماء على مناسبة الألفاظ للمعاني التي وضعت لها يقول : « وأما أهل اللغة والعربية فقد كادوا يطبقون على ثبوت المناسبة بين الألفاظ والمعاني »[3] .

ولقد شغلت هذه القضية القديمة أذهان بعض المثقفين في العصر الحديث ، وتحاوروا فيها ، فكانوا بين متحمس لها ، وساخر منها ، والأستاذ العقاد يروي لنا طرفاً من ذلك في كتابه « أشتات مجتمعات في اللغة والأدب »

---

(١) الخصائص : ٢ / ١٦٤ .
(٢) السيوطي : المزهر ١ / ٤٧ .
(٣) السابق نفسه .

حيث يقول : « كتب إليّ الشاعر الكبير الأستاذ رشيد سليم الخوري معقباً على رأيي في دلالة الأوزان ومخارج الحروف باللغة العربية من كتاب اللغة الشاعرة فقال حفظه الله : « . . . وقد تنبهت بطول المراجعة إلى أن حرف الفاء هو نقيض حرف العين بدلالته على الإبانة والوضوح . فتح ، فضح ، فرح ، فلق ، فجر ، فسر . . الخ مما يعيي إحصاؤه ويندر استثناؤه ، وأنّ حرف الضاد خص بالشؤم يسم جبين كل لفظة بمكرهة لا يكاد يسلم منها اسم أو فعل : ضجر ، ضرّ ، ضير ، ضجيج ، ضوضاء ، ضياع ، ضلال ، ضنك ، ضيق ، ضنى ، ضوي ، ضراوة ، ضيزي ، وبعكسه الحاء التي تكاد تحتكر أشرف المعاني وأقواها : حب ، حق ، حرية ، حياة ، حسن ، حركة ، حكمة ، حلم ، حزم . . . . »[1] .

ويعقب الأستاذ العقاد على هذا بقوله : « والرأي الذي أوجزه الشاعر الكبير موضوع بحث مفيد يتصل ويتفرق بين المشتغلين بأسرار اللغة العربية أو «بذوقياتها» وطرائف تركيبها ، وآخر مناقشة فيه حضرتها كانت بين رجلين من كبار رجال المحاماة عندنا وهما الأستاذ نجيب برادة الذي كان زميلاً لنا بمجلس الشيوخ والأستاذ إبراهيم الهلباوي رحمهما الله ، وكان الأستاذ برادة يبحث عن أثر الحروف في السمع ، وعلاقة ذلك بالفصاحة والإقناع ، ويعتقد أنّ « الحاء » أظهر الحروف أثراً في الإيحاء بمعاني السعة حسيّة كانت أو فكرية ، ويعمم الحكم فيسوي بين موقع الحاء في أول الكلمة ، وموقعها في وسطها أو آخرها ، ويتمثل بكلمات الحرية والحياة والحكمة والحلاوة . . . ولقد كان زميله الهلباوي ـ على عادته في الفكاهة والدعابة ـ يسخر من فلسفته « الحائية » كما يسميها ويقول له : إنّ اسم « الحمار » مبدوء بالحاء ، وإنّ

---

(١) عباس محمود العقاد : أشتات مجتمعات في اللغة والأدب (دار المعارف بمصر ١٩٦٣) ص ٤٣ .

أشيع اللفظات على ألسنة النادبات يتردد فيها حرف « الحاء »[1] .

ثم يقول العقاد : « وكنا ـ إذا ضحكنا من هذه الدعابة ـ لا نسمح لها أن تخلط بين النكتة والحجة ، ولا ننسى خطر الفكاهة في مقام الاستدلال على الجدّ والحقيقة . إلا أنا كنا نخالف الأستاذ برادة في تعميم الحكم على الحرف بغير تفرقة بين مواقعه في الكلمات ، ومواقعه في السماع ، وقد ضربنا له المثل بكلمات لا تغيب عن المحامين على التخصيص ، وهي كلمات « الحبس » و« الحجر » و« الحرج ، والحدّ ، والحساب والحرس » وغيرها من الكلمات التي تناقض معاني السعة بالحس أو بالتفكير : [2]

ويجمل الأستاذ العقاد رأيه في نهاية هذا المقال الطريف بقوله : « والنتيجة بعد هذه الملاحظات السريعة قد تكون كبيرة الجدوى مع التوسع فيها ، وتعدد الناظرين إليها ، من جميع جوانبها وخلاصتها :

أولا : إن هناك ارتباطاً بين بعض الحروف ودلالة الكلمات .
ثانيا : إن الحروف لا تتساوى في هذه الدلالة ، ولكنها تختلف باختلاف قوتها وبروزها في الحكاية الصوتية .
ثالثا : إنّ العبرة بموقع الحروف من الكلمة لا بمجرد دخوله في تركيبها .
رابعا : إنّ الاستثناء في الدلالة قد يأتي من اختلاف الاعتبار والتقدير ، ولا يلزم أن يكون شذوذاً في طبيعة الدلالة الحرفية . . . . »[3] .

ويقول : « ولا نعرف بين اللغات الكبرى أصلح من لغتنا العربية لهذا الباب من أبواب الدراسة اللغوية ، لأنّ مخارج حروفها مستوفاة متميزة ، خلافاً

---

(١) السابق ص ٤٤ .
(٢) السابق ص ٤٤ ـ ٤٥ .
(٣) عباس محمود العقاد : أشتات مجتمعات في اللغة والأدب (دار المعارف بمصر ١٩٦٣) ص ٤٨ ـ ٤٩ .

لأكثر اللغات التي تعوزها الحروف الحلقية أو تلتبس فيها مخارج حروف الهجاء »[1] .

أما الباحثون من الأوربيين فقد ظلوا « ينتصرون لفكرة الصلة العقلية بين الأصوات والمدلولات حتى أواسط القرن التاسع عشر ، فها هو ذا لغوي مشهور توفي سنة ١٨٣٥ يدعى همبلت Humbolt يقول بصدد هذا : « اتخذت اللغة للتعبير عن الأشياء طريق الأصوات التي توحي إلى الآذان بنفسها أو بمقارنتها بغيرها أثراً مماثلاً لذلك الذي توحيه تلك الأشياء إلى العقول . . وقد تصدى له « مدفيج » Madving سنة ١٨٤٢ معارضاً تلك الفكرة ، ومبرهناً على فسادها بأن أورد مئات من كلمات الفصيلة الهندية الأوربية ، تناظر في معناها تلك الكلمات التي استدل بها همبلت وتخالفها في الأصوات »[2] .

ومن العلماء العرب الذين رفضوا الصلة بين الأصوات والمدلولات عبد القاهر الجرجاني ، فهو يفرق بين نظم الحروف ونظم الكلم ، ويرى أن نظم الحروف (الأصوات) هو تواليها في النطق من غير أن يكون هذا النظم ناشئاً من معنى اقتضاه « فلو أنّ واضع اللغة كان قد قال : « ربض » مكان « ضرب » لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد »[3] .

يقول الدكتور إبراهيم أنيس : « ولا شك أن الذين ينكرون الصلة بين الأصوات والمدلولات هم أقرب الفريقين إلى فهم الطبيعة اللغوية ، فهم يجردون الظواهر اللغوية من كل غموض ، ولا يرون فيها أموراً سحرية فوق المدارك والأذهان »[4] .

---

(١) السابق نفسه ص ٤٩ .

(٢) د . إبراهيم أنيس : من أسرار اللغة (القاهرة ١٩٥١) ص ٧٦ .

(٣) عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز (مطبعة السعادة بالقاهرة (دون تاريخ) تصحيح الشيخ محمد عبده والشيخ الشنقيطي ص ٤٢ .

(٤) د . إبراهيم أنيس : من أسرار اللغة ص ٧٧ .

ويتخذ الدكتور أنيس موقفاً معتدلاً بين المؤيدين والمعارضين فيقول : « نحن حين نتخذ طريقاً معتدلاً بين هؤلاء وهؤلاء ، ندرك كل الإدراك أنّ في اللغة أصواتاً خاصة ، وأن هناك من المدلولات ما تسارع اللغة للتعبير عنه بألفاظ معينة وربما كان من العسير حصر تلك المجالات اللغوية التي نلحظ فيها وثوق الصلة بين الأصوات والمدلولات ، ولكن منها بلا شك النواحي الآتية :

١ ـ حين تكون أصوات الكلمة نتيجة تقليد مباشر لأصوات طبيعية صادرة عن الإنسان أو الحيوان أو الأشياء ، وهذا النوع من الكلمات هو الذي يطلق عليه المحدثون كلمة (Onomatopoeia) والذي لم يستطع أحد من اللغويين إنكاره ، حتى أولئك الذين غالوا في معارضة فكرة الاتصال العقلي بين الأصوات والمدلولات .

٢ ـ قد تنشأ الكلمات للتعبير عن مصدر الصوت الطبيعي ، مشتقة من هذا الصوت وذلك كما فعلت بعض الأمم الأوربية في تسمية طائر معين يظهر في الربيع ويصيح بصوت « كوكو » فنشأت في اللغة هذه الكلمة ، وأطلقت على الطائر نفسه لا على صوته فقط . .

٣ ـ حركات الإنسان وما ينشأ عنها من أصوات قد توحي بنوع من الكلمات وثيق الاتصال بين اللفظ ومدلوله ، ولدينا من هذا في العربية الكثير مثل : طرق الباب ، ربّت على كتفه . وكالقطع والقطف ، والقطم والقضم والخضم وغير ذلك من كلمات كثيرة ساقها ابن جني وغيره من علماء العرب في كتبهم .

٤ ـ هناك كلمات يستمسك بها أصحاب علم النفس ، ويرون فيها الصلة بين الأصوات والمدلولات واضحة جلية ، وتلك هي التي تعبر عن

الحالة النفسية كالكره والنفور والسخرية مثل البغض ، والغضب ، والنفور ، والفتور ، والشنآن ، والتشفي . . .

٥ ـ طول الكلمة أو قصرها في الأصوات قد يوحي في اللغة بمعنى خاص ، ولله در القدماء من علماء العربية حين قرروا قاعدتهم المشهورة فقالوا : « زيادة المبنى يتبعها زيادة المعنى » . . .

٦ ـ حتى الحركات قد ترمز في بعض اللغات لمعان خاصة ، ففي اللغة الحامية ترى الكسرة تعبر في غالب الأحيان عن القريب ، في حين أنّ الضمة تعبر عن البعيد »[1] .

ولم يكن بعض المحدثين من المتخصصين في النقد الأدبي وبلاغة التعبير بمعزل عن هذه القضية ، بل لقد اعتبرها وسيلة بلاغية أهملها البلاغيون ومضى بعرض نماذج من الشعر يظهر فيها تكرار بعض الأصوات معبراً ـ في رأيه ـ عن العاطفة ومرتبطاً بالأداء الشعري . يقول الدكتور محمد النويهي : « وقد التفت العلماء القدامى إلى أنواع من التجاوب كالجناس ، والتشريع ، والتفويف ، والتسميط ودرسوها في علم البديع ، وعدوها مجرد محسنات للكلام ، ولكن هناك وسائل لم يتنبهوا إليها ولها وظيفتها العضوية في أداء المضمون لا مجرد تحسين الكلام ، منها ترديد الحرف الواحد في كلمتين أو كلمات متتابعة أو متقاربة ، ونظراً لأهمية هذه الوسيلة وكثرة ورودها في الشعر القديم ، وإهمال العلماء لها إهمالاً تاماً نخصها بقدر من عنايتنا في هذا الفصل وسنعدد الأمثلة عليها في فصول قادمة » . « فهم قد التفتوا إلى الجناس تامه وناقصه ، والتفتوا إلى تكرار الحرف حين يختم الكلمات التي ترد في آخر الجمل المتتابعة (وهو السجع) لكنهم لم ينتبهوا إلى أنّ الكلمات قد تشترك في حرف واحد في أوائلها أو أواسطها ، وأن هذا الاشتراك قد

(١) د . إبراهيم أنيس : من أسرار اللغة ص ٧٧ وما بعدها باختصار .

يكـون له قيمتـه التنغيمية الجليلة التي تـزيد من ربط الأداء بـالمضمون الشعري ، وهذا الترديد للحرف الواحد موجود في شعرنا القديم بما يكاد لا يقل عن كثرته في الشعر الإنجليزي ، حيث انتبه له العلماء ووضعوا له اصطلاحاً خاصاً »[1] .

« استمع مثلاً لبيت المتنبي :

وَمَنْ عَـرَفَ الأيَامَ معـرفتي بهَـا　　وبـالناسِ روَّى رُمْحَه غيرَ راحِمِ

فحرف الراء الذي يتكرر في نقطة قرع طرف اللسان لحافة الحنك (وهي الظاهرة الصوتية التي سماها اللغويون القدامى التكرار) قد جاء في قوله « روّى رمحه غير راحم » ثلاث مرات في أوائل الكلمات الأولى والثانية والرابعة ، ومرة رابعة في آخر الكلمة الثالثة . أتحسبه جاء هكذا بغير ارتباط بالعاطفة العنيفة التي يحملها البيت من الحقد والانتقام والقسوة والتشفي ؟ « بل إنك إذا أجدت الإنصات إليه في مواضعه التي تردد فيها وجدته قوي الانطباق على وخزة الرمح الذي يريد الشاعر أن يغرسه بقسوة في جسم عدوه ، حتى ليخيل إلينا أن هذا الرمح يزداد إيغالاً في الجرح مع كل راء من الراءات الأربع يدفع الرمح دفعة جديدة في اللحم الدامي زيادة في النكاية والتلذذ بإيلام البشر الذين يكرههم . ومن هذا يتضح لك أنك في النطق بهذه الجملة الشعرية يجب أن تعطي حرف الراء حقه الكامل في علم الأصوات العربية من تكرار قرع اللسان لحافة الحنك وأن تفعل ذلك في كل راء من الراءات الأربع بتلذذ قاس ، وتشف كبير الحقد »[2] .

---

(١) المصطلح هو : (Alliteration) كما ذكر الدكتور النويهي ونعتقد أنهم يطلقون على ما يريده الدكتور النويهي أيضاً مصطلح (Echo) .

(٢) د . محمد النويهي : الشعر الجاهلي : منهج في دراسته ونقده (الدار القومية للطباعة والنشر دون تاريخ) حـ ١ ص ٦٥ ـ ٦٦ .

وما يهمنا من رأي الدكتور النويهي هو أنه نقل القضية نقلة جديدة إذ اقتصرت قبله ـ كما رأينا ـ على النظر في علاقة الصوت في اللفظة المفردة بمعناها ، أما هو فقد نظر إلى تكرار الصوت في العبارة ، وأثر الصفات الصوتية له في تصوير العاطفة ، وإبراز المعنى المراد .

والرأي الذي أميل إليه أن دراسة الأصوات ، ومعرفة مخارجها وصفاتها الصوتية ، ثم ملاحظة ما يتكرر منها في الجمل والعبارات الأدبية ، وعلاقة ذلك بالعاطفة أو المعنى أمر جدير بالنظر والتطبيق ، مع تقييد ذلك بوضع الصوت بين بقية الأصوات والبعد عن الإفراط في التوهم ، أو محاولة إيجاد علاقات مبتسرة لا تصح إلا في وهم الناقد أو الدارس .

على أني أريد أن ألفت إلى أن هذا أمر يخضع ـ إلى حد كبير ـ لإلهام الناقد وبصره النافذ ، ومرانه ودربته على تذوق النصوص ، والإحساس بالفروق التعبيرية الدقيقة بينها . وأخرى لا بد منها ، وهي أن الأديب أو الفنان حين يقع في أثره الأدبي تكرار لبعض الأصوات لا يفعل ذلك عن عمد أو عن وعي كامل بما يقول ، وإنما يأتي ذلك من صدقه الفني والشعوري ، وتعبيره الصادق عما يحس به ويشعر .

ولسوف أحاول الآن أن أتبين وجود هذه الظاهرة ـ ظاهرة الصوت المتكرر وعلاقته بالمعنى ـ في اللغة القرآنية (في جزء عمّ) متمثلاً قولة أبي الفتح ابن جني : « ومن وجد مقالاً قال به ، وإن لم يسبق إليه غيره ، فكيف إذا تبع العلماء فيه ، وتلاهم على تمثل معانيه ؟ »[1]

أولا : تكرار الصوت المفرد :

تتخذ اللغة القرآنية أحيانا من الصوت المتكرر وسيلة بلاغية لتصوير

---

(١) الخصائص ٢ / ١٥٥ .

الموقف وتجسيمه ، والإيحاء بما يدل عليه معتمدة في ذلك على ما تتميز به بعض الألفاظ من خصائص صوتية ، وما تشيعه بجرسها الصوتي من نغم يسهم في إبراز المعنى المراد . وإنك لتجد القرآن الكريم يستخدم هذه الوسيلة البلاغية باقتدار رائع ، وإعجاز معجز ، فالصوت المفرد يختار بعناية ، وتصاحبه أصوات أخرى قد تكون متقاربة المخارج إن إحتاج الموقف ذلك ، وقد تكون متباعدة المخارج إن كان التباعد أدل على المعنى ، وأكثر تصويرا له .

أنصت معي إلى الجرس الصوتي لحرف السين الذي يتكرر في هذه السورة الكريمة :

﴿قل أعوذ برب الناس . ملك الناس . إله الناس . من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس﴾ ، وأرهف سمعك بصفة خاصة إلى قوله تعالى ﴿من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس﴾ فحرف السين الذي تكرر في هذه السورة صوت صامت مهموس لثوي احتكاكي ، لا يستطيع الإنسان أن ينطق به وهو مفتوح الفم ، بل إنه ليحدث في نطق كثيرين له أن تلتقي الأسنان السفلى بالأسنان العليا[1] . وقد اختير هذا الصوت بصفة خاصة ، لإبراز هذه الوسوسة التي يخافت بها أهل الجرائم والمكائد ، وما يلقيه الشيطان في روع الإنسان ليزين له بذلك ارتكاب المعاصي ، وهو أدل بجرسه الصوتي الاحتكاكي الهامس على تصوير حالة الهمس الخفي ، وقد أعانته على ذلك بعض الأصوات الأخرى التي تقاربت معه مخرجا منها حرف الصاد المطبق الذي يشترك في كل خصائصه الصوتية مع صوت السين ، ويزيد عليه الإطباق[2] ، وهو يعطي جرسا أعلى وسط هذه السينات المتتالية . ويشترك معه أيضا صوت الفاء ،

(١) د. محمود السعران : علم اللغة ص ١٩٢ .

(٢) السابق ص ١٩٢ .

وهو صوت صامت مهموس شفوي سني احتكاكي[1] ، فهذه الأصوات الثلاثة تشترك في صفتي الهمس والاحتكاك ، وتتقارب في وضع اللسان عند اللثة أو الأسنان ، وفي وضع الشفتين حال النطق بها . ومن الأصوات التي شاركت في إبراز هذه « الوسوسة » صوت الواو ـ وهو صوت شبه صائت مجهور شفوي ـ حنكي قصي[2] ـ الذي يتردد بين السينات المتوالية بضم الشفتين ضمات متتابعة تكون ذات أثر كبير في تصوير موقف التحريض الهامس على ارتكاب الآثام .

واستمع مرة أخرى إلى هذا التصوير الرائع لهول يوم القيامة الذي يختل فيه نظام الكون فتهتز الأرض وتنشق السماء ، وترتعد القلوب ، ولاحظ تكرار صوتي الراء والفاء على وجه الخصوص . قال تعالى : ﴿ **يوم ترتجف الراجفة ، تتبعها الرادفة . قلوب يومئذ واجفة** ﴾ لعلك أحسست بهذه « الرجفة » التي تشيع في نفسك ، وأنت تستمع إلى تكرار صوت الراء الذي تتابع في نطقه طرقات اللسان على اللثة تتابعا سريعا يصور أبدع تصوير هذه الرعشة التي تنتاب الأرض والسماء ، يساعده في ذلك صوت الفاء ، وصوت الجيم وهو صوت صامت مجهور لثوي حنكي انفجاري احتكاكي مركب (dz)[3] ويسبقه صوت صائت طويل يبرز تكرار حرف الراء ويعطيه استمرار أكثر ، وكثافة موسيقية أغزر ، ثم ينقطع النفس ، وينغلق مجرى الهواء حين النطق بالجيم ، ثم ينفتح مرة أخرى ليسمح بنطق صوت الفاء الذي يلتقط الصدى من الراء ليصور بجرسه الاحتكاكي المهموس حالة الاهتزاز .

وهذا هو القرآن الكريم في موضع آخر من جزء عم يلجأ إلى تصوير

---

(١) السابق نفسه ١٩٠ .

(٢) د. محمود السعران : علم اللغة ص ١٩٨ .

(٣) السابق ص ١٩٤ .

« الحشر » في يوم القيامة بترديد صوتي الحاء والشين تصاحبهما صوائت قصيرة متتابعة . يقول عز من قائـل : ﴿ وإذا الوحـوش حشرت ﴾ كـرر الاستماع إلى هذه العبارة القرآنية ، ولاحظ تكرار صوتي الحاء والشين ، وما يحدث في الحلق من « حشرجة » أو« حشر » و« تزاحم » فالحاء بجرسها الصوتي الذي يحدث احتكاكا في الفراغ الحلقي لأعلى الحنجرة ، ويضيق معه المجرى الهوائي ويرتفع الحنك اللين[1] ، والشين بما فيها من تفش كما يقول ابن جني ، وضيق بين مقدم اللسان ومؤخر اللثة ، وتقارب للأسنان العليا والسفلى ، واحتكاك ناتج من محاولة خروج العمود الهوائي الضيق من بين الأسنان[2] ، ثم هذه الضمات المتوالية على الحاء الأولى والثانية ، والواو الأولى والشين الأولى ، ثم هذا الصائت الطويل في (الوحوش) ، والانتقال من شبه صائت إلى صائت طويل يفرق بينهما حرف الحاء ، كل أولئك أسهم في تصوير هذا الزحام الذي تتدافع فيه الوحوش .

ومثل ذلك أو قريب منه يمكن أن يلحظ في قوله تعالى :

- ﴿ فصبَّ عليهم ربُك سوطَ عذاب . إنَّ ربك لبالمِرْصاد﴾ .
- ﴿ ثم السبيل يسَّره ﴾ .
- ﴿ ثم إذا شاء أنشره ﴾ .
- ﴿ إن بطشَ ربك لشديد ﴾ .
- ﴿ فدَمْدَمَ عليهم ربُّهم بذنبهم فسوَّاها ﴾ .

والأمثله بعد على تكرار الصوت وأثره في تصوير المعنى كثيرة ولكنا نجتزىء بما ذكرنا فهو يكفي في البرهنة على هذه الوسيلة البلاغية التي إن أحسن استخدامها أتت بخير كثير .

---

(١) السابق ص ١٩٥

(٢) السابق ص ١٩٣ .

ثانيا ـ تكرار أصوات سابقة :

لا تقتصر البلاغة القرآنية على تكرار الصوت المفرد للاستعانه بجرسه في تصوير موقف ما تصويرا فنيا ، ولكنها تتعدى ذلك إلى تكرار أصوات متتابعة ، قد ينتظم تتابعها ، وقد يختلف اختلافا يسيرا ، وهي في النهاية تأتي بما لها من صفات صوتية خاصة للتعبير عن معنى معين ، وإبراز جوانبه المختلفة ، وتصويره بجرس ألفاظه تصويرا موحيا مؤثرا .

استمع إلى تكرار الأصوات فيما يأتي من تعبير قرآني بليغ : يقول جل شأنه : ﴿ كلا إذا دُكّت الأرض دكًّا دَكّا ﴾ .

أتراك لا ترى في تكرار هذا (الدك) أكثر من مجرد التوكيد ؟ ، أم ترى في توالي الدك وتكراره تصويرا حسيا مجسما لدك أجزاء الأرض جزءا جزءا ، وتكرار ذلك مرة بعد مرة حتى تفنى ، ثم اختيار الدك دون غيره من الأفعال يشعرك بأصواته الانفجارية التي ينحبس عند النطق بها الهواء انحباسا تاما ، ثم لا يكاد ينساب حتى ينحبس في صوت انفجاري آخر . ألا يشعرك هذا بالإحاطة بالأرض والإطباق عليها حتى لا يفلت منها جزء من الأجزاء حال هذا الدك المتوالي وهذا الانتقال من صوت الدال ذلك الصوت المجهور الصامت الذي ينحبس معه الهواء فترة من الزمن عند أصول الثنايا العليا ، ثم يترك فجأة ليعود إلى الانحباس مرة أخرى عند أقصى اللسان وأقصى الحنك اللين[١] للنطق بالكاف ألا يشعرك هذا بتكرار الضغط على الأرض حتى لا يبقى منها شيء .

وقل مثل هذا أو قريبا منه في قوله تعالى :

ـ ﴿ إنهم يكيدون كيدا . وأكيد كيدا . فمهل الكافرين أمهلهم رويدا ﴾ .

---

(١) د. محمود السعران : علم اللغة ص ١٦٨ .

- ﴿ والليل وما وسق . والقمر إذا اتسق ﴾ .
- ﴿ فيومئذ لا يعذب عذابه أحد . ولا يوثق وثاقه أحد ﴾ .

على أن تكرار الأصوات في هذه الأمثلة وفي كثير غيرها كان مع اتفاق المعنى ، ولكن القرآن قد يلجأ إلى تكرار أغلب الأصوات في كلمتين متتاليتين ليحدث بينهما نوعا من الجناس الصوتي مع تغيير في فونيم كل كلمة منها ليتغير تبعا لذلك المعنى ، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى : ﴿ ويلٌ لكلِّ هُمَزَة لُمَزَة ﴾ فالمعنى هنا قد اختلف لوجود فونيم الهاء في اللفظة الأولى ، واللام في اللفظة الثانية وهما متباعدتان في المخرج ، وهو ما أطلق عليه البلاغيون « الجناس اللاحق » . ومن الجناس الصوتي أيضا ما يسمونه الجناس الاستهلالي (Alliteration) ، وهو يتحقق حين تبدأ كلمتان أو أكثر بصوت واحد يتكرر وفي كل من الكلمتين المتتاليتين أو الكلمات المتتالية فيحدث نوعا من النغم الموسيقي العذب بالتقاط صدى الصوت الأول وترديده ، وقد ورد ذلك في جزء عم في كثير من المواضع نذكر منها قوله تعالى :

- ﴿ في صحف (مكرمة)﴾ (مرفوعة)﴿ مطهرة ﴾
- ﴿كراما كاتبين ﴾
- ﴿ومزاجه من تسنيم﴾ - ﴿فبشرهم بعذاب أليم ﴾
- ﴿ إن إلينا إيابهم ﴾ - ﴿ يقول يا ليتني قدمت لحياتي ﴾ .

ثالثا : تكرار القالب الصوتي :

من السمات الواضحة للغة القرآنية في جزء عمّ تكرار القالب الصوتي للتعبير الذي توضع فيه الألفاظ في نظام دقيق فتجد له الأذن لذة ، وفي تكراره متعة تجعله قريبا إلى النفس ، سريع العلوق بالقلب ، سهلا في حفظه وترداده . وهذا القالب الصوتي مَقِيس بدقة متناهية في كثير من المواضع ،

وهي دقة معجزة وباهرة . أنظر إلى تكرار القالب الصوتي الذي تتطابق حركاته وسكناته وطوله في هذه العبارات القرآنية البليغة :

- **﴿ والنازعات غرقا ﴾ . . ﴿ والناشطات نشطا ﴾ . ﴿ والسابحات سبحا ﴾ . ﴿ فالسابقات سبقا ﴾ . .**

- **﴿ وإذا الجبال سيرت ﴾ . ﴿ وإذا العشار عطلت ﴾**

- **﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾**

- **﴿ وإذا البحار فجرت ﴾ ﴿ وإذا القبور بعثرت ﴾**

- **﴿ إن الأبرار لفي نعيم ﴾ و﴿ إن الفجارَ لفي جحيم ﴾**

- **﴿ إن إلينا إيابهم ﴾ ثم ﴿ إن علينا حسابهم ﴾**

- **﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ﴾ ﴿ ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾**

- **﴿ وتواصوا بالحق ﴾ ﴿ وتواصوا بالصبر ﴾ .**

ويمكننا أن نحمل عليه ـ إذا تجاوزنا عن الفارق البسيط بين طول الصائت وطول الصامت ـ قوله تعالى :

- **﴿ إنا صببنا الماءَ صَبًّا ﴾ ثم ﴿ شَقَقْنَا الأرض شَقًّا ﴾ .**

- **و﴿ السماءِ ذاتِ الرجْع ﴾ ﴿ والأرضِ ذاتِ الصَّدْع ﴾ .**

وقد أدرك بعض الشعراء ذوي الحس البياني الرهيف مدى ما لهذا التكرار من جمال فنسجوا على منواله ، واحتذوا مثاله حذوك الشعرة بالشعرة كما يقولون . يقول البحتري :

فأَحْجَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ فيكَ مَطْمَعَا وأقدَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ عَنْكَ مَهْرَبَا[1]

والاستدلال بهذا البيت من الشعر لا يسقط بحجة الوزن الشعري ، فقد

---

(١) يحيى بن حمزة العلوي : الطراز ، الجزء الثالث (مطبعة المقتطف ١٩١٤) ص ٤٠ .

يتفق الوزن الشعري ويختلف (الكمّ) النغمي ، وقد استشهدنا به لتساوي وحداته الصوتية تساويا يكاد يكون تاما ، ونقول (يكاد) لأن المحدثين من اللغويين يرون فرقا في الطول بين (فيك) و(عنك) ، وإن رأى العروضيون العرب غير ذلك . ونظيره ما ذكرناه من قوله تعالى : ﴿ **إنا صببنا الماءَ صبا** ﴾ **ثم** ﴿ **شققنا الأرضَ شقا** ﴾ .

وقد تلجأ البلاغة القرآنية إلى تكرار القالب الصوتي الطويل مع الحرص الشديد على تطابق نظام ترتيب الكلمات في الجمل ، واختلاف يسير في الطول . ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ **فأما مَنْ أعطى ، واتقَى ، وصدَّق بالحسنى ، فسنيسره لليُسْرَى** ﴾ .
﴿ **وأما منْ بَخِل ، واستغنَى ، وكذَّب بالحُسْنى ، فسنيسره للعُسْرَى** ﴾ .

هذا بالإضافة إلى المطابقة الباهرة بين المعنيين .

وقد تلجأ إلى إعادة القالب الصوتي بعد فاصل كبير ، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ **كلا إن كتاب الفجار لفي سجين . وما أدراك ما سجين . كتاب مرقوم** ﴾ .

. . . . .

﴿**كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين . وما أدراك ما عِلّيُّون . كتابٌ مرقوم** ﴾ .

ثانيا : المقاطع الصوتية : (Syllables)

لم تتفق كلمة اللغويين المحدثين على تعريف محدد للمقطع ، ذلك

وهي دقة معجزة وباهرة . أنظر إلى تكرار القالب الصوتي الذي تتطابق حركاته وسكناته وطوله في هذه العبارات القرآنية البليغة :

- ﴿ والنازعات غرقا ﴾ . . ﴿ والناشطات نشطا ﴾ . ﴿ والسابحات سبحا ﴾ . ﴿ فالسابقات سبقا ﴾ . .
- ﴿ وإذا الجبال سيرت ﴾ . ﴿ وإذا العشار عطلت ﴾
- ﴿ وإذا البحار سجرت ﴾ ﴿ وإذا النفوس زوجت ﴾
- ﴿ وإذا البحار فجرت ﴾ ﴿ وإذا القبور بعثرت ﴾
- ﴿ إن الأبرار لفي نعيم ﴾ و﴿ إن الفجارَ لفي جحيم ﴾
- ﴿ إن إلينا إيابهم ﴾ ثم ﴿ إن علينا حسابهم ﴾
- ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ﴾ ﴿ ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره ﴾
- ﴿ وتواصوا بالحق ﴾ ﴿ وتواصوا بالصبر ﴾ .

ويمكننا أن نحمل عليه ـ إذا تجاوزنا عن الفارق البسيط بين طول الصائت وطول الصامت ـ قوله تعالى :

- ﴿ إنا صببنا الماءَ صَبًّا ﴾ ثم ﴿ شَقَقْنَا الأرض شَقًّا ﴾ .
- و﴿ السماءِ ذاتِ الرجْع ﴾ ﴿ والأرضِ ذاتِ الصَّدْع ﴾ .

وقد أدرك بعض الشعراء ذوي الحس البياني الرهيف مدى ما لهذا التكرار من جمال فنسجوا على منواله ، واحتذوا مثاله حذوك الشعرة بالشعرة كما يقولون . يقول البحتري :

فأحْجَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ فيكَ مَطْمَعَا وأقدَمَ لَمَّا لَمْ يَجِدْ عَنْكَ مَهْرَبَا[1]

والاستدلال بهذا البيت من الشعر لا يسقط بحجة الوزن الشعري ، فقد

(١) يحيى بن حمزة العلوي : الطراز ، الجزء الثالث (مطبعة المقتطف ١٩١٤) ص ٤٠ .

يتفق الوزن الشعري ويختلف (الكمّ) النغمي ، وقد استشهدنا به لتساوي وحداته الصوتية تساويا يكاد يكون تاما ، ونقول (يكاد) لأن المحدثين من اللغويين يرون فرقا في الطول بين (فيك) و(عنك) ، وإن رأى العروضيون العرب غير ذلك . ونظيره ما ذكرناه من قوله تعالى : ﴿ إنا صببنا الماءَ صبا ﴾ ثم ﴿ شققنا الأرضَ شقا ﴾ .

وقد تلجأ البلاغة القرآنية إلى تكرار القالب الصوتي الطويل مع الحرص الشديد على تطابق نظام ترتيب الكلمات في الجمل ، واختلاف يسير في الطول . ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ فأما مَنْ أعطى ، واتقَى ، وصدَّق بالحسنى ، فسنيسره لليُسْرَى ﴾ .
﴿ وأمـــا منْ بَخِـــل ، واستغنَى ، وكـــذَّب بـــالحُسْنى ، فسنيســـره للعُسْرَى ﴾ .

هذا بالإضافة إلى المطابقة الباهرة بين المعنيين .

وقد تلجأ إلى إعادة القالب الصوتي بعد فاصل كبير ، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ كلا إن كتاب الفجار لفي سجين . وما أدراك ما سجين . كتاب مرقوم ﴾ .

﴿كلا إن كتابَ الأبرار لفي عليين . وما أدراك ما عِلِّيُّون . كتابٌ مرقوم ﴾ .

ثانيا : المقاطع الصوتية : (Syllables)

لم تتفق كلمة اللغويين المحدثين على تعريف محدد للمقطع ، ذلك

بأن نظرتهم إليه مختلفة ، فبعضهم ينظر إليه نظرة (أكوستيكية) ، وبعضهم ينظر إليه نظرة (نطقية) ، وبعضهم ينظر إليه نظرة (وظيفية)[1] ، وعلى أساس من اختلاف النظر اختلف التعريف .

وأيا ما كان الأمر فهناك اتجاهان رئيسيان في تعريف المقطع أحدهما فوناتيكي ، والثاني اتجاه فونولوجي . أما الاتجاه الفوناتيكي فأهم تعريفاته[2] :

١ ـ تتابع من الأصوات الكلامية له حد أعلى أو قمة إسماع تقع بين حدين اثنين من الإسماع .

٢ ـ جزء من تيار الكلام يحوي صوتا مقطعيا ذا حجم أعظم محاطا بجزئين أضعف منه أكوستيكيا .

٣ ـ « وحدة » من عنصر أو أكثر تصاحبها نبضة صدرية واحدة .

وأما الاتجاه الفونولوجي « فيعرف المقطع بالنظر إلى كونه « وحدة » في كل لغة على حدة . . . ولهذا فإن التعريف الفونولوجي الدقيق لا بد أن يكون خاصا بلغة معينة أو مجموعة من اللغات ، ولا يوجد تعريف فونولوجي عام ، لأن هذا يخالف الحقيقة المعروفة أنّ كل لغة لها نظامها المقطعي المعين »[3] .

وأهم تعريفات الاتجاه الفونولوجي[4] :

---

(١) د. أحمد مختار عمر : دراسة الصوت اللغوي مطبعة سجل العرب توزيع عالم الكتب بالقاهرة ١٩٧٦ ص ٢٣٨ .
(٢) السابق ص ٢٤١ ـ ٢٤٢ بتصرف .
(٣) السابق ص ٢٤٢ .
(٤) السابق نفسه ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣ .

١ ـ « الوحدة » التي يمكن أن تحمل درجة واحدة من النبر في اللغات المنبورة أو نغمة واحدة في اللغات النغمية .

٢ ـ عرفه دي سوسير بأنه « الوحدة الأساسية التي يؤدي الفونيم وظيفة داخلها .

٣ ـ وحدة تحتوي على صائت واحد فقط إما وحده ، وإما مع صوائت بأعداد معينة وبنظام معين .

والأصوات بعد منها ما هو مقطعي (Syllabic) ، ومنها ما هو غير مقطعي (Nonsyllabic) ومنها ما يجوز أن يكون مقطعيا أو غير مقطعي ، والذي يحدد ذلك هو السياق[١] .

هذا هو الشائع في لغات كثيرة ، ولكن بعض اللغات ـ ومن بينها اللغة العربية ـ تميز المقطعي من غير المقطعي تمييزا قاطعا بغض النظر عن السياق ، إذ تقتصر فيها الأصوات المقطعية على الصوائت ، وغير المقطعية على الصوامت ، ولهذا فالكلام العربي فيه من المقاطع بقدر ما فيه من الصوائت[٢] .

واللغويون على أن المقاطع نوعان : مفتوحة (Open) وهي التي تنتهي بصوت صائت (V) ومقفلة (Closed) وهي التي تنتهي بصوت صامت (C)[٣] .

واللغة العربية ـ كغيرها من اللغات ـ تتركب فيها الكلمات من مقاطع ، وإن كانت أميل إلى المقاطع المقفلة ، ويقل فيها توالي المقاطع المفتوحة

---

(١) د. احمد مختار عمر : دراسة الصوت اللغوي ص ٢٤٩ .

(٢) السابق ص ٢٥٠ .

(٣) Pei, Mario and Gaynor, Frank: Dictionary of Linguistics (London 1958) An article (Syllable).

وبخاصة حين تشتمل على صوائت قصيرة[1] .

واللغة العربية تشتمل على كلمات أحادية المقطع مثل « من » وثنائية المقطع مثل « لما » وثلاثية المقطع مثل « يقاتل » ورباعية المقطع مثل « يتعلم » ، وخماسية المقطع مثل « متخاصمين » وسداسية المقطع مثل « يتجاهلون » وسباعية المقطع مثل « متحدثيهما »[2] .

على أن الكلمة العربية لا يمكن أن تزيد مقاطعها على سبعة مقاطع مهما اتصل بها من سوابق (Prefixes) أو لواحق (Suffixes)[3] .

ويرى الأستاذ بيستون (Beeston) أنه ليس في اللغة العربية مقطع يبدأ بصوت صائت V ، ولا بصوتين صامتين C C ولا بصوت صامت طويل $\bar{C}$ ، وعلى أساس من هذا ينبغي أن يتم التقسيم المقطعي[4] .

والتركيب المقطعي المقبول في الكلام العربي المتصل[5]- إذا عبرنا عن الصائت بالرمز (ص) وعن الصائت الطويل بالرمز (صَ) ، وعن الصامت بالرمز (م) كما يلي :

١ - (م ص) نحو باء الجر أو واو العطف (ب) (و) .

٢ - (م ص) نحو ما - لا .

٣ - (م صَ م) نحو من - لم - لو .

أي أن هناك ثلاثة أنواع من المقاطع :

أ - مقطع قصير وهو الذي يتكون من صامت + صائت قصير (م + ص)

---

(١) د. إبراهيم أنيس : الأصوات اللغوية ص ٩٢ .

(٢) د. تمام حسان : مناهج البحث في اللغة (القاهرة ١٩٥٥) ص ١٤٢

(٣) د. إبراهيم أنيس : الأصوات اللغوية ص ٩١ .

(٤) Beeston, AlF.L.: The Arabic Language Today (London 1970). P. 20

(٥) أنظر : د. إبراهيم أنيس : الأصوات اللغوية ص ٩٢ ، د. تمام حسان : مناهج البحث في اللغة ص ١٣٢ ود. أحمد مختار عمر : دراسة الصوت اللغوي ص ٢٦١ - ٢٦٣

ب ـ مقطع طويل وله صورتان :

١ ـ صامت + صائت طويل (م + صَ)

٢ ـ صامت + صائت قصير + صامت (م + ص + م)

جـ ـ والمقطع الثالث يمكن أن ينتج عند الوقف ، وهو مقطع زائد الطول وله صورتان :

١ ـ صامت + صائت طويل + صامت (م صَ م) نحو (باب) بسكون الباء

٢ ـ صامت + صائت قصير + صامت + صامت (م ص م م) نحو (شعب) بسكون الباء .

ومعنى ذلك أن المقاطع في اللغةالعربية إما قصيرة ، وإما طويلة وإما زائدة الطول . ولما كانت الكلمات تتكون من مقاطع متتابعة ، وكان لكل مقطع سماته الصوتية المتميزة كان ترتيب هذه المقاطع في الكلمات وتواليها على نسق معين ، ذا أثر كبير في إحداث أنواع من الموسيقى الداخلية تتناسب والأفكار التي تعبر عنها وتصورها ، فالمقاطع المقفلة تستغرق في نطقها زمنا أقل من الزمن الذي تستغرقه المقاطع المفتوحة ، ومن هنا كان استخدام المقاطع المقفلة يناسب لونا من التعبير لا تؤديه المقاطع المفتوحة والعكس صحيح .

ويكون توفيق الشاعر أو الأديب في اختياره المقاطع المناسبة لنوع العاطفة وتموجها عنده ، وتغير هذه المقاطع مع تغير نوع العاطفة ، وهو توفيق يصل إليه بخبرته الفنية وحسه البياني .

فإذا حاولنا الآن أن ننظر في استخدام القرآن الكريم ـ في جزء عمّ ـ لهذه المقاطع الصوتية استخداما فنيا ووجهنا بهذه القدرة الفنية المعجزة في

توزيع المقاطع وترتيبها على نسق تنقطع دونه البلغاء ، وتحار فيه الأفئدة والقلوب .

أنصت معي إلى استخدام القرآن الكريم للمقاطع المفتوحة على وجه الخصوص في قوله تعالى : ﴿ **يأيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه** ﴾ ، ولا تحرك لسانك لتعجل بها ، ولكن أعطها حقها من القراءة المستأنية المتأملة ، ثم حاول معي أن تتمثل ما تعبر عنه هذه المقاطع ، وربما أعاننا على تفهم ذلك أن ننقل ما قاله الأستاذ الإمام محمد عبده في تفسيرها . قال : « يأيها الإنسان السادر في غلوائه ، الصادر في عمله عن أهوائه الغافل عن مصيره ، الجائر عن جادة الحق في مسيره : لا تظن أنك خالد مقيم فيما أنت له جاهد ، وأنك إن آذيت الخلق وازدريت الحق ، واغتررت بالحول والقوة ، وسلمت عنانك للشهوة ، ضمنت لنفسك التمتع بما تكسب ، والبقاء فيما فيه تتعب وتنصب كلا إنك مجد في السير إلى ربك ، وإن كنت لا تشعر بجدك أو إن شعرت ، لهوت عنه ، وكل خطوة في عملك فهي في الحقيقة خطوة إلى أجلك »[1] .

هذا التقريع للإنسان الغافل ، وإشعاره بأن لا سبيل إلى الفكاك من المصير المحتوم قد عبرت عنه أصدق تعبير هذه المقاطع المفتوحة المكونة من صوائت قصيرة ، وصوائت طويلة وختمت بمقطع زائد الطول ، والتي غلبت على هذه الآية الكريمة كما يتضح من التحليل الآتي :

يـا / أ يَـ ي / يـُـ / هـ ـَ ل / إ ـِ ن / سا / ن ـُ / إ ـِنْ / ن ـَ / كـ ـَ / كـا / د ـِ / ح ـُ ن / ا ـِ / لىٰ / ر ـَ ب / ب ـِ / كـ ـَ / ك ـَ د / ح ـَ ن / ف ـَ / مـ ـُ / لا / قيه / .

---

(١) محمد عبده : تفسير جزء عمّ ص ٤٠ .

فالمقاطع المقفلة في هذه الآية الكريمة لا تزيد على ثمانية مقاطع من مجموع المقاطع وعدتها أربعة وعشرون مقطعا أي أنها ثلث عدد المقاطع ، وباقي المقاطع مفتوحة بين القصيرة والطويلة والزائدة الطول . فلنعد قراءة الآية الكريمة ولنلاحظ بصفة خاصةالمقاطع الطويلة (يا - سا - كا - لى - لا - قيه) ، ولنحاول أن نربط بينها وبين الزمن الذي يستغرقه نطق هذه المقاطع ، والزمن الذي يستغرقه الإنسان في الكدح والجهد في التحصيل ، أي أنه مهما طال الزمن ، ومهما بذل من مجهود : فلا بد من لقاء وانظر إلى هذين المقطعين المقفلين اللذين جاءا وسط عدد من المقاطع المفتوحة (كـ َ د / ح َ ن) ليردد الصدى الصوتي للفظة (كادِح) وتأكيده ، وتبيين شدة المجهود الذي يبذل فيه .

ولننظر الآن في استخدام التعبير القرآني البليغ لهذا النوع من المقاطع المفتوحة للتعبير عن لون آخر من المعاني يقول عز من قائل :

﴿ يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى يقول يا ليتني قدمت لحياتي ﴾ .

أرأيت إلى هذا التعبير عن موقف الندم الذي يصيب الإنسان ولات حين مندم ، كيف عبرت عنه اللغة القرآنية بهذه المقاطع المفتوحة :

يـ َ و / مـ َ / ئـ ِ / ذ ِ ن : يـ َ / ت َ / ذ َ ك / ك َ / ر ُ ل / إ ِ ن / سا / ن ُ / و َ / ا َ ن / نى / ل َ / هـ ُ ذ / ذ ِ ك / رى / يـ َ / قو / ل ُ / يا / ل َ ي / ت - / ني / ق َ د / د َ م / ت ُ / ل - / ح َ / يا / تي / .

فالمقاطع المقفلة أيضاً لا تزيد على ثلث المقاطع في هذه الآية الكريمة ، وسائرها مقاطع مفتوحة . وانظر كيف توالت المقاطع الطويلة (سا / ري / قو / يا / ني / يا / تي /) وكأنها نوح النادم الآسي على ما فرط

في جنب الله . (يا / ني / يا / تي /) وكيف يتراوح المد بالألف مع المد بالياء ليصور حالة الجزع والندم التي يرتفع فيها الصوت المتحسر ، ثم لا يلبث أن يتراخى وينحدر ، ليعود فيرتفع ممتداً إلى أعلى ويتراخى منخفضاً إلى أسفل . وبين هذه المقاطع الطويلة المفتوحة يرد مقطعان مقفلان في قوله (قدمت) (ق َـ د / د َـ م / ت ُـ /) يعبران عن سبب الندم الذي يتذكره الإنسان فيضغط عليه ليقرع نفسه به ، ولتحقيق ذلك اختار القرآن الكريم أن يكرر صوت الدال المجهور الذي ينحبس الهواء احباساً تاماً حال النطق به بأن يلتقي طرف اللسان بأصول الثنايا العليا مدة من الزمن ، ثم ينفصل العضوان انفصالاً فجائياً ليحدث هذا الصوت[1] فيكون خير تعبير عن هذا الضغط المتتابع على ما كان ينبغي أن (يقدمه) لحياته .

وربما استعملت هذه المقاطع المفتوحة في لون آخر من التعبير الهادىء المريح الذي تطرب له النفس ، وتترنم به كما في قوله تعالى :

﴿ وجوه يومئذ ناعمة . لسعيها راضية . في جنة . عالية . لا تسمع فيها لاغية . فيها عين جارية . فيها سُرُر مرفوعة . وأكوابٌ موضوعة . ونَمارقُ مصفوفة . وزرابيُّ مبثوثة ﴾ .

ألا ترى معي أن هذه المقاطع المفتوحة التي تنتهي بصوائت طويلة تعبر عن هذا النعيم الهادىء الذي تتعدد فيه وسائل المتعة والراحة ، والتي نجحت هذه « المدّات » في تصويرها إلى حد كبير : « جو ـ نا ـ ها ـ را ـ عا ـ لا ـ ها ـ لا ـ ها ـ جا ـ فو ـ وا ـ ضو ـ ما ـ فو ـ را ـ ثو » .

وها هو القرآن الكريم يعبر بالمقاطع (المقفلة) أصدق تعبير عن معنى العقاب الصارم الذي ينزل بالظالمين الكافرين الجاحدين نعمة الله وفضله في قوله تعالى :

---

(١) دكتور محمود السعران : علم اللغة ص ١٦٨ .

﴿ فصبَّ عليهم ربُّك سوطَ عذاب ﴾ .

(ص ـَ ب) ـ (ل ـَ ي) ـ (هـ ـِ م) ـ (ر ـَ ب) ـ (س ـَ و) .

ويكاد هذا التقطيع يبرز لنا كيف ينصب عليهم العذاب انصباباً في شدة وعنف وتوال ، وتكرار . (لاحظ اتفاق المقاطع السابقة اتفاقاً تاماً في نوع المقطع وتكراره) .

وانظر أيضاً كيف عبر القرآن الكريم بهذه المقاطع المقفلة عن الحزم القاطع والجدّ الفاصل الذي لا مجال فيه لتهاون ولا تجوّز في قوله تعالى : ﴿ إنه لقول فصل . وما هو بالهزل ﴾ .

(ا ـِ نْ ـ ق ـَ وْ ـ ل ـُ ن ـ ف ـَص ـ ل ـُ نْ ـ ب ـِ لْ ـ هـ ـَ ز) .

وكلها من المقاطع المقفلة الطويلة ، وهي حادة حاسمة في موقف الجدّ والفصل وهي خير تعبير عنه . وقد لجأ التعبير القرآني إلى استخدام مقطع مفتوح ينتهي بصائت طويل وسط هذه المقاطع المقفلة هو (ما) يعبر عن موقف النفي العام الشامل للهزل .

على أننا لو شئنا أن نتتبع الاستخدام الفني للمقاطع في القرآن لأتينا بأمثلة كثيرة تدل على ما قررناه من هذه القدرة المعجزة على استخدام المقاطع استخداماً فنياً ، ولكننا نجتزىء بهذا القليل عن الكثير ، ولعله يجزىء .

ثالثا : الفواصل القرآنية :

وقد آثرت هذا المصطلح على مصطلح « السجع » أو « التسجيع » لأن السجع حمل عبر تاريخه الطويل ظلالاً من المعاني وسمته بالتكلف ، والنفرة منه ، ولأنه كان سمة مميزة لحديث الكهان قبل الإسلام . فالعدول عنه في

بحث قرآني يجنبنا هذا اللجج في الجدل ، واللدد في الخصومة اللذين شهدهما الفكر الإسلامي والعربي على اختلاف بيئاته حول اطلاق أحد هذين المصطلحين على هذه الظاهرة البديعية الصوتية في القرآن الكريم .

وليس بنا الآن أن نعرض لهذا الخلاف ، فهو خلاف شكلي في قصاراه ، وقد تكفل بعرضه ومناقشته عدد من العلماء نذكر منهم أستاذنا الدكتور محمد زغلول سلام[1] والدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطىء)[2] والدكتور أحمد الحوفي[3] .

والحق أنّ البلاغيين عرفوا مصطلح « الفاصلة » وجمعها « فواصل » ـ ركناً من أركان السجع فأركان السجع فيما يقررون ثلاثة :[4]

أ = القرينة : وهي القطعة من الكلام المزاوجة للأخرى ، وهي في النثر بمنزلة البيت من الشعر .

ب = الفاصلة : وهي الكلمة الأخيرة في القرينة ، وجمعها فواصل .

حـ = الرويّ : وهو الحرف الأخير من الفاصلة ، وذكر في باب السجع توسعاً ، لأنه خاص بالشعر .

فالسجع إذن أعمّ من الفاصلة ، والفاصلة داخلة فيه ، ولما كانت الفاصلة أهم ركن من أركان السجع فقد أطلقتها على ما يدل عليه في القرآن .

ولقد فصل البلاغيون القول في هذا المبحث البديعي فذكروا شرائطه

---

(١) أنظر ثلاث رسائل في إعجاز القرآن (تحقيق وتعليق محمد خلف الله ودكتور محمد زغلول سلام) نشر دار المعارف بمصر ١٩٦٨ مجموعة ذخائر العرب (١٦) ص ١٨٧ وما بعدها .

(٢) د . عائشة عبد الرحمن : الإعجاز البياني للقرآن ص ٢٣٥ وما بعدها .

(٣) د . أحمد الحوفي : سجع أم فواصل ، مقال بمجلة مجمع اللغة العربية : حـ ٢٧ ص ١٩٢ .

(٤) علي الجندي : صور البديع (فن الإسجاع ـ القاهرة ١٩٥١) ص ١٩٥ ـ ١٩٦ .

وأقسامه وفطن بعضهم إلى قيمته الفنية[1] ، ولم ير فيه آخرون إلا زخرفاً شكلياً وحلية لفظية[2] .

ونريد الآن أن نعرض للسجع كما عرض له البلاغيون ، لأن ذلك بسبب مما نحاوله في هذا الفصل .

أولا : شروطه :

وضع البلاغيون شروطاً للسجع البديع تجدها مذكورة في أغلب كتب البلاغة التي عرضت لهذا المبحث البلاغي ، ونحن نختار من هذه الكتب الطراز ليحيي بن حمزة العلوي ليحدثنا عن هذه الشروط ، فهو أجمع لها ، وأبعد عن الخلط بينها وبين غيرها . يقول يحيي بن حمزة العلوي :[3] « لكنه - يقصد التسجيع - لا يحسن ، ولا يصفو مشربه إلا باجتماع شرائط أربع :

الشريطة الأولى : ترجع إلى المفردات ، وهي أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة المذاق رطبة ، طنّانة ، صافية على السمع ، حلوة ، طيبة ، رنانة ، تشتاق إلى سماعها الأنفس ، ويلذ سماعها على الآذان ، مجنبة عن الغثاثة ، والرداءة ، ونعني بالغثاثة والرداءة أن الساجع يصرف نظره إلى مؤاخاة الأسجاع ، وتطابق الألفاظ ، ويهمل رعاية حلاوة اللفظ ، وجودة التركيب وحسنه فعند هذا تمسّه الرداءة وتفارقه الحلاوة . . . . . .

الشريطة الثانية : راجعة إلى التركيب وهي أن تكون الألفاظ المسجوعة في تركيبها تابعة لمعناها ، ولا يكون المعنى تابعاً للألفاظ فتكون ظاهرة التمويه وباطنة التشويه . . .

---

(١) أنظر على سبيل المثال : الجاحظ : البيان والتبيين ١ / ٢٨٢ ، والصناعتين لأبي هلال العسكري ص ٢٠٤ .

(٢) أنظر علي الجندي : فن الأسجاع ص ٧٥٢ .

(٣) يحيي بن حمزة العلوي : الطراز ص ٢١ .

الشريطة الثالثة : أن تكون تلك المعاني الحاصلة عن التركيب مألوفة غير غريبة ولا مستنكرة ولا ركيكة مستبشعة ، لأنها إذا كانت غريبة نفرت عنها الطباع ، وكانت غير قابلة لها ، وإذا كانت ركيكة مجتها الأسماع .

الشريطة الرابعة : أن تكون كل واحدة من السجعتين دالة على معنى مغاير للمعنى الذي دلت عليه الأخرى ، لأنه إذن يكون من باب التكرير فيكون على هذا لا فائدة منه »[1] .

ثانيا : أقسامه :

قسم البلاغيون السجع باعتبار طول قرائنه ثلاثة أقسام : قصير ، ومتوسط وطويل ، واعتدوا القصير منها « أوعر أنواع التسجيع مسلكاً ، وأصعبها مدركاً ، وأخفها على القلب وأطيبها على السمع »[2] ، وأما المتوسط فمثلوا له بقوله تعالى ﴿ **سبح اسم ربك الأعلى . الذي خلق فسوى . والذي قدر فهدى . والذي أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى** . . . ﴾ السورة . وجعلوا الطويل منه ما زاد على ذلك حتى يصل إلى عشرين كلمة أو أكثر[3] .

ورأوا أن القرائن سواء أكانت قصيرة أم طويلة أم متوسطة إما أن تكون متساوية في الطول ، وإما أن تزيد إحدى القرينتين على الأخرى بغاية قريبة ، فإن طالت فذلك غير محمود[4] .

ثم قسّم البلاغيون السجع باعتبار حرف الروى والوزن ثلاثة أقسام أيضاً :[5]

---

(١) يحيي بن حمزة العلوي : الطراز ص ٢١

(٢) السابق : ص ٢٣ .

(٣) السابق : ص ٢٩ .

(٤) السابق : ص ٢٥ .

(٥) الطراز : ص ١٨ .

أ ـ ما اتفقت الأعجاز فيه في حرف الروي مع اتفاق الوزن ويسمى (المتوازي) .

ب ـ ما اتفقت الأعجاز فيه في حرف الروي دون الوزن ، ويسمى (المطرّف) .

حـ ـ ما اتفقت الأعجاز فيه في الوزن دون حرف الروي ويسمى (المتوازن) .

وأفاض بعضهم في بيان أثره في التعبير الفني بما يحدثه من إيقاع موسيقي تطرب له النفس وتنشط لسماعه ، مما يؤكد إدراكهم الجيد لقيمته الفنية ، حتى لقد ارتقى به أبو هلال العسكري في الصناعتين إلى أنه « إذا سلم من التكلف ، وبرىء من العيوب لم يكن في جميع صنوف الكلام أحسن منه »[1] ، وهي مبالغة ينبغي ألا تصرفنا عن قيمته التعبيرية ، وأثره الفني .

ولم يكن البلاغيون وحدهم هم الذين أدركوا هذه القيمة ، بل إنّ الذين عمدوا إليه والتزموه في كتابتهم الفنية كانوا على وعي بهذه القيمة ، وما لها من أثر في النفوس فقد روى الجاحظ في البيان والتبيين أنه « قيل لعبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي لم تؤثر السجع على المنثور ، وتلزم نفسك القوافي وإقامة الوزن ؟ قال : إنّ كلامي لو كنت لا آمل فيه إلّا سماع الشاهد لقلّ خلافي عليك ، ولكني أريد الغائب والحاضر والراهن والغابر ، فالحفظ إليه أسرع ، والآذان لسماعه أنشط وهو أحق بالتقييد[2] .

ولقد لجأ القرآن الكريم في بيانه القرآني الأعلى إلى هذ الوسيلة البلاغية وأكثر منها بخاصة في السور المكية ، ولا تكاد تجد سورة مكية تخلو

(١) أبو هلال العسكري : كتاب الصناعتين ص ٢٠٤ .
(٢) الجاحظ : البيان والتبيين ١ / ٢٨١ ـ ٢٨٢ .

منه إذ كان الوحي المكيّ يخاطب العاطفة والشعور ، ولما كان أكثر سور جزء عمّ مكياً فقد شاعت فيه هذه الوسيلة البلاغية شيوعاً واضحاً ، وتعددت طرائق استخدامه لها .

وقد أنعمت النظر في استخدام القرآن الكريم لنظام الفواصل ، وانتهيت بعد طول الروية والأناة إلى أنّ أهم سمات الاستخدام القرآني للفواصل ما يأتي :

أولا : الخروج على رتابة الإيقاع (كسر الإيقاع) :

قررنا قبلاً أن التعبير القرآني البليغ قد يلجأ إلى تكرار القالب الصوتي ترديداً وتنغيماً ، ولكن هذا التكرار لا ينتهي به إلى رتابة الإيقاع ، بـل تقع عليه في تضاعيف الكلام وأطوائه كما تقع على الدر النضيد ، ثم يكسر التعبير القرآني رتابة الإيقاع الذي قد ينتج عن تكرار القالب الصوتي تكراراً زائداً مما قد يبعث الملالة والسآمة في نفس السامع أو القارىء حين تتعود الأذن نمطاً مألوفاً من الإيقاع الموسيقي فتقل متعة النفس به .

والقرآن الكريم حين يلجأ إلى كسر هذه الرتابة يثري التعبير بأنغام موسيقية متنوعة ، تتحدَّر فيها موجات النغم ، وتتنوع أصداؤه ، وتتصاعد درجاته ، وقد لاحظت أنه يلجأ في ذلك إلى وسيلتين :

إحداهما : المراوحة بين القرائن في الكمّ الموسيقي ، فتجده يأتي بالفواصل المتوسطة الطول ، ويتبعها بالفواصل القصيرة ، ثم بالطويلة ، ثم يعود إلى القصيرة أو المتوسطة ، وهكذا . ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ نجعلْ الأرضَ مِهَادا . والجبالَ أوتَادا . وخلقناكم أزواجًا . وجعلنا نومكم سباتا . وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا . وبنينا فوقكم سبعا شدادا . وجعلنا سراجا وهاجا . وأنزلنا من المُعْصِرات ماءً

ثَجّاجًا . لنخرجَ به حباً ونباتا . وجناتٍ ألفافا . إن يومَ الفصلِ كان ميقاتا . يوم يُنْفَخُ في الصُّور فتأتون أفواجا . وفتحت السماء فكانت أبوابا . وسيِّرت الجبالُ فكانت سرابا . إنّ جهنّم كانت مرصادا . للطاغين مآبا . لابثين فيها أحقابا . لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا . إلا حميما وغساقا . جزاء وفاقا . . . ﴾ .

فالأذن الموسيقية كما يقولون لا تجد أيسر عناء في إدراك هذا النغم المتنوع الذي تختلف موجاته ، وتتعدد إيقاعاته .

الثانية : التصاعد النغمي ، ونعني به البدء بالفواصل القصيرة ، وإتباعها بفواصل أطول فأطول . ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ إنّ للمتقين مَفَازا . حدائقَ وأعنابا . وكواعبَ أترابا (وكأسا دِهَاقا . لا يسمعون فيها لَغْواً ولا كِذَّابا . جزاءً من ربك عطاء حسابا . ربِّ السموات والأرضِ وما بينهما الرحمنِ لا يملكون منه خِطابا . يوم يقوم الروحُ والملائكةُ صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمنُ وقال صَوَابًا) ﴾ .

ومنه أيضاً قوله جل وعز :

﴿ والعصرِ . إنّ الإنسانَ لفي خُسْرٍ . إلاَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحقِّ وتواصَوْا بالصَّبْر ﴾ .

وقد يتوازن الإيقاع ويتقارب ، ولكن أنغامه تختلف ، ولا يمكن أن تحس فيه بشيء من الرتابة ، وذلك متحقق في سورة الشرح التي تتقارب فيها القرائن ، ويتوازن الإيقاع الموسيقي وبخاصة في الجزء الأخير منها ، ولكنك لا تجد فيها أثراً لرتابة الإيقاع : **﴿ ألم نشرح لك صدرك ، ووضعنا عنك وزرك ، الذي انقض ظهرك ، ورفعنا لك ذكرك ، فإنّ مع العسر يسرا ، إن مع العسر يسرا ، فإذا فرغت فانصب . وإلى ربك فارغب ﴾ .**

ثانيا : التوازي :

التوازي بمفهومه البلاغي ـ وهو اتفاق أواخر القرائن في الوزن والروي ـ سمة واضحة في الفواصل القرآنية (في جزء عمّ) فهو متحقق فيما يزيد على أربعين موضعاً ، وهو بما يحمل من توافق صوتي بإعادة القالب الصوتي الأخير ، وتكرار حرف الروي يؤدي إلى إثراء التعبير بهذا الرنين الموسيقي المحبَّب الذي تنشط له النفس ، ولا يقف البيان القرآني المعجز عند هذا الحدّ ، بل يزيد عليه في بعض المواضع لزوم ما لا يلزم . وبعض المحسنات الصوتية الأخرى مثل الفواصل الداخلية ونسق التعبير .

فمما وردت فيه الفواصل القرآنية متفقة الأواخر في الوزن والروي قوله جل وعز :

- ﴿ وجعلنا سِرَاجا وهَّاجا . وأنزلنا من المعصِراتِ ماءً ثجَّاجا ﴾ .
- ﴿ حدائقَ وأعنابا . وكواعبَ أترابا ﴾ .
- ﴿ يوم ترجُفُ الراجفة . تتبعها الرادِفَة . قلوبٌ يومئذ واجفة ﴾ .
- ﴿ بأيدي سَفَرَة . كِرَامٍ بَرَرة ﴾ .
- ﴿ فأنبتنا فيها حَبًّا . وعنبا وقَضْباً ﴾ .
- ﴿ ثم أماته فأقبره . ثم إذا شاء أنشره ﴾ .
- ﴿ والسماء ذات الرجْع . والأرض ذات الصدْع ﴾ .
- ﴿ إنه لقول فَصْل . وما هو بالهَزْل ﴾ .
- ﴿ فيها سرُرٌ مرفوعة . وأكواب موضوعة ﴾ .
- ﴿ إنّ إلينا إيابَهم . ثم إنّ علينا حسابَهم ﴾ .
- ﴿ فإذا فرغتَ فانصَبْ . وإلى ربك فارغبْ ﴾ .
- ﴿ والعاديات ضَبْحا . فالمُورِياتِ قَدْحا . فالمُغِيراتِ صُبْحا ﴾ .

- ﴿ أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور . وحصل ما في الصدور ﴾ .

ومما وردت فيه الفواصل القرآنية متفقة الأواخر في الوزن والرويّ ، وزادت عليه لزوم ما لا يلزم محدثة نوعاً من الجناس الصوتي البديع :

- ﴿ فلا أقسم بالخنّس . الجوار الكنّس ﴾ .
- ﴿ فأما اليتيم فلا تقهر . وأما السائل فلا تنهر ﴾ .
- ﴿ إقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق ﴾ .
- ﴿ قل أعوذ برب الفلق . من شرّ ما خلق ﴾ .

ومما لجأ فيه البيان القرآني إلى الفواصل الداخلية قوله تعالى :

- ﴿ لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين ، منفكّين ، حتى تأتيهم البينة ﴾ .
- ﴿ ويل لكلِ هُمَزَةٍ ، لُمَزَة ﴾ .

وقد يأتي القرآن الكريم بالقرينة على نسق قرينة سابقة عليها في ترتيب الكلمات مع اتفاق أواخر القرائن في الوزن والرويّ . ومن ذلك قوله جل وعز :

- ﴿ وتأكلون التُراثَ أَكْلاً لمًّا . وتحبون المالَ حُبَّاً جمّا ﴾ .
- ﴿ فأثرْنَ به نَقْعا . فوسَطْنَ به جَمْعا ﴾ .

ثالثا : التــوازن :

توازن الفواصل في مصطلح البلاغيين مقصود به اتفاق أعجاز القرائن في الوزن دون الروى ، وإذا كان اتفاق الوزن والروى في بعض الفواصل يعطي هذا الثراء الموسيقي الذي أشرنا إليه ، فإنّ الاحتفاظ بالوزن ، والتخلي عن الروى في بعض الأحيان يكون له من الحسن مثل سابقه ، إذا حدثت

المراوحة بينهما ، فاعتياد الأذن على نهاية صوتية واحدة لكل قرينة قد يفقدها عنصر المفاجأة التي توقظ النفس وتنبه الذهن ، ولا نريد بذلك أن نثير مناقشة حول الروى في الشعر وأهميته أو قيمته الفنية ، ولكنا نقرر هنا أنّ النمط الأعلى للبيان المتمثل في القرآن الكريم لم يلتزم رويا واحدا لكل فواصله ، وإنما يلتزم به حين يكون التزامه أروع وأعجب ، ويتخلى عنه حين يكون التخلي عنه ضرورة فنية لازمة لكسر الرتابة وتحقيق التنوع النغمي .

وإنك لتجد البيان القرآني يخرج من الفواصل المتوازية إلى المتوازنة أو المطرفة ، ثم يعود إلى المتوازية ، ويخلط بين أنغامها المتنوعة ، وأصواتها المختلفة والمؤتلفة ليقدم لنا في النهاية لحنا موسيقيا عذبا ، تتضافر نغماته في إبراز هذا اللون من الجمال الفني .

ونريد الآن أن نعرض بعض الفواصل المتوازية التي يتحقق فيها الوزن دون الروى ، مع ملاحظة أن هذا اللون أقل شيوعا من اللون الأول ، وقد نلحظ أن التعبير القرآني يصحب ذلك في بعض المواضع بتكرار أصوات سابقة أو استخدام أصوات متقاربة المخارج . ومن ذلك قوله تعالى :

- ﴿ أنَّا صَبَبْنَا الماءَ صَبًّاً . ثم شَقَقْنَا الأرضَ شقًّا ﴾

- ﴿ كلا إذا دكت الأرض دَكّاً . وجاء ربك والملك صَفًّاً صفًّا ﴾ .

- ﴿ في صحفٍ مكرمَة . مرفوعة مطهَّرة ﴾ .

- ﴿ ونمارقُ مصفوفَة . وزرابيُّ مبثوثَة ﴾ .

- ﴿ يوم يكون الناس كالفراش المبثوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش ﴾ .

- ﴿ يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا . وفتحت السماء فكانت أبوابا ﴾ .

- ﴿ وإذا البحار سجّرت . وإذا النفوس زوجت ﴾ .

- ﴿ وما أدراك ما الطارق . النجم الثاقب . إنْ كلُّ نفس لَمَّا عليها حافظ ﴾ .
- ﴿ يومئذ تُحدِّثُ أخبارَها . بأنّ ربَّك أوحَى لَهَا ﴾ .
- ﴿ وإنّ عليكم لحافظين . كراماً كاتبين ﴾ .

رابعا : التطريف :

التطريف في مصطلح البلاغيين ما اتفقت فيه الأعجاز في الروىّ دون الوزن ، والتعبير القرآني حين يستخدم هذه السمة في الفواصل لا يكتفي بمجرد التشابه في حروف الروى ، ولكنك تقع فيه على وسيلة مصاحبة للرويّ هي ما يمكن أن نسميها « التشابه المقطعي » ، فالفواصل التي لا تتفق في الوزن تتفق في أكثر المقاطع ، ويقع الخلاف بينها في مقطع واحد غالبا لتحقيق التنوع النغمي الذي أشرنا إليه من قبل . فمن ذلك قوله تعالى :

﴿ إنهم كانوا لا يَرْجُونَ حِسَابا . وكذَّبُوا بآياتِنَا كِذَّابا ﴾ .

فالقرينتان تنتهيان بلفظين مشتركين في الروى دون الوزن كما يلاحظ البلاغيون ، ولكنا نزيد عليهم أنّ التعبير القرآني يحقق في هذا النوع لونا من التناسب أو التشابه المقطعي ، فاللفظة الأخيرة من القرينة الأولى تتكون من مقطع قصير (صامت + صائت قصير) هـو (حـ ـِ) ومقطع طويل (صامت + صائت طويل) هو (سا) ، ثم مقطع طويل آخر (صامت + صائت طويل هو (بـا) . واللفظة الأخيرة من القرينة الثانية تشترك مع اللفظة الأولى في المقطعين الأخيرين فكلا المقطعين الأخيرين في الثانية طويل يتكون من (صامت + صائت طويل) وهما (ذا) (بـا) وتختلف اللفظتان (حسابا) و(كذابا) في المقطع الأول فقط فهو في الثانية (طـويل) ويتكـون من صامت + صائت قصير + صامت (ك ـِ ذْ) وفي الأولى قصير (حـ ـِ) . أي أن

الزيادة طفيفة . وهي تقع في زيادة صوت صامت في اللفظة الثانية بعد الصائت القصير . ولعل هذا يفسّر عدول القرآن الكريم عن استخدام المصدر الشائع للفظة كذّب وهو (تكذيب) واستخدام (كِذّابا) بدلا منه .

وقد يحدث العكس فتكون الزيادة في اللفظة الأخيرة من القرينة الأولى كما في قوله تعالى :

﴿ إلا حميما وغساقا . جزاء وفاقا ﴾ .

فاللفظة الأخيرة من القرينة الأولى تتكون من ثلاثة مقاطع طويلة ، والثانية تتكون من مقطع قصير ومقطعين طويلين .

ومن الإعجاز في التعبير القرآني أن تختلف الكلمة الأخيرة من كلتا القرينتين في الوزن ، ولكنهما تتفقان اتفاقا تاما في المقاطع ، ومن ذلك قوله جل وعز :

ـ ﴿ الذي جمع مالا وعدّده . يحسب أنّ ماله أخلده ﴾ .

فاللفظة الأخيرة من القرينة الأولى تتألف من : مقطع طويل (ع ـَ دْ) ، ومقطع قصير (د ـَ) ثم مقطع طويل (د ـَ هْ) ، واللفظة الأخيرة من القرينة الثانية تتألف من مقطع طويل هو (أ ـَ خْ) ومقطع قصير هو (ل ـَ) ثم مقطع طويل (د ـَ ه) . والمقطعان الطويلان في كلتا القرينتين مقفلان . وليس وراء ذلك تطابق في المقاطع .

ومثل هذه المطابقة التامة تجدها في قوله تعالى :

﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها . وأخرجت الأرض أثقالها ﴾ .

فالكلمتان الأخيرتان في القرينتين الأولى والثانية تتألف كل منهما من أربعة مقاطع :

طويل مقفل + طويل مفتوح + قصير + طويل مفتوح
(ز ـِ لْ / زا / ل ـَ / ها) (أ ـَ ثْ / قا / ل ـَ / ها) .

ومن ذلك قوله تعالى :
﴿ إنه هو يُبْدِئ ويُعيد . وهو الغَفُورُ الودُود ﴾ .
(يـ ـُ / عيد /) (و ـَ / دود) في حالة الوقف ولا بدّ منه في السجع .

وقليلاً ما تَزيد إحدى الفاصلتين في القرينتين مقطعا كاملا عن الأخرى وذلك متحقق في نحو قوله تعالى :

﴿ وجوه يومئذ مُسْفِرة . ضاحكةٌ مستَبْشِرَة ﴾
(م ـُ سْ / ف ـِ / ر ـَ ةْ) (م ـُ سْ / تَ ـَ بْ / ش ـِ / ر ـَ ه) .

فقد زادت الكلمة الثانية مقطعا طويلا كاملا هو (ت ـَ بْ) ولا يخفى أنّ لهذه الزيادة مغزاها وهي تصوير الاستبشار (الزائد) الذي يصيب وجوه المؤمنين .

خامسا : الترسُّـل :

ونعني به عدم التقيد بوزن ولا رويّ في الفواصل ، وهو أقلّ السمات ظهورا في جزء عمّ ، ولكن البيان القرآني الأعظم لا يتركه عاطلا دون تحقيق قدر كبير من الانضباط الموسيقي يتمثل في اتقان المقاطع وتطابقها تطابقا تاما في كثير من الأحيان أو تناسبها وتشابهها في أحايين أخرى .

فمن الترسُّل في الفواصل الذي اتفقت مقاطعه وتطابقت تطابقا تاما قوله تعالى ﴿ وجعلنا نَومَكم سُبَاتا . وجعلنا الليلَ لِبَاسا . وجعلنا النَّهارَ مَعَاشَا . وبنينا فوقكم سَبْعَاً شِدَادا ﴾ .

فكل لفظة أُخيرة في القرائن السابقة تتطابق مقاطعها تطابقا كاملا على النحو الآتي :

سباتا :	(س ـُ / با / تا /)	(قصير + طويل + طويل)
لباسا :	(ل ـِ / با / سا)	(قصير + طويل + طويل)
معاشا :	(م ـَ / عا / شا)	(قصير + طويل + طويل)
شدادا :	(ش ـِ / دا / دا)	(قصير + طويل + طويل)

وهذا انضباط باهر في (الكمّ) النغمي وزمن النطق بهذه الألفاظ . وهو يغني في كثير عن و حدة الوزن والروى .

ومن الفواصل التي تقاربت فيها المقاطع وتناسبت دون أن تتطابق تطابقا كاملا قوله تعالى : ﴿ **لنخرج به حَبّاً ونَبَاتا . وجناتٍ ألفافا . إن يومَ الفصلِ كانَ ميقاتَا** ﴾ .

نباتا :	(ن ـ با / تا)	(قصير + طويل مفتوح + طويل مفتوح)
ألفافا :	(أ ـ / فا / فا)	(طويل مقفل + طويل مفتوح + طويل مفتوح)
ميقاتا :	(ميـ / قا / تا)	(طويل مفتوح + طويل مفتوح + طويل مفتوح)

فأنت ترى أن الاختلاف طفيف . وربما عمد إليه القرآن تحقيقا للتنوع الموسيقي .

ولا أريد أن أختم هذا الحديث في الفواصل القرآنية قبل أن أعرض لقضية هامة أثارت جدلا عنيفا بين العلماء وهي : هل يرعى التعبير القرآني الفاصلة فيؤثر لفظا على لفظ أو يقدم ويؤخر في الكلام ، أو يزيد بعض الأصوات وينقص لتتفق الفواصل ؟

لعل أول من عرض لهذه القضية وأهمهم جميعا هو الفراء في كتابه « معاني القرآن » ومن ثم سوف نكتفي بعرض رأيه في هذه القضية معقبين عليه برأي بعض من عارضوه ، محاولين أن نصل إلى رأي في هذه القضية .

أولا : يتخذ الفراء من رعاية الفاصلة وسيلة ترجيح لبعض القراءات

القرآنية فيقول في قوله تعالى : ﴿ أئذا كنا عظاما نخرة ﴾ : « حدثني مندل عن مجاهد عن ابن عباس أنه قرأ ناخرة ، وقرأ أهل المدينة نَخِرة ، وناخرة أجود الوجهين في القراءة ، لأن الآيات بالألف ، ألا ترى أن ناخرة ، والحافرة ، والساهرة أشبه بمجيء التنزيل ، والناخرة والنخرة سواء في المعنى بمنزلة الطامع والطَّمِع والباخل والبَخِل »[1] .

وقال في قوله تعالى : ﴿ والليل إذا يسر ﴾ : « وقد قرأ القراء « يسري » بإثبات الياء و« يسر » بحذفها ، وحذفها أحب إليّ لمشاكلتها رءوس الآيات ولأنّ العرب قد تحذف الياء وتكتفي بكسر ما قبلها منها . أنشدني بعضهم :

كفَّاكَ كفٌّ ما تُليقُ دِرْهَمَا جُوداً ، وأخرى تُعْطِ بالسَّيْفِ الدِّما

وأنشدني آخر :

ليسَ تخفَى يَسَارتِي قدْرَ يَوْمٍ ولقد تُخْفِ شِيمَتِي إعْسَارِي»[2]

ثانيا : يرى الفراء أن التعبير القرآني قد يلجأ إلى الحذف إذا عرف المعنى أو دلّ عليه دليل سابق ، لتتفق رءوس الآيات فيجتمع فيه الحذف ومراعاة الفاصلة . يقول في قوله تعالى : ﴿ ما ودعك ربك وما قلى ﴾ : « يريد : وما قلاك فألقيت الكاف كما تقول قد أعطيتك وأحسنت ومعناه : أحسنت إليك فتكتفي بالكاف الأولى من إعادة الأخرى ، ولأنّ رءوس الآيات بالياء فاجتمع ذلك فيه»[3] .

ثالثا : ويرى أن المصدر قد يضاف إلى صاحبه كما في قوله تعالى : ﴿ إذا زلزلت الأرض زلزالها ﴾ . قال الفراء : « فأضيف المصدر إلى

---

(١) الفراء : معاني القرآن ٣ / ٢٣١ .
(٢) السابق : ٣ / ٢٦٠ .
(٣) السابق : ٣ / ٢٧٣ ـ ٢٧٤ .

صاحبه ، وأنت قائل في الكلام : لأعطينَّك عَطِيَّتك ، وأنت تريد عطيَّة ، ولكن قربه من الجواز موافقة رؤوس الآيات التي جاءت بعدها »[1] .

هذه خلاصة رأي الفراء في هذه القضية ، ويتضح منها أنه لم يقرر مطلقا أن القرآن قد يعدل عن نسق إلى آخر أو يؤثر لفظا على غيره قصدا إلى المشاكلة بين رؤوس الآيات . كما شاءت الدكتورة عائشة عبد الرحمن أن تفهم من رأي الفراء ، ثم شددت النكير عليه ، ومضت تثبت عكس ما يقول ، والرجل بريء مما نسب إليه براءة الذئب من دم ابن يعقوب . تقول الدكتورة عائشة : « وفي البيئة اللغوية والبلاغية اتسع الخلاف بين مذهب الفراء في أنّ السجع في القرآن مقصود لذاته ، وأنه ربما عدل عن نسق إلى آخر ، وآثر لفظا على غيره في معناه قصدا إلى المشاكلة والتوافق بين رؤوس الآيات ، وبين من أنكروا ـ كابن سنان الخفاجي وابن الأثير ـ أن تكون معاني الفواصل القرآنية تابعة للألفاظ »[2] .

ونحن نتفق ابتداء مع الدكتورة عائشة على أنّ الفواصل القرآنية تابعة للمعاني ولكنا نختلف معها في فهمها لمذهب الفراء .

ولننظرْ الآن كيف ردت الدكتورة عائشة على الفراء في آية الفجر : ﴿ والليل إذا يسر ﴾ قالت : « صرح الفراء في (معاني القرآن) بأنّ ياء العلة حذفت من يسر (ي) لمشاكلة رءوس الآيات[3] ، وكذلك ذهب (ابن سنان الخفاجي) في (سرّ الفصاحة) إلى حذفها وحذف ياء المنقوص من بالواد (ي) قصدا إلى تماثل الفواصل ، لأنّ القاعدة عندهم إثبات ياء العلة في

(١) الفراء : معاني القرآن ٣ / ٢٨٣ .
(٢) د. عائشة عبد الرحمن : الإعجاز البياني للقرآن ص ٢٤٨ .
(٣) السابق : ص ٢٥٠ ـ ٢٥١ .

الفعل المضارع المرفوع وإثبات ياء الاسم المنقوص مجرورا ومرفوعا إذا اقترن بأل أو أضيف »[1] .

« ويكفي للرد على من ذهبوا إلى حذف الياء في آيات الفجر لرعاية الفاصلة أن نلفت إلى أنّ القرآن الكريم لم يقتصر على حذفهما هنا في مقاطع الآيات ليسلم لهم القول بأن الحذف قصد إلى رعاية الفواصل وتماثل رءوس الآيات ، وإنما حذفت ياء المضارع المرفوع المعتل الآخر وواوه أيضا وياء المنقوص مضافا ومعرفا بأل في أواسط الجمل ودَرَج الكلام كالذي في الآيات التالية على قراءة حفص[2] . .

ومضت الدكتورة تستشهد ببعض الآيات التي وقع فيها الحذف ، وما استشهدت به بعضه يجوز الاستشهاد به ، وبعضه لا يجوز . فمما يجوز الاستشهاد به قوله تعالى : ﴿ يوم (يأت) لا تكلم نفس إلا بإذنه ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يوم يدعو (الداعِ) إلى شيء نكُر ﴾ .

ومما لا يجوز قوله تعالى : ﴿ فلما أتاها نُودِيَ من شاطىء (الواد) الأيمن ﴾ وقوله : ﴿ حتى إذا أتَوْا على (واد) النمل ﴾ ، ﴿ وما أنت (بهادِ) العمى عن ضلالتهم ﴾ ، ﴿ إلا من هو (صال) الجحيم ﴾ ، ﴿ وله (الجوار) المنشآتُ في البحر كالأعلام ﴾ ، ﴿ فلا أقسم بالخنّس (الجوار) الكنّس ﴾[3] . والاستشهاد بذلك لا يجوز ، لأن الحذف وقع للتخلص من التقاء الساكنين ولكن الدكتورة عائشة لا توافق على هذا التعليل قائلة : « وقد يسبق إلى الظن أن الياء والواو حذفتا فيها للتخلص من التقائهما ساكنتين

---

(١) السابق : ص ٢٥١ .

(٢) د. عائشة عبد الرحمن : الإعجاز البياني للقرآن ص ٢٥١ .

(٣) السابق : ص ٢٥١ - ٢٥٢ .

بساكن بعدهما إلا أننا نلفت إلى آيات هود والبقرة والقمر والحرف الأخير فيها غير ملتوٍّ بحرف ساكن[1] .

وهذا رأي مرفوض ، لأن حذفها في درج الكلام في بعض المواضع لا يعني تعميم الحكم في كل موضع ، وبخاصة إذا كانت له علة أخرى ظاهرة ومقبولة من الوجهة اللغوية .

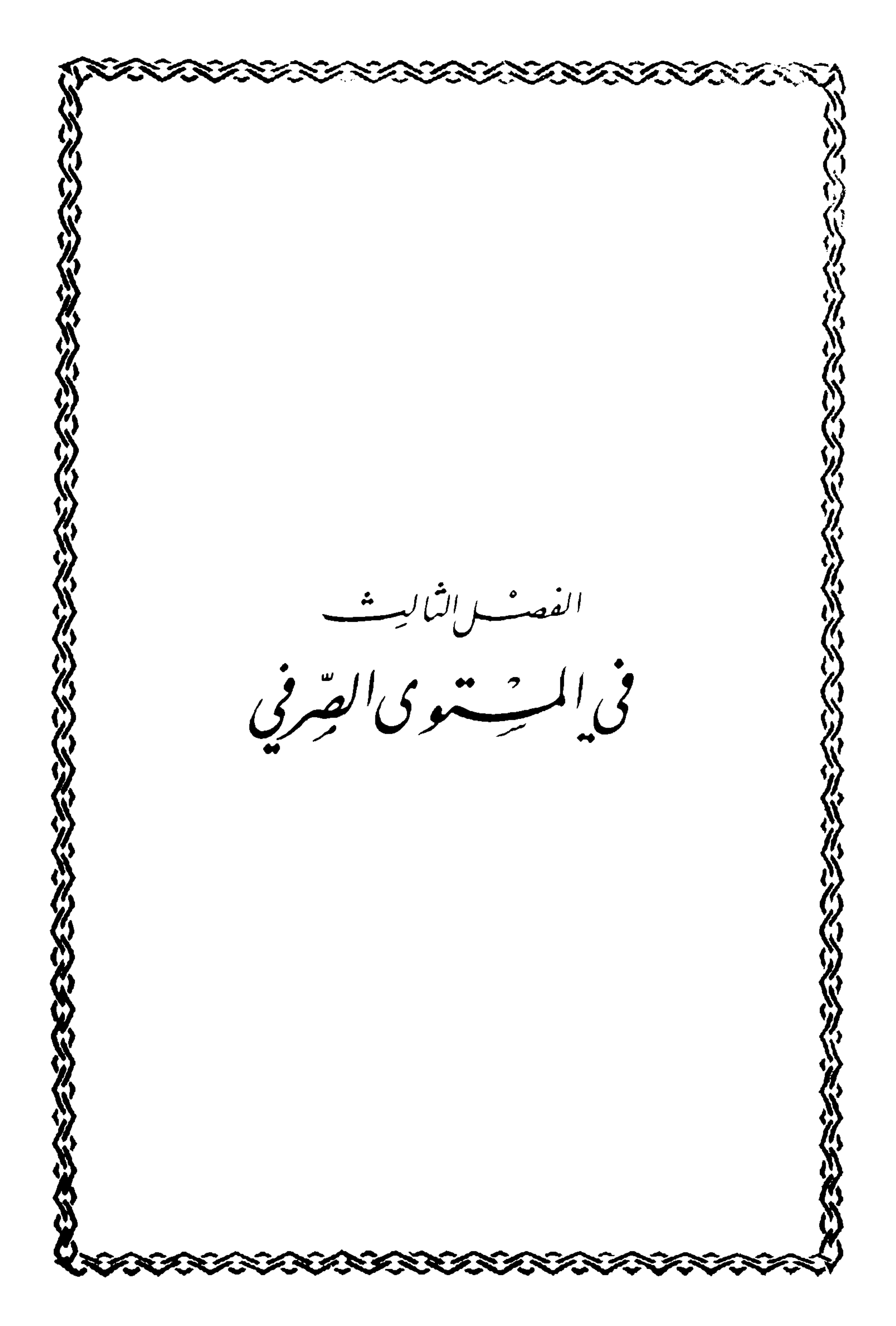
على أن شيخنا الفراء لم يغب عنه أنّ الياء قد تحذف في درج الكلام تخفيفا ورعاية للنسق الموسيقي ، وأتى على ذلك ببعض الشواهد التي ذكرناها .

والأمر بعدُ لا يستحق هذا العناء من الدكتورة عائشة ، وأن تحتشد له هذا الاحتشاد ، لأنه لا صلة له بالمعنى من قريب أو من بعيد . فإن حذف الياء أو الواو في الآيات التي استشهدت بها لا يؤثر في المعنى بشيء ومن ثم يسقط الاحتجاج بما تقول .

وقريب من ذلك ما يعمد إليه القرآن في بعض المواضع من زيادة هاء السكت على بعض الكلمات رعاية للفاصلة ، وتحقيقا للنسق الموسيقي دون أي تأثير في المعنى كما نجد ذلك في قوله تعالى : ﴿ فأمه هاويه . وما أدراك ما (هيه) . نار حامية ﴾ .

---

(١) السابق : ص٢٥٢ .



الفصل الثالث

في المستوى الصّرفي

ونريد الآن أن نتقدم إلى دراسة المورفيمات والصيغ الصرفية ، واستخدام القرآن الكريم لها استخداما فنيا في جزء عمّ ، ومما يمكن أن نلحظه من ذلك :

أولا : البناء للمجهول: (المغايرة في الصيغ) :

دراسة المغايرة في الصيغ أو البناء للمجهول دراسة صرفية أصيلة ، يقول الدكتور كمال بشر « ومن صميم البحوث الصرفية كذلك دراسة المغايرة في الصيغ كما في المغايرة بين المبني للمعلوم والمبني للمجهول »[1] .

والناظر في استخدام القرآن الكريم - في جزء عمّ - للمبني للمجهول يستطيع أن يتبين عدة أغراض يلجأ القرآن إلى التعبير عنها بصيغة المبني للمجهول (أو بصيغة المطاوعة وهي صيغة تلحق بالمبني للمجهول)[2] ، ويمكننا أن نتبين من هذه الأغراض ما يلي :

أ - تعلق الغرض بغير الفاعل :

ويتحقق ذلك حين يلجأ القرآن الكريم إلى تصوير يوم القيامة وما يصاحبه من أحداث جسام تتزلزل لها الأرض وتدك ، وتنشق السماء وتنفطر ، وتكور الشمس ، وتنكدر النجوم ، وتسير الجبال ، ويبعثر ما في القبور ، وهي أهوال ينخلع لها القلب ، وينصرف إليها فكر الإنسان ووجدانه ، وتأخذ عليه النفس من أقطارها فلا يتعلق بالبحث عن الفاعل ، وإنما هو مأخوذ بهذا التصوير الرائع لهول اليوم الأكبر ، وإنك لتجد القرآن الكريم يكثر من حذف الفاعل في هذه المواضع ، ويعمد إلى بناء الفعل للمجهول ، لأنّ الغرض لا يتعلق به .

ومن هذه المواضع قوله تعالى :

- ﴿ **يوم يُنفَخُ في الصُّورِ فتأتون أفواجا . وفُتِحَت السماء فكانت**

(١) د . كمال بشر : مفهوم علم الصرف ص ١١٢ .

(٢) د . مهدي المخزومي : في النحو العربي : نقد وتوجيه (بيروت ١٩٦٤) ص ٤٨ .

أبوابا . وسُيِّرَت الجبال فكانت سرابا ﴾ .

ـ ﴿ إذا الشمس (كُوِّرت) . وإذا النجومُ (انكدرت) . وإذا الجبال (سُيِّرَت) وإذا العشار (عطلت) . وإذا الوحوشُ (حُشِرَت) . وإذا البحار (سُجِّرت) . وإذا النُفُوس (زُوِّجتْ) . وإذا الموءودة (سُئِلَت) . بأي ذنب (قُتِلَتْ) . وإذا الصحف (نُشِـرَت) . وإذا السمـاءُ (كُشِـطَت) . وإذا الجحيم (سُعِّرت) . وإذا الجنَّةُ (أزلِفَتْ) . علمت نفس ما أحضرت﴾ .

ـ ﴿ إذا السمـاءُ انفطرت . وإذا الكـواكبُ انتثرت . وإذا البحـارُ فُجِّرِت . وإذا القبورُ بُعثِرت ﴾ .

ـ ﴿ وبُرِزَت الجحيمُ لمن يرى ﴾ .

ـ ﴿ كلا إذا دُكَّت الأرضُ دكّاً دكا ﴾ .

ـ ﴿ أفلا يعلم إذا بُعْثِر ما في القبور . وحُصِّل ما في الصدور ﴾ .

ـ ﴿ إذا زُلْزِلَتْ الأرضُ زلزالها ﴾ .

وقد رأينا في الآيات السابقة كيف عدل القـرآن الكريم في بعض المواضع عن صيغة المبني للمجهول إلى صيغـة تلحق بها وهي صيغـة المطاوعة (انفعل) فزاد التصوير تهويلا وترويعا في قوله تعالى كما جاء في الآيات السابقة ﴿ انشقت . انكدرت . انفطرت . انتشرت) . وكأن هذه الأشياء ليست في حاجة إلى إسناد ، لأنها تفعل ذلك من داخلها دون افتقار إلى فعل فاعل خارج عنها .

على أن بعض العلماء المحدثين قد تنبه إلى أنّ القرآن الكريم قد يلجأ إلى المبني للمجهول حين لا يتعلق الغرض بذكره . يقول الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في معرض الحديث عن قوله تعالى : ﴿ يوم يُنْفَخُ في الصور فتأتون أفواجا ﴾ : « وبني ينفخ إلى المجهول لعدم تعلّق الغرض بمعرفة النافخ ، وإنما الغرض معرفة هذا الحادث العظيم ، وهو دعاء الناس

للحضور إلى الفصل »[1] .

وقال في معرض حديثه عن قوله جل وعلا : ﴿ **وبُرِزت الجحيم لمن يرى** ﴾ : « بني الفاعل للمجهول لعدم تعلق الغرض بمعرفة الفاعل »[2] .

٢ - تعلق الغرض بالفاعل وإن حذف :

وذلك شيء يبعث الإعجاب والدَّهَش : أن تجد القرآن الكريم يعمد إلى حذف الفاعل ، والغرض متعلق به ، وحذفه عندئذ أبلغ من ذكره ، فكأنما جمع الحذف والذكر في إهاب واحد .

أنظر إلى قوله تعالى : ﴿ **يُسْقَوْنَ من رحيق مختوم** ﴾ الفاعل محذوف ، والتقدير يسقيهم خدم أو ولدان ، أو نحوه ، وذكر الفاعل هنا كان ضرورياً لبيان أثر النعيم الذي يعيش فيه أهل الجنة ، إذ إنهم لا يُكلَّفون عناء السُّقيا ، ولا مشقة اجتلاب الماء ، فهم لا يستقون ، وإنما يُسْقَوْن ، وليس وراء ذلك توفير لأسباب الراحة والمتعة والنعيم .

على أنّ فعل السقيا قد ورد مرة أخرى في جزء عمّ مبنياً للمجهول في وضع مناقض تماماً للوضع السابق ، ولكن البلاغة القرآنية المعجزة استخدمت البناء للمجهول استخداماً بارعاً ، وحذفت الفاعل مع تعلق الغرض به ، وإن اختلف الغرضان ، قال عز من قائل : ﴿ **وجوه يومئذ خاشعة** ﴾ ، ﴿**عاملة ناصبة**﴾ ﴿**تصلى ناراً حامية**﴾ ﴿**تسقى من عين آنية**﴾ . فهذا فعل السقيا في موضع العذاب . وقد كان قبلُ في موضع النعيم . فلم لجأ القرآن الكريم إلى حذف الفاعل ، وبناء الفعل للمجهول ؟

إنّ السقيا من ماء شديد الحرارة ﴿ **كالمُهْلِ يَغْلِي في البطونِ كغَلْيِ**

---

(١) محمد الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير (المقدمات وتفسير سورة الفاتحة وجزء عم) (تونس ١٩٥٦) ص ١٣٧

(٢) محمد الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير (المقدمات وتفسير سورة الفاتحة وجزء عم) (تونس ١٩٥٦) ص ١٦٠ .

الحميم ﴾ كما شبهه القرآن في غير هذا الموضع[1] ، لا يمكن أن يقدم عليه المذنبون بأنفسهم ، وإنما لا بدّ من إرغامهم على شرب هذا الماء الحميم الذي يقطع الأمعاء ﴿ **وسقوا ماء حميما فقطّع أمعاءهم** ﴾[2] ، ولا يكون ذلك إلا بفعل فاعل حذفه أبلغ من ذكره ليترك لهم تخيل هؤلاء الجبابرة الذين يرغمون العاصين على تجرع هذا النوع من العذاب الأليم .

وقد يعمد القرآن الكريم إلى حذف الفاعل ، وبناء الفعل للمجهول مع تعلق الغرض بالفاعل المحذوف وذلك في مقام التذكير والحث على التفكر . قال تعالى ﴿ **أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت** ﴾ . فلو أن التعبير القرآني صرح بالفاعل في هذه الأفعال المبنية للمجهول لفات الغرض الذي هدف إليه القرآن بذكر دلائل خلق الله ، وهذا الهدف هو أن يتوصلوا بالتفكير في هذه الدلائل إلى معرفة الله الخالق الفاعل فحذف الفاعل مقصود ، وذكره في هذا المقام كأنه مصادرة على المطلوب .

٣ ـ الدعاء :

والقرآن الكريم في هذا الغرض من البناء للمجهول يختار غالباً فعلاً خاصاً هو الفعل (قتل) . قال تعالى : ﴿ **قُتِلَ الإنسانُ ما أكفره** ﴾ ، وقال جل شأنه : ﴿ **قُتِلَ أصحاب الأخدود** ﴾ .

والقرآن في ذلك على سنة العرب في التعجب والإنكار يقول الإمام محمد الطاهر بن عاشور : « وقتل : دعاء بالقتل ، وهو الموت بفعل فاعل ، والعرب يستعملونه في معنى التعجب من أمر منكر ، وفي معنى إظهار الغضب

---

(١) الدخان : ٤٦ .
(٢) محمد : ١٥ .

كما يستعملون « ويله » و« تربت يمينه » و« ثكلته أمه » »[1] .

على أن التعبير القرآني في استعماله لأفعال الدعاء يلجأ غالباً إلى البناء للمجهول ، سواء أكان ذلك في الفعل (قتل) أم في غيره . قال عز من قائل : ﴿ **قُتِلَ الخراصون** ﴾[2] ، و﴿ **إنه فَكَّر وقدَّر . فقُتِلَ كيف قَدَّر . ثم قُتِلَ كيف قدر** ﴾[3] وقال جل شأنه : ﴿ **قالت اليهود يد الله مغلولة (غُلَّت) أيديهم** و(**لُعِنُوا**) **بما قالوا** ﴾[4] ، وقد يعبر القرآن الكريم عن الدعاء في جزء عم بصيغة المبني للمعلوم كقوله تعالى : ﴿ **تَبَّت يدا أبي لهب وتب** ﴾[5] وهو قليل .

ثانيا : التنكير والتعريف :

درج علماء العربية على أن يجعلوا النكرة والمعرفة باباً من أبواب النحو لا الصرف ومع أنهم آمنوا بالصلة القوية بين العلمين و« لم يفصلوا بين النحو والصرف فصلاً قاطعاً ، بل مزجوا بينهما فيما كتبوا حتى أن كتب النحو ـ منذ سيبويه ـ تشتمل على النحو والصرف جميعاً »[6] . ومع ذلك لم يناقشوا النكرة والمعرفة ضمن مسائل الصرف بل ناقشوها ضمن مسائل النحو ، ومع إيماننا بأنّ الصرف والنحو « جزءان لعلم واحد »[7] وبأنّ الصرف مقدمة ضرورية لعلم النحو و« من الواجب على من أراد معرفة النحو أن يبدأ بمعرفة التصريف » كما يذكر ابن جني[8] ، إلا أن النظرة الحديثة تأبى أن تناقش

---

(١) محمد الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ص ١٧٢ .

(٢) الذاريات : ١٠ .

(٣) المدثر : ١٩ ، ٢٠ .

(٤) المائدة : ٦٤ .

(٥) المسد : ١ .

(٦) د . عبده الراجحي : فقه اللغة في الكتب العربية ص ١٤٤ .

(٧) السابق : ص ١٤٥ .

(٨) ابن جني : المنصف في شرح كتاب التصريف للمازني (تحقيق ابراهيم مصطفى واخر) (القاهرة ١٩٥٤) ص ٤ .

مسائل النكرة والمعرفة ضمن مسائل النحو ، وتفضل أن تناقش ضمن مسائل الصرف وأبوابه ، بل إن الدكتور كمال بشر جعل النكرة والمعرفة من أهم أبواب الصرف بمفهومه الحديث ، والبحث في هذا الباب من صميم البحث الصرفي ، وقد ذكرنا كلامه قبلًا ، ونعيده الآن حسماً للخلاف . يقول الدكتور كمال بشر : « ومن أهم أبواب الصرف هنا : المشتقات ، وتقسيم الفعل إلى أزمنته المختلفة والتنكير والتعريف ، والمتعدي واللازم ، والمتصرف والجامد . . . الخ . فالبحث في هذه المسائل وأمثالها بحث صرفي صميم ، إذ يخدم الجملة ويجعلها ذات معان مختلفة »[١] .

وبناء على ذلك اخترت أن أتحدث عن النكرة والمعرفة ضمن حديثي عن الصيغ الصرفية .

ولا أريد أن أتكثر ببيان معنى التنكير والتعريف ، وأنواع النكرة والمعرفة فتلك أمور يعرفها المبتدئون في دراسة اللغة ، ولكني أعمد مباشرة إلى استخدام القرآن الكريم ـ جزء عمّ ـ للنكرة والمعرفة استخداماً فنياً يسلكها في خصائص التعبير القرآني .

أولا : النكرة :

الناظر في جزء عمّ يجد التعبير بالنكرة شائعاً فيه ، لأنها تناسب المسائل العامة التي عرض لها القرآن في هذا الجزء ، كذكر دلائل قدرة الله ، ونعمه على خلقه ، ووصف يوم القيامة ، وما يصاحبه من أحداث جسام ، وما يحدث فيه من ثواب وعقاب إلى غير ذلك من أمور يناسبها التعميم أكثر مما يناسبها التخصيص ، فإن أبيت إلا الدليل فدونك جزء عمّ شاهداً على ما نقول من شيوع التعبير بالنكرة فيه . ولكيلا نرسل الكلام إرسالاً نجتزىء على ذلك بأمثلة قليلة : قال تعالى :

---

(١) د . كمال بشر : مفهوم علم الصرف ص ١١٠ ـ ١١١ .

- ﴿ إنّ للمتقين مَفَازا . حدائقَ وأعنابا . وكواعبَ أترابا . وكأساً دِهَاقا . لا يسمعون فيها لَغْوا ولا كِذَّابا ، جزاءً من ربك عطاءً حسابا ﴾[2] .

- ﴿ وبنينا فوقكم سبعا شِدَاداً . وجعلنا سِرَاجاً وهَّاجاً . وأنزلنا من المُعْصِرَاتِ ماء ثَجَّاجا . لنخرجَ به حبًّا ونَبَاتا . وجناتٍ ألفافا ﴾[3] .

- ﴿ فأنبتنا فيها حَبًّا . وعنبا وقَضْباً . وزيتُوناً ونَخْلاً . وحدائِقَ غُلْباً . وفاكهةً وأبّا . متاعاً لكم ولأنعامكم ﴾[1] .

- ﴿ وجوه يومئذ مُسْفِرة . ضاحكةٌ مستَبْشِرَة . ووجوه يومئذٍ عليها غَبَرة . ترهَقُها قَتَرة ﴾[2] .

- ﴿ وجوهٌ يومئذٍ خاشِعَة . عاملةٌ ناصبة . تصلَى ناراً حامِية . تُسْقَى من عينٍ آنية . ليس لهم طعام إلا مِنْ ضَرِيع . لا يُسْمِنُ ولا يُغني من جوع . وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية . في جنة عالية . لا تسمع فيها لاغية . فيها عينٌ جارية . فيها سُرُرٌ مرفوعة . وأكوابٌ موضوعة . ونمارِقُ مصفوفة . وزرابيُّ مبثوثة ﴾[3] .

على أن البلاغة القرآنية ـ في جزء عمّ ـ قد خرجت بالنكرة عن معنى الشيوع إلى معان أخرى اكتسبتها من المقام أو السياق ، نذكر منها ما يلي :

١ ـ التحقير :

قال تعالى : ﴿ قُتِلَ الإنسان ما أكفره . من أيِّ شيءٍ خَلَقَه . من نطفةٍ خَلَقَه فقدَّره ﴾[4] . فالتنكير في لفظة (نطفة) أفاد التحقير لهذا الإنسان

---

(١) النبأ : ٣١ ـ ٣٦ .
(٢) النبأ : ١٢ ـ ١٦ .
(٣) عبس : ٢٧ ـ ٣٢ .
(٤) عبس : ٣٨ ـ ٤١ .
(٥) الغاشية : ٢ ـ ١٦ .
(٦) عبس : ١٧ ـ ١٩ .

الكفور الطاغي الذي نسي أن خلقه كان من نطفة ضئيلة ، لولا قدرة الله القادر ما كان لها شأن يذكر . يقول الدكتور أحمد أحمد بدوي : « وقد تكون الكلمة النكرة موحية بمعنى حقير إلى النفس كما في قوله تعالى : ﴿ أكفرت بالذي خلَقَك من ترابٍ ثم من نطفة ، ثم سوَّاك رجُلاً ﴾ وقوله سبحانه : ﴿ قُتِل الإنسانُ ما أكفرَه . من أي شيءٍ خلقه . من نطفة خلقَه فقدره ﴾[1] .

ولكن الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رفض أن يكون ذكر النكرة في هذا المقام للتحقير ، فقال : « فذكر النطفة متعين ، لأنها مادة الخلق ، ولا التفات في ذكرها إلى معنى التحقير أو المهانة ، لأنّ المقام للاستدلال على أمر عظيم ، لا لإهانة المتكبرين »[2] .

ولست أرى رأي الإمام الشيخ ، فالمقام تعجب من كفران الإنسان نعمة خالقه ونسيان فضله عليه ، مع أنه أنشأه النشأة الأولى من (نطفة) أي من شيء صغير حقير لا يغري - إذا تذكره الإنسان - بهذا التطاول على الخالق جل وعلا ، وعدم الإقرار بنعمته وفضله ، والكفران به .

ومثل ذلك قوله تعالى :﴿ فلينظر الإنسانُ مِمَّ خُلِق ، خُلِق من ماءٍ دافق يخرج من بين الصلب والترائب . إنه على رجعه لقادر ﴾[3] . فقد ذكر أنّ النشأة الأولى كانت من شيء بسيط ينبغي أن يتخذ دليلاً على قدرة الله على إعادة الخلق في الحياة الأخرى ، وهو أهون عليه ، فتنكير « ماء » في هذه الآية الكريمة - فيما أرى والله أعلم - يدل على التحقير للمكابرين المعاندين أعان عليه المضارع المقترن بلام الأمر ، وقوله : ﴿ ممّ خلق ﴾ ثم تقرير القدرة على إعادة الخلق في قوله تعالى ﴿ إنه على رَجْعِهِ لَقَادر ﴾ .

---

(1) دكتور أحمد أحمد بدوي : من بلاغة القرآن (القاهرة ١٩٥٠) ص ١٣٠ .

(2) الامام محمد الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ص ١٧٤ .

(3) الطارق ٥ - ٨ .

٢ ـ الاستغراق أو التعميم :

النحاة على أنّ النكرة تعمّ إذا جاءت في سياق نفي أو استفهام[١] ، أو جاءت بلفظ يدل على العموم مثل (كل) ونحوه . ولكن النكرة لا تعم غالباً في غير ذلك وها هو التعبير القرآني العظيم قد منح النكرة معنى العموم الذي يستغرق أفراد الجنس دون أن يكون بلفظ يفيد العموم بذاته ، أو أن تقع النكرة في سياق نفي أو استفهام ومن ذلك قوله جل وعز : ﴿**إذا السماء انفطرت . وإذا الكواكب انتشرت . وإذا البحار فجرت . وإذا القبور بعثرت . علمت نفس ما قدمت وأخرت**﴾[٢] . وقال جل شأنه : ﴿**علمت نفس ما أحضرت**﴾[٣] .

فتنكير (نفس) في الموضعين كليهما أفاد العموم الذي يستغرق كل أفراد الجنس ، فكأنه قال : علمت كل نفس ما قدمت وأخرت ، علمت كل نفس ما أحضرت والجملة في الموضعين مثبتة ، وليس فيها لفظ يفيد العموم بذاته إلا لفظ « نفس » الذي منحه التعبير القرآني هذا العموم الشامل لكل النفوس . ونحوه قوله تعالى : ﴿**ومن شر حاسد إذا حسد**﴾[٤] . فكلمة « **حاسد** » تفيد هذا العموم والمعنى من شر كل حاسد .

٣ ـ التهويل :

وقد يمنح المقام القرآني النكرة معنى التهويل كما في قوله تعالى : ﴿**ويلٌ للمطففين**﴾[٥] ﴿**ويل يومئذ للمكذبين**﴾[٦] ، ﴿**ويل لكل همزة**

---

(١) انظر ابن يعيش : شرح المفصل ١ / ٨٦ (المطبعة المنيرية بعناية مشيخة الأزهر) .
(٢) الانفطار : ١ ـ ٥ .
(٣) التكوير : ١٤ .
(٤) الفلق : ٥ .
(٥) المطففين : ١ .
(٦) المطففين : ١٠ .

لمزة﴾[1] ، **﴿فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون﴾**[2] .

فكلمة (ويل) - فيما أرى والله أعلم - في كل هذه المواضع نكرة أفادت معنى التهويل ، لا بالمعنى المعجمي لكلمة الويل كما قد يتبادر إلى الذهن ، وإنما بهذا التنكير الذي قصد به إلى المبالغة والتهويل فيما ينتظرهم من سوء العقاب ، وهذا في نظري هو الذي سوّغ الابتداء به نكرة في كل المواضع السابقة »[3] .

ونظير هذا قوله تعالى : **﴿فأنذرتُكم ناراً تلَظَّي﴾**[4] ، **﴿سيصلي ناراً ذات لهب﴾**[5] ، **﴿عليهم نار مؤصدة﴾**[6] ، **﴿تصلى ناراً حامية﴾**[7] . قال الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور : « وتنكير نارا للتهويل »[8] .

٤ - التعظيم :

قال تعالى : **﴿إلا الذين أمنوا وعملوا الصالحات لهم أجرٌ غيرُ ممنون﴾**[9] وقال : **﴿إلا الذين أمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجرٌ غيرُ ممنون﴾**[10]، فتنكير الأجر في الآيتين الكريمتين السابقتين للتعظيم ، وبيان

---

(١) الهمزة : ١ .
(٢) الماعون : ٤ .
(٣) يرى ابن يعيش أن الذي سوغ الابتداء بالنكرة في قوله تعالى : **﴿ويل للمطففين﴾** أنها في معنى الفعل أي ليلزمه الويل فلما كانت في معنى الفعل كانت مفيدة كما لو صرحت بالفعل (ابن يعيش : شرح المفصل ١ / ٨٦) .
(٤) الليل : ١٤ .
(٥) المسد : ٣
(٦) البلد : ٢٠ .
(٧) الغاشية : ٤ .
(٨) محمد الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ص ٢٨٧ :
(٩) الانشقاق : ٢٥ .
(١٠) التين : ٦ .

أنه أجر بلا حدود لأن المقام مقام مكافأة للمؤمنين الصالحين ، ولا يكافأ هؤلاء إلا بأجر عظيم كفاء ما قدموه من عمل عظيم .

ونحو ذلك قوله تعالى : ﴿إنّ الإنسانَ لَفِي خُسْر﴾[1] . قال الإمام محمد الطاهر بن عاشور : « والخسر انتقاص المال وضياع ما ينتفع به ، وتنكيره للتعظيم بقرينة المقام المؤكّد بالقسم »[2] .

ومنه قوله جل وعلا : ﴿فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾[3] . قال الزمخشري : « والتنكير في خوف وجوع لشدتهما ، يعني أطعمهم بالرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلهما ، وآمنهم من خوف عظيم ، وهو خوف أصحاب الفيل ، أو خوف التخطف في بلدهم ومسايرهم »[4] .

٥ ـ التكرار والتوالي :

وذلك حين تكرر النكرة فتفيد تكرار الفعل وتوالي حدوثه ، وتكون عندئذ حالاً كما في قوله تعالى : ﴿كلا إذا دُكَّت الأرضُ دَكًّا دكا . وجاء ربُّك والملَكُ صَفّاً صفا »[5] .

قال الزمخشري : « دكا بعد دك . . أي كرر عليها الدك حتى عادت هباء منبثا»[6] وقال : « صفا صفا : ينزل ملائكة كل سماء فيصطفون صفا بعد صف محدقين بالجن والإنس »[7] .

---

(١) العصر : ٢ .
(٢) محمد الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ص ٣٤١ .
(٣) قريش : ١٥ .
(٤) الزمخشري : الكشاف (مصر ١٣٠٧ هـ) ٢ / ٥٦٣ .
(٥) الفجر : ٢١ ، ٢٢ .
(٦) الزمخشري : الكشاف ٢ / ٥٤٣ .
(٧) السابق نفسه .

وقال الإمام محمد الطاهر بن عاشور : « **ودكا الأول مصدر مؤكد ، ودكا** الثاني تكرير لفظي يقصد منه الدلالة على تكرير المدلول وترتيبه ، أي دكا عقب دك »[1] . وقال (صفا صفا) « والتكرار لتكرير المعنى والمراد به الترتيب أي صفا وراء صف ، إذ الاصطفاف لا يكون إلا كذلك »[2] .

ثانياً : المعرفة :

١ ـ الضمير :

يعين الضمير في اللغة العربية على الإيجاز والربط المحكم بين أجزاء الجملة وله قيمة مورفيمية في تغيير المعاني النحوية ، ولكن التعبير القرآني يضيف إلى هذه الخصائص العامة للضمير خصائص أخرى تكسبه قيمة تعبيرية فنية بليغة ، ومن هذه الخصائص القرآنية ما يلي :

١ ـ حذف المعاد :

لا بدّ للضمير المتصل في اللغة العربية من معاد أو مرجع يعود إليه أو يرجع « وذلك لأنك لا تضمر الاسم إلا بعد تقدم ذكره ، ومعرفة المخاطب على من يعود ومن يعني ، أو تفسير يقوم مقام الذكر ، ولذلك استَغنَى عن الوصف »[3] .

والقرآن الكريم في استعماله للضمير يعمد في كثير من المواضع إلى حذف المعاد أو المرجع لدلالة المقام عليه ، ومن ذلك قوله جل وعز : **﴿عمّ يتساءلون . عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون﴾**[4] الضمير في قوله

---

(١) محمد الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ص ٢٦٤ .
(٢) السابق ص ٢٦٥ .
ابن يعيش : شرح المفصل ٣ / ٥٦ .
(٤) النبأ : ١ ، ٢ .

(يتساءلون) وهو واو الجماعة محذوف دل عليه المقام وهم الكفار . قال الزمخشري : (فإن قلت) قد زعمت أن الضمير في يتساءلون للكفار فما تصنع بقوله (هم فيه مختلفون) (قلت) كان فيهم من يقطع القول بانكار البعث . وفيهم من يشك ، وقيل الضمير للمسلمين والكافرين جميعاً ، وكانوا جميعاً يسألون عنه . أما المسلم فيزداد خشية واستعداداً ، وأما الكافر فليزداد استهزاء »[1] .

ومثله في حذف المعاد لدلالة المقام عليه قوله تعالى : ﴿يقولون أننا لمردودون في الحافرة﴾[2] . قال الإمام محمد الطاهر بن عاشور : « والضمير في يقولون مراد به المشركون للعلم بالذين كنى عنهم بالضمير في هذا المقام ، ومثله كثير في القرآن وفي كلام العرب »[3] .

ومن حذف المعاد أو المرجع في جزء عمّ لدلالة المقام عليه قوله تعالى :

- ﴿إنا أنذرناكم عذابا قريبا﴾[4] (الخطاب للكفار) .

- ﴿من أي شيءٍ خَلَقَه﴾[5] (الضمير المستتر في خلقه للفظ الجلالة ، ولم يتقدم) .

- ﴿وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود﴾ (الواو في يفعلون يعود على القائمين بالتعذيب ولم يتقدم ذكرهم) .

---

(١) الزمخشري : الكشاف ٢ / ٥١٧ .
(٢) النازعات : ١٠ .
(٣) الإمام محمد الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ص ١٥٠ .
(٤) النبأ : ٤٠ .
(٥) عبس : ١٧ .
(٦) البروج : ٧ .

﴿فيومئذ لا يُعَذِّبُ عذابَه أحَد﴾[1] (ضمير الغائب في عذابه عائد إلى غير مذكور يدل عليه المقام ، وهو لفظ الجلالة) .... الخ .

وقد يحذف المعاد إجمالا وتشويقاً كما في قوله تعالى : ﴿عبس وتولى أن جاءه الأعمى﴾[2] ، فقد « أبرز الخبر عن القصة في أسلوب الحديث عن غائب ، فافتتحت السورة بفعلين مستتر فيهما ضميران متحدان لم يسبق لهما معاد ليحصل من ذلك إجمال يترقب تفصيله ، لكي تتشوف نفس النبي ، عليه الصلاة والسلام إلى تعرف الخبر وصاحبه ، وليستأنس بما حواه تدرجاً فلا يفاتح بالعتاب رفقاً بجنابه وصرفاً لمَهْيَع الكلام عن الملام الى المعاتبة لتتشوف نفوس المؤمنين حين تفاتحهم السورة إلى معرفة ما يرد بعد هذا الافتتاح من العبر المستخلصة من تلك القضية »[3] .

وربما حذف المعاد لإرادة العموم كما في قوله جل وعز : ﴿رب السموات والأرض ، وما بينهما الرحمن لا يملكون منه خطابا﴾[4] ، يقول الإمام محمد الطاهر بن عاشور : « والضمير في لا يملكون عائد إلى الأرض والسموات وما بينهما باعتبار ما تشتمل عليه هذه العوالم من الموجودات العقلاء من الملائكة والإنس وما لا يعلمه إلا الله »[5] .

٢ ـ الالتفات :

قد يستعمل القرآن الكريم ضمير الغيبة ، ثم يلتفت فيستعمل ضمير المخاطب تجسيماً واهتماما ، قال تعالى : ﴿إنهم كانوا لا يرجون حسابا ، وكذبوا بآياتنا كذابا . وكل شيء أحصيناه كتابا . فذوقوا فلن نزيدكم إلا

---

(١) الفجر : ٢٥ .
(٢) عبس : ١ ، ٢ .
(٣) محمد الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ١٧٩ ـ ١٨٠ .
(٤) النبأ : ٣٧ .
(٥) محمد الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ص ١٤٣ .

عذابا﴾[1] . فقد تحدث عنهم بضمير الغيبة ، ثم التفت إليهم يهددهم ، فاتخذ لذلك ضمير الخطاب . قال الزمخشري : « ومجيئها على طريقة الالتفات شاهد على أنّ الغضب قد تبالغ »[2] .

ومنه قوله تعالى : ﴿عبس وتولى أن جاءه الأعمى . وما يُدرِيك لعله يزَّكى﴾[3] فقد عبر القرآن الكريم عن الرسول ﷺ بضمير الغيبة ، ثم التفت إليه فحدثه بضمير المخاطب لئلا يتوهم الإعراض عنه ، ولأنّ توجيه الخطاب إليه اهتمام به ونقل للكلام من مرتبة الملام إلى مرتبة العتاب الرقيق .

٣ ـ اختلاف الضمير لاختلاف الاعتبار (التضمين) :

وذلك نحو قوله تعالى : ﴿كلا إنها تذكرة . فمن شاء ذكره﴾[4] فقد استعمل ضميرين أحدهما للمؤنثة الغائبة ، والثاني للمذكر الغائب لاختلاف الاعتبار ، فقد أنث الضمير الأول ليطابق التذكرة ، وهي مؤنثه ، وذكّر الضمير الثاني ، لأنه ضمنها معنى الذكر . قال الزمخشري : « ذكّر الضمير ، لأن التذكرة في معنى الذكر »[5] .

٤ ـ ضمير الشأن :

لضمير الشأن قيمة تعبيرية خاصة في اللغة العربية ، لأنه يفيد التعظيم والتفخيم ، وهو يذكر حين يراد الاهتمام بالأمر أو الحدث ، جاء في شرح المفصّل « قال الشارح : أعلم أنهم إذا أرادوا ذكر جملة من الجمل الاسمية أو الفعلية فقد يقدمون قبلها ضميرا يكون كناية عن تلك الجملة وتكون الجملة

---

(١) النبأ : ٢٧ ـ ٣٠ .
(٢) الزمخشري : الكشاف ١ / ٥١٩ .
(٣) عبس : ١ ـ ٣ .
(٤) عبس : ١١ ـ ١٢ .
(٥) الزمخشري : الكشاف ٢/٠/ ٥٢٤ .

خبرا عن ذلك الضمير وتفسيرا له ، ويوحدون الضمير ، لأنهم يزيدون الأمر والحديث ، لأن كل جملة شأن وحديث ، ولا يفعلون ذلك إلا في مواضع التفخيم والتعظيم »[1] .

ويقول الدكتور أحمد أحمد بدوي « ومما استخدمه القرآن ضمير الشأن أو القصة ، وهو ضمير لا مرجع له تسمعه النفس فتتهيأ لسماع ما يأتي بعده ، لأنّ الأسلوب العربي لا يأتي بهذا الضمير إلا في المواطن التي يكون فيها أمر مهم ، تراد العناية به ، فيكون هذا الضمير أداة للتنبيه ، يدفع المرء إلى الإصغاء ، فإذا وردت الجملة بعده استقرت في النفس واطمأن الفؤاد »[2] .

وقد ورد ضمير الشأن مذكوراً في جزء عمّ في قوله تعالى : ﴿قل هو الله أحد﴾[3] .

٥ - إفراد الضمير إذا احتمل المعاد الإفراد وغيره :

وقد تحقق ذلك في كل المواضع التي وردت فيها (من الموصولة) وعددها ثمانية عشر موضعاً ، فمن اسم موصول عام يمكن أن يجري على المفرد والمثنى والجمع تذكيرا وتأنيثا ، ولكن القرآن الكريم حين يستخدم هذا الموصول يجعل الضمير العائد عليه مفرداً مذكراً في كل الأحوال . ومن ذلك قوله تعالى :

- ﴿لا يتكلَّمُونَ إلا مَنْ أَذِنَ له الرحمنُ﴾[4] .
- ﴿فمن شاءَ اتخذَ إلى ربِّه مأبا﴾[5] .

---

(١) ابن يعيش : شرح المفصل ٣ / ١١٤ .
(٢) د . أحمد أحمد بدوي : من بلاغة القرآن ص ١٣٤ .
(٣) الاخلاص : ١ .
(٤) النبأ : ٣٨ .
(٥) النبأ : ٣٩ .

- ﴿وبُرِّزت الجحيمُ لِمَنْ يرى﴾[1] .

- ﴿فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا . . .﴾[2] .

- ﴿إنما أنت منذرُ مَنْ يخشاها﴾[3] .

- ﴿فمن يعملْ مثقالَ ذرَّةٍ خيراً يَرَه ، ومن يعملْ مثقال ذرةٍ شراً يَرَه ﴾[4].

٦ - الإظهار في موضع الإضمار :

وذلك حين يراد الاهتمام بالأمر اهتماما خاصا ، فيعاد الإسم مرة ثانية دون ضميره لإعادة تصوره ، والتأكيد عليه ، وإقراره في النفس ، سواء ، أطال الكلام ، أم قصر . ومنه قوله تعالى :

- ﴿كلا إنّ كتاب (الأبرار) لفي عليين . وما أدراك ما عليون . كتاب مرقوم يشهده المقربون . إنَّ (الأبرار لفي نعيم ﴾[5] .

- ﴿(القارعة) ما (القارعة) وما أدراك ما (القارعة) . . . .﴾[6] .

- ﴿قل أعوذ برب (الناس) ملك (الناس) إلّه (الناس) من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور (الناس) من الجنة و(الناس)﴾[7] .

---

(١) النازعات : ٣٦ .
(٢) النازعات : ٣٧ - ٤١ .
(٣) النازعات : ٤٥ .
(٤) الزلزلة : ٧ - ٨ .
(٥) الانفطار : ١٣ .
(٦) القارعة : ١ - ٣ .
(٧) الناس : ١ - ٦ . ,

- ﴿إنا أنزلناه في (ليلة القدر) وما أدراك ما (ليلة القدر) (ليلة القدر) خير من ألف شهر﴾[1] .

على أن الدكتور محمود السعران قد عرض للضمائر في كتابه « اللغة والمجتمع » : رأي ومنهج « من حيث إظهارها للمستوى الاجتماعي للمتكلمين والمخاطبين والغائبين ثم مضى ، على أساس من هذا ، يدرس الضمائر في لغة القرآن الكريم ، وكانت أغلب استشهاداته من جزء عمّ ، ولذلك فمن المفيد أن نعرض هنا لما ذكره في هذا الصدد كما جاء في كتابه ، يقول الدكتور محمود السعران :

« وفي لغة القرآن الكريم نميز بين المواضع التي يتكلم فيها الله تعالى بإسمه من تلك التي يتحدث فيها عن نفسه بضمير الغيبة ، كما نفرد خطابه للرسول من خطابه المؤمنين ، ومن خطابه الكفار ، ومن حديثه عن أولئك جميعاً ، ونفصل خطاب المؤمنين لله ، من خطاب الكفار له ، ومن خطاب الرسول إياه وسنلاحظ في تكلم الله جل وعلا باسمه أنه يستعمل أحياناً ضمير المتكلم المفرد وأحيانا ضمير الجماعة المتكلمين ، ومن الواجب ربط كل ذلك بظروفه ، وتفسير الاختلاف في استعمال الضمير ، والاستعانة بما كتبة المفسرون وعلماء البلاغة في هذا الشأن .

« ومن تكلم الله جل وعز باسمه بضمير الجمع قوله تعالى : ﴿إنّ إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم﴾ (سورة الغاشية) ، وقوله : ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾ (سورة البلد) ، وقوله : ﴿ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين﴾ (سورة البلد) ، وفي نفس السورة ﴿والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المشأمة عليهم نار مؤصدة .

---

(١) القدر : ١ ـ ٥ .

« ومن تكلم الله عز وجل باسمه في صيغة المفرد قوله تعالى في سورة الفجر ﴿**يأيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي**﴾ . وفي سورة الليل آيات يستعمل فيها ضمير جماعة المتكلمين وفي آخرها آية يستعمل فيها ضمير المفرد المتكلم : ﴿ **فأما من أعطى واتقى . وصدق بالحسنى . فسنيسره لليسرى . وأما من بخل واستغنى . وكذب بالحسنى . فسنيسره للعسرى . وما يغني عنه ماله إذا تردى . إنّ علينا للهدى وإنّ لنا للآخرة والأولى . فأنذرتكم ناراً تلظى لا يصلاها إلا الأشقى . الذي كذب وتولى** ﴾ .

وفي سورة الأعلى يتكلم الله بضمير جماعة المتكلمين ثم يشير إلى ذاته بضمير المفرد الغائب ، لا بضمير الغائبين . ثم يعود إلى الكلام بضمير جماعة المتكلمين ﴿**سنُقْرِئُك فلا تنسى إلا ما شاء الله إنه يعلم الجهر وما يخفي ونيسرك لليسرى**﴾ .

« والله تعالى يشير إلى ذاته في القرآن الكريم مصطنعاً ضمير المفرد الغائب ومسندا الصيغ إلى المفرد الغائب ولا نجد آية من الآيات يشير فيها الله إلى ذاته بضمير جماعة الغائبين ، أو بإسناد الصيغة إلى جماعة الغائبين . ومن ذلك ما ورد في الآية السابقة ، وما نجده في هذه الآيات من سورة عبس ﴿**قُتِلَ الإنسانُ ما أكفره . من أي شيءٍ خلقه . من نطفةٍ خلقه فقدَّره . ثم السبيل يسَّره . ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره . كلا لما يقض ما أمره**﴾ . وإن كنا نلاحظ أنه بعد هذه الآيات مباشرة أخذ الله في التكلم باسمه بضمير جماعة المتكلمين ﴿ **فلينظر الإنسان إلى طعامه ، أنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا** ﴾ .

« نرى من هذا أن الله يتكلم باسمه مصطنعاً ضمير جماعة المتكلمين مرة ومصطنعاً ضمير المتكلم الفرد مرة ، ولكن التعظيم وإعلاء الشأن لم يُمَثَّلا

مرة في القرآن ولا في غير القرآن باستعمال ضمير المتكلِّمَيْن الاثنين . . .

« أما خطاب المؤمنين لله ودعاؤهم إياه فنجد القرآن يستعمل فيه ضمير المخاطب المفرد ، ومن أشهر الأمثلة على ذلك فاتحة الكتاب . . .

« وأما خطاب الله للمؤمنين وحديثه عز وجل عنهم فهما مثل خطابهم إياه لا يستعمل فيها إلا الضمائر العادية كذلك .

« وننقل الآن إلى الضمائر ، والصيغ المسندة إلى ضمائر التي يستعملها القرآن في الكلام عن العلاقة بين الله عز وجل وبين الكفار : أما خطاب الكفار لله فتستعمل فيه صيغة المفرد في الأغلب وصيغة الجمع أحياناً ، وأمثلة هذا النوع قليلة في القرآن. ومنها ﴿وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع الرسل . . .﴾ - قال : ﴿رب ارجعون﴾ .

« أما خطاب الله للكفار فأمثلته كثيرة في القرآن نكتفي منها بقوله تعالى : ﴿فذوقوا فلن نزيدكم إلا عذابا﴾ (سورة النبأ) وهذا الخطاب تستعمل فيه الضمائر والصيغ العادية .

« وحديث الكفار عن الله يمثله : ﴿وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يُضِلُّ به كثيرا وَيْهِدي به كثيراً وما يُضِلُّ به إلا الفاسقين﴾ . . .

« أما حديث الله عن الكفار فمن أمثلته : ﴿إن جهنمَ كانت مِرْصَادا للطاغين مآبا لابثين فيها أحقابا لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا . إلا حميما وغَسَّاقا . جزاء وِفَاقًا . إنهم كانوا لا يرجون حسابا . وكذبوا بآياتنا كذابا﴾ .

« ومن رواية القرآن الكريم لكلام الكفار قوله تعالى : ﴿يومَ ينظُر المرء

---

(١) د . محمود السعران : اللغة والمجتمع رأي ومنهج (بنغازي ١٩٥٨) ص ٨٨ وما بعدها .

ما قدَّمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا﴾ وقوله تعالى رواية لكلام الكفار ﴿يقولون أئنًا لمردودون في الحافرة . أئذاكنا عظاما نخرة﴾ .

« والقرآن عندما يخاطب الرسول يخاطبه بصيغة المفرد ومن ذلك : **﴿يس والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين﴾** ، **﴿والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى . وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى ألم يجدك . . .﴾** .

« ومن خطاب الله لرسوله وطلبه إليه أن يقول كلاما **﴿قل يأيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون . .﴾** الخ .

« والقرآن عندما يتحدث عن الرسول فهو يتحدث عنه بصيغة المفرد . . **﴿عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى﴾**[1] .

ويمكننا أن نستخلص من حديث الدكتور محمود السعران السابق ما يلي :

١ ـ يستخدم القرآن في حديث الله جل وعز عن نفسه ضمير الجمع ، وضمير المفرد ، وقد يجمع بين الضميرين في آية واحدة ، ويستخدم أيضاً ضمير المفرد الغائب ، ولا يستخدم مطلقاً ضمير جماعة الغائبين .

٢ ـ يستعمل القرآن الكريم في خطاب المؤمنين لله ضمير المخاطب المفرد ، ويستعمل في خطاب الله لهم الضمائر المعتادة .

٣ ـ خطاب الكفار لله يستخدم فيه ضمير المفرد المخاطب غالبا ، وصيغة الجمع أحيانا أما خطاب الله للكفار فتستخدم فيه الضمائر المعتادة .

---

(١) د . محمود السعران : اللغة والمجتمع رأي ومنهج (بنغازي ١٩٦٨) ص ٨٨ وما بعدها .

٤ ـ خطاب الله للرسول أو حديثه عنه تستخدم فيه صيغة المفرد المخاطب أو الغائب .

٥ ـ حين يروي القرآن الكريم حديث الكفار يستخدم الضمائر في حالة المتكلم .

ب ـ العلم :

للعلم في اللغة العربية أقسام متعددة باعتبارات مختلفة تجدها مبسوطة في كتب النحو وما يهمنا من هذه الأقسام هو تقسيم العلم باعتبار دلالته على معنى زائد على العلمية أو عدم دلالته ، إذ إن هذه الزيادة هي التي تجعله صالحا لان يدخل في خصائص التعبير وأهم ما يدخل في هذا التقسيم الكنية واللقب ، إذ هما يُشْعِران ـ مع دلالتهما على العَلَمية ـ بمدح أو ذم . أما اللقب فهو يشعر بمدح أو ذم مقصود بلفظ صريح[1] ، وأما الكنية فبالتعريض لا بالتصريح حين يعدل المتكلم عن ذكر الاسم الصريح إلى الكنية تعظيما أو تحقيرا ، أو حين يفهم التعظيم أو التحقير ضمنا من المضاف إليه[2] .

ولم يرد ـ في مبلغ علمي ـ لقب عربي في جزء عم ، لكن وردت الكنية مرة واحدة في قوله تعالى : ﴿تبت يدا أبي لهب وتب﴾[3] . ولعله الموضع الوحيد الذي وردت فيه الكنية في القرآن الكريم[4] .

وقد آثر التعبير القرآني العظيم أن يعبر عنه بهذا اللقب إعراضا عن ذكر اسمه تحقرا له ، ولما في المضاف إليه (لهب) من ذم ضمني ، وقد برع القرآن الكريم في استغلال هذا المضاف إليه لتهديده والهزء به في قوله جل

---

(١) عباس حسن : النحو الوافي (القاهرة ١٩٦٣) ١ / ٢١٤ .
(٢) السابق نفسه .
(٣) المسد ١ .
(٤) السيوطي : الإتقان ٢ / ١٤٤ .

وعز: ﴿سيصلى نارا ذات لهب﴾ وكأنه يحمل جزاءه معه أينما كان أو كأنَّ جزاءه سمة دائمة موسوم بها ، وتجري على كل لسان وهو مضطر إلى الإذعان لها وإجابة من يدعونه بها .

وهذا الوجه هو الذي نميل إليه من الأوجه الأربعة التي ذكرها المفسرون لعدول القرآن عن الاسم إلى الكنية في هذه الآية الكريمة . يقول القرطبي : « وإنما كناه الله بأبي لهب عند العلماء لمعان أربعة : الأول : أنه كان اسمه عبد العزى ، والعزى صنم ولم يضف الله في كتابه العبودية إلى صنم . الثاني : أنه كان بكنيته أشهر منه باسمه فصرح بها الثالث : أن الأسم أشرف من الكنية فحطه الله عز وجل عن الأشرف إلى الأنقص إذ لم يكن بد من الإخبار عنه ، ولذلك دعا الله تعالى الأنبياء بأسمائهم ولم يكْنِ عن أحد منهم ، ويدلك على شرف الاسم على الكنية أن الله تعالى يُسمَّى ولا يُكْنَى وإن كان ذلك لظهوره وبيانه ، وإستحالة نسبة الكنية إليه لتقدسه عنها . الرابع : أن الله تعالى أراد أن يحقق نسبته بأن يدخله النار فيكون أبا لها تحقيقا للنسب ، وإمضاء للفأل والطِيرَة التي اختارها لنفسه . وقد قيل : اسمه كنيته ، فكان أهله يسمونه أبا لهب لتلهب وجهه وحسنه فصرفهم الله عن أن يقولوا أبو النور وأبو الضياء الذي هو المشترك بين المحبوب والمكروه ، وأجرى على ألسنتهم أن يضيفوه إلى لهب الذي هو مخصوص بالمكروه المذموم ، وهو النار ، ثم حقق ذلك بأن جعلها مقرَّه »[1] .

على أن القرآن الكريم قد يعدل عن ذكر العلم إلى ذكر صفته[2] لنكته بلاغية ، وذلك في قوله تعالى : ﴿عَبَس وتولَّى أن جاءه (الأعمى) وما يُدريك لعله يزكى . أو يذَّكر فتنفعه الذكرى . أما (من استغنى) فأنت له

---

(١) القرطبي : الجامع لاحكام القرآن ، الجزء العشرون (القاهرة ١٩٥٠) ص ٢٣٦ .
(٢) الصفة هنا بالمعنى اللغوي لا الاصطلاحي النحوي .

تصدى . وأما (من جاءك يسعى وهو يخشى فأنت عنه تَلَهَّى﴾[1] .

يقول الإمام محمد الطاهر بن عاشور : « وطُوِيَ اسما المعرَض عنه ، والمتصدَّي له تحت وصف أولهما بالأعمى لما يستدعيه ذلك من الترقيق المستوجب إيثاره بالمواساة والكرامة ووصف ثانيهما بمن استغنى لما تقتضيه الصلة من جدارته بعدم الاكتراث به »[2]

وقد أعاد القرآن الكريم ذكر المعرَض عنه وهو عبد الله بن أم مكتوم بقوله **﴿من جاءك يسعى . . .﴾** دون ذكر اسمه الصريح لبيان حاله من السعي الحثيث إلى الرسول ، والحرص على الإيمان ، والخشية من الله أو الخشية من قلة اهتمام الرسول به ، ليستشعر الرسول الكريم مدى تقصيره بهذا الإعراض المستوجب للعتاب .

جـ ـ اسم الإشارة :

يستعمل اسم الإشارة في جزء عمّ للإشارة إلى المحسات والمعنويات ، فمن الإشارة إلى المحسات قوله تعالى : **﴿لا أقسم بهذا البلد . وأنت حِلٌ بهذا البلد﴾**[3] ، **﴿وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون﴾**[4] ، ومن الإشارة إلى المعنويات قوله تعالى : **﴿ذلك الفوز الكبير﴾**[5] .

ولم ترد الإشارة للقريب في جزء عمّ دون هاء التنبيه ، ولم ترد الإشارة للبعيد دون لام البعد .

ولم تقتصر الإشارة في جزء عم على الإشارة المجردة إلى الاشياء

---

(1) عبس ١ ـ ١٠ .
(2) محمد الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ص ١٨٠ .
(3) البلد ١ ـ ٢ .
(4) المطففين ٣٢ .
(5) البروج ١١ .

والأشخاص بل جمعت إلى ذلك معاني أخر اكتسبتها من المقام . فالإشارة في قوله جل وعز : ﴿قالو تلك إذاً كرة خاسرة﴾[1] تفيد استبعاد حصول البعث ، وقد اختار القرآن الكريم لذلك اسم إشارة للبعيد فيه لام البعد ليعين على تحقيق هذا الاستبعاد من جانب المنكرين ، وهو أمر لا يتحقق باستخدام اسم الإشارة للقريب .

وقد يجمع القرآن الكريم بين الإشارة والتهكم في قوله جل وعز ﴿ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون﴾[2] فقد استخدم القرآن الكريم اسم إشارة للبعيد ليفيد الإعراض عنهم وابتعادهم عن مصدر الهداية ، وعدل عن استخدام ضميرهم فلم يقل ألا يظنون تهكما بهم وتقليلا من شأنهم ، مع ما يستتبع ذلك من وعيد بالعقاب الأليم .

وربما دلت الإشارة على التقريع والتبكيت في نحو قوله تعالى : ﴿ثم إنهم لصالوا الجحيم﴾ ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون »[3] . فالعذاب الذي أنكروا وقوعه ماثل أمامهم ، والإشارة إليه زيادة في التنكيل بهم ، « فإنَّ أشد شيءٍ على الإنسان إذا أصابه مكروه أن يذكر ـ وهو يتألم له ـ بأن وسائل النجاة من مصابه كانت بين يديه فأهملها وأسباب التقصي عنه كانت في مُكْنَتِه فأغفلها »[4] .

وقد تأتي الإشارة إلى متنافرين بطريقة واحدة ، ولكنك لا تعدم مع ذلك نكتة تعبيرية ومن ذلك قوله تعالى : ﴿إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها (أولئك) هم شر البرية﴾[5] فقد أشير

---

(١) النازعات ١٢ .

(٢) المطففين ٤ .

(٣) المطففين ١٧ .

(٤) محمد عبده : تفسير جزء عم ص ٣٥ .

(٥) البينة ٦ .

إلى الكافرين بإسم الإشارة (أولئك) نفورا منهم وإيحاء ببعدهم من الهداية ، وأشير إلى المؤمنين باسم الإشارة ذاته (أولئك) في قوله تعالى : **﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات (أولئك) هم خير البرية﴾**[1] للدلالة على رفعة منزلتهم وعلوهم في معراج الهدى والخير ، ذلك بعد حسي مكروه وهذا بعد معنوي مرغوب .

د ـ الاسم الموصول :

يستخدم القرآن الكريم الاسم الموصول في كثير من المواضع حين تكون صلته هي مناط الحكم وموضع الاهتمام ، ومن هذه المواضع قوله تعالى : **﴿فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون . الذين هم يراءون ويمنعون الماعون﴾**[2] فسهو المصلين عن صلاتهم ، ومراءاتهم ، ومنعهم الماعون كل أولئك سبب الوعيد بالويل والثبور .

ونظير ذلك قوله تعالى : **﴿ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون﴾**[3] فتطفيف الكيل وإخساره عند البيع ، واستيفاؤه عند الشراء هما مناط الحكم عليهم وتهديدهم بالويل الذي ينتظرهم يوم القيامة .

ومن ذكر الموصول حين تكون صلته موضع الاهتمام قوله جل وعز : **﴿عمّ يتسألون عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون﴾** فموضوع الاهتمام هنا هو اختلافهم في أمر هذا النبأ العظيم وتساؤلهم عنه . وقل مثل ذلك في قوله تعالى :

---

(١) البينة ٧ .

(٢) الماعون : ٤ ـ ٧ .

(٣) المطففين : ١ ـ ٣ .

- ﴿ويل لكل همزة لمزة الذي جمع مالا وعدده . يحسَبُ أنَّ ماله أخلده﴾[1] .

- ﴿فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾[2] .

وقد يتعدد الموصول ، وتتعدد تبعاً لذلك الصلات حين يراد الاهتمام بكل صلة ، واستقلالها بأمر مستحق للبيان والإظهار ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ سبح اسم ربك الأعلى الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى والذي أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى﴾[3] . فقد « كرر اسم الموصول في قوله والذي قدر وقوله والذي أخرج المرعى ، مع أن صاحب الصلة واحد . فلم يقل الذي خلق فسوى ، وقدر فهدى ، وأخرج المرعى فجعله غثاء أحوى للاهتمام بمدلول كل صلة من الصلات الثلاث ، واستقلال كل واحدة منها في الدلالة على استحقاق التسبيح ، وعلى نوع الإيجاد فمقام البيان اقتضى الإطناب »[4] .

على أن الموصول في جزء عم قد يرد لمعان أخر منها ارادة الجنس كقوله عز وجل : ﴿أرأيت الذي يكذب بالدّين﴾ فالذي هنا لا تدل على شخص معين ، وإنما يراد بها جنس المكذبين بالدين . قال الإمام محمد الطاهر بن عاشور : « والأظهر أنه مراد به الجنس أي جنس من يكون حاله هذا الوصف وهو التكذيب بالدين »[5] .

ومن هذه المعاني إرادة التشويق لمعرفة الخبر وذلك بإطالة الصلة في

---

(١) الهمزة : ١ ـ ٣ .

(٢) قريش : ٣ ـ ٤ .

(٣) الاعلى : ٢ ـ ٥ .

(٤) محمد الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ص ٢٣٨ ـ ٢٣٩ .

(٥) السابق ص ٣٥٥ .

نحو قوله تعالى : ﴿إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق﴾[1] ، وقوله : ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾[2] وقوله : ﴿فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى﴾[3] .

ومن خصائص التعبير بالاسم الموصول قدرته على إخفاء إسم المذنب إما تحقيرا له أو تعريضا به . وقد جاء من ذلك في جزء عم قوله تعالى : ﴿أرأيت الذي ينهي عبدا إذ صلى﴾[4] قال القرطبي : أرأيت الذي ينهي : وهو أبو جهل (عبدا) وهو محمد ﷺ ، فإن أبا جهل قال : إن رأيت محمدا يصلي لأطأن عنقه . قال أبو هريرة فأنزل الله هذه الآيات تعجبا منه»[5] . وقد أعرض القرآن عن ذكره باسمه ، وآثر التعبير عنه بالموصول تعريضا ، وتحقيراً من شأنه » .

وقد يضع القرآن اسم موصولٍ موضع آخر كما وضع « ما » موضع « مَنْ » في قوله تعالى : ﴿ووالد وما ولد﴾[6] فأكثر استعمالِ « ما » لغير العاقل ، واكثرُ استعمالِ « مَنْ » للعاقل ، وقد وضع « ما » موضع « من » مراعاة لحال الوليد الذي لم ينضج عقله ، ولم تتفتح ملكاته فشأنه في هذه السن الصغيرة شأن ما لا يعقل في انعدام قدرته على التمييز أوْ التفكير ، فالتعبير بما هنا أكثر دقة ومناسبة لموضوع الحديث من (من) وفي هذا ما فيه

---

(١) البروج : ١ .
(٢) البروج :١١ .
(٣) الليل ٥ - ١٠ .
(٤) العلق ٩ - ١٠ .
(٥) القرطبي : الجامع لاحكام القرآن ٢٠ / ١٢٤ .
(٦) البلد ٣ .

من البلاغة الفريدة . هذا ما نراه ، وللمفسرين فيه أقوال نجدها مذكورة عند أبي حيان في البحر المحيط[1] .

هـ المعرف بأل :

(ال) التي تفيد التعريف في العربية نوعان : عهدية وجنسية ، والعهد في النوع الأول عهد ذكرى أو ذهني أو حضوري ، والجنس في الثاني إمَّا جنس شامل لكل الأفراد على الحقيقة بحيث يمكن أن يحل محله لفظ (كل) وإما جنس شامل على سبيل المبالغة والادعاء في صفة ظاهرة فيه ، وإمَّا جنس قصد به بيان الحقيقة أو الماهية[2] .

فإذا نظرنا في استخدام القرآن الكريم ـ في جزء عم ـ للمعرف بأل وجدنا (أل) بنوعيها مستخدمة فيه بأغلب ما يشتمل عليه النوعان استخداما فنيا بارعا . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ **يسألــونك عن الساعة أيان مرساها**﴾ [3] فال في الساعة للعهد الذكرى وهي لم نذكر في هذه الجملة ولكنها بمنزلة المذكور ، بدليل قوله جل وعز : ﴿**يسألونك**﴾ فسؤالهم عنها يقتضي ذكرها ، واستغنى بما يحمله السؤال من معنى الذكر عن الذكر ذاته ، وليس وراء ذلك براعة تعبير ولا روعة بيان .

ويستخدم القرآن الكريم في جزء عمّ (أل) التي للعهد الذهني في قوله سبحانه : ﴿**لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة**﴾ [4] فـأل في (البينة) للعهد الذهني ، لأنهم كانوا يترقبون بينه لا ينفكون عن الكفر أو تأتيهم . على أنهم لم يكونوا ينتظرون بينه محددة بل

---

(١) ابو حيان : البحر المحيط ٨ / ٤٧٥ .
(٢) عباس حسن : النحو الوافي ١ / ٣٠٣ وما بعدها .
(٣) النازعات ٤٢ .
(٤) البينة ١ .

« كانوا يترقبون بينة تعرف بأوصافها عند مجيئها »[1] ومن ثم عمد القرآن الكريم إلى استخدام (أل) التي للعهد الذهني لتنطبق على ما يدور في أذهانهم من تعدد احتمالاتها ، ولتقطعهم عن العناد والمكابرة إن هو ذكر بينه معينة ، فإنهم لكفرهم وعنادهم سوف يقولون : ليست هي البينة التي نقصد .

ورب قائل يقول : إن البينة محددة عند هؤلاء بالرسول كما في قوله تعالى : ﴿حتى تأتيهم البينة رسول من الله يتلو صحفا مطهرة﴾ والحق أن ذلك ـ في أحسن الأقوال ـ غير مراد ، إذ إن « جملة » رسول من الله « مستأنفة استئنافا بيانيا ناشئا عن سياق التهكم ، مع ما في البينة من الإبهام ، فإن ذلك يثير سؤال من يسأل : ما هذه البينة ؟ فأجيب بأنها رسول من الله ، فأسلوب الكلام انتقال من التوبيخ إلى التبيين والتعليم كأنه قد قيل : أتدرون ما هي البينة التي تلوكون لفظها ولا تعلمون كنهها ؟ هي رسول من الله . أي ليست البينة إلا ذلك ، لا التي تتوهمون »[2] .

ونجد في جزء عم (أل) التي تستغرق أفراد الجنس جميعاً بحيث يمكن أن تحل (كل) محلها في نحو قوله تعالى : ﴿إن الإنسانَ لفي خُسْر﴾[3] ، وقوله : ﴿إن مع العسر يسرا﴾[4] . وكذلك تجد التعبير القرآني يستخدم أل الجنسية استخداما متميزا لا يستغرق أفراد الجنس كله على سبيل الحقيقة ، ولا على سبيل المبالغة في صفة من صفاته ، ولا لقصد بيان حقيقته . ومن ذلك قوله جل وعز : ﴿قتل أصحاب الأخدود﴾[5] فأل في (الأخدود) لا تستغرق أفراد الجنس كله ، وليس المقصود بالأخدود أخدودا

---

(١) محمد الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ص ٣١٩

(٢) السابق نفسه .

(٣) العصر ٢

(٤) الشرح ٦ .

(٥) البروج ٤ .

واحدا « فإنها كانت أخاديدَ كثيرة »[1] وليس فيها قصد لبيان ماهية الأخدود أو حقيقته وإنما هل (أل) جنسية تصدق على متعدد دون استغراق الجنس ، وهو استخدام يكاد يكون جديدا في اللغة العربية فيما أعلم .

ومن استخدام القرآن الكريم لأل الجنسية التي تفيد المبالغة وادعاء الشمول بمصطلح النحويين أو القصر بمصطلح البلاغيين قوله تعالى : ﴿**ذلك اليوم الحق**﴾[2] ، وقوله سبحانه : ﴿**ذلك الفوز الكبير**﴾ فأل في « اليوم » و« الفوز » تفيد هذه المبالغة والدلالة على الكمال أي ذلك هو اليوم الذي لا يوم مثله ، وذلك هو الفوز العظيم الذي لا نظير له .

و ـ المضاف إلى معرفة :

قد يضاف الاسم النكرة إلى اسم معرفة في جزء عمّ لأغراض أخرى غير مجرد التعريف ومن هذه الأغراض : التعظيم ، وذلك حين يضاف الشيء إلى لفظ الجلالة في نحو قوله تعالى : ﴿**فقال لهم رسولُ اللهِ ناقةَ اللهِ وسُقْيَاها**﴾[3] فإضافة كل من الرسول والناقة إلى لفظ الجلالة للتعظيم .

ومن ذلك التهويل في نحو قوله تعالى : ﴿**فلهم عذاب جهنم ، ولهم عذاب الحريق**﴾[4] فإضافة العذاب إلى جهنم وإلى الحريق مقصود بها هذا التهويل ، ومثله إضافة النار إلى جهنم في قوله تعالى : ﴿**إن الذين كفروا من**

---

(1) قال الإمام النسفي : « الاخدود وهو جمع خد أي شق عظيم في الأرض » (تفسير القرآن الجليل المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل المجلد الثالث (بولاق بمصر ١٩٤٢) ص ٦٥٨ وفي اللسان : « والأخدود الحفرة تحفرها في الأرض مستطيلة ، والجمع أخاديد . . وقيل كان أصحاب الأخدود خدوا في الأرض (أخاديد) واوقدوا عليها النيران حتى حميت ثم عرضوا الكفر على الناس فمن امتنع ألقوه فيها حتى يحترق ، اللسان مادة (خدد) .

(2) النبأ ٣٩ .

(3) الشمس ١٣ .

(4) البروج ١٠ .

أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها﴾[1] .

ومن ذلك البيان وزيادة التأكيد في نحو قوله تعالى : **﴿كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم . ثم لترونها عين اليقين ﴾**[2] فإضافة علم إلى اليقين لبيان نوعه ، وإضافة العين إلى اليقين للمبالغة في التأكيد فالأصل اليقين عينه ، ثم قدم لفظ التوكيد لزيادة المبالغة ونحو منه قوله تعالى : **﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾**[3] ، ثم رددناه أسفل سافلين[4] فإضافة أحكم إلى الحاكمين ، وأسفل إلى السافلين للمبالغة والتقدير كل من حكم وأسفل كل من سفل [5] .

ومنه أيضاً الإيناس : كالإضافة في قوله : **﴿واهديك إلى ربك فتخشى﴾**[6] ، حيث أضاف الرب إلى كاف الخطاب « إلطافاً في الدعوة إلى التوحيد ، واستنزالا لطائر نفور فرعون ، لأنه لو قال : وأهديك إلى الله لنفر ، لأنه كان يعبد آلهة باطلة ، فإذا قال له إلى ربك ، وقد كان فرعون يعلم أن له ربا ، طمع في أن يهديه موسى إلى شيء من معرفة آلهته ، فأصغى إليه حتى إذا اسمع قوله وبرهانه داخل الإيمان نفسه »[7] .

وقد ترد الإضافة في جزء عم لأدنى ملابسة كما في قوله تعالى : **﴿قلوب يومئذ واجفة أبصارها خاشعة﴾**[8] فقد أضاف الابصار الى ضمير

---

(١) البينة ٦ .
(٢) التكاثر ٥ ـ ٧ .
(٣) التين ٨ .
(٤) التين ٥ .
(٥) محمد الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ص ٣٠٢ .
(٦) النازعات ١٩ .
(٧) محمد الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ص ١٥٤ ـ ١٥٥ .
(٨) النازعات ٨ ـ ٩ .

القلوب لأدنى ملابسة ، والمراد أصحاب القلوب[1] .

ومثله قوله تعالى : ﴿وذلك دين القيمة﴾[2] فاضافة دين إلى القيمة ، لأدنى ملابسة والمراد دين السبيل القيمة .

ونحو منه قوله تعالى : ﴿كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾[3] فأضاف الضحا إلى ضمير العشية ، والمراد ضحا اليوم . قال الزمخشري : (فإن قلت) كيف صحت اضافة الضحا إلى العشية (قلت) لما بينهما من الملابسة لاجتماعهما في نهار واحد (فإن قلت) هلاقيل : إلا عشية أو ضحا وما فائدة الإضافة ؟ قلت : الدلالة على أن مدة لبثهم كأنها لم تبلغ يوما كاملا ، ولكن ساعة من عشيته أو ضحاه ، فلما ترك اليوم أضافهِ إلى عشية فهو كقوله : لم يلبثوا إلا ساعة من نهار »[4] .

ثالثاً ـ الصيغ المركبة :

البحث العربي القديم لم يعرف صيغا مركبة في الصرف العربي مع أن الصيغ المركبة « شاعت في الاستعمال ، ورددتها ألسنة المتكلمين ، وحفظتها النصوص التي انحدرت الينا عنهم أمثال :

١ ـ قد فعل ٢ ـ كان قد فعل . ٣ ـ كان فعل .

ومر النحاة بها في عجل ، ولم يطيلوا الوقوف عندها أو يلاحظوا جدواها أو يلتفتوا إلى ما كانت العربية ترمي إليه من استحداث مثل هذه الابنية الزمنية ولم يدركوا ما كان بين صيغة (فعل) وما اتصل بها في الاستعمال من تلازم

---

(١) محمد الطاهر بن عاشور : التحرير والتوير ص ١٥٠ .
(٢) البينة ٥ .
(٣) النازعات ٤٦ .
(٤) الزمخشري : الكشاف ٢ / ٥٢٣ .

جعل من الصيغة وسابقتها مركبا بمنزلة الكلمة الواحدة ذات الدلالة الواحدة ، فإذا مر بهم مثل قول المتنبي :

قد كانَ شَاهدَ دَفْنِي قبلَ قولهم جماعةٌ ، ثم ماتُوا قبلَ مَنْ دَفَنُوا

ظنوا أن في قوله (كان شاهد) فعلين مستقلا أحدهما عن الآخر ، وربما ذهبوا إلى تحميل هذا المركب ما لا يحتمل ، وربما تناولوا الجزء الأول (كان) كما يتناولونها بالدرس حين يعرضون لنواسخ أحكام المبتدأ والخبر ، وربما سمحوا قليلا فذهبوا إلى زيادة كان توكيدا وتقريرا لدلالة (فعل) على الزمان الماضي ، ولم يلحظوا أثر الاستعمال في تلازمها وجعلها مركبا له دلالة واحدة ويعبر جزآه معا عن وقوع الحدث ، وهو هنا (المشاهدة) في الماضي البعيد »[1] .

وهذه الصيغ المركبة تعد - في نظر بعض المشتغلين باللغات السامية - من أهم ما يميز العربية عن أخواتها الساميات ، لأنه يعطي أبنية الفعل تخصيصا وتنويعاً أكثر بكثير مما في أية لغة من اللغات السامية[2] .

وقد نبه عدد من الباحثين المحدثين إلى أن الصيغ المركبة من نحو كان فعل وكان قد فعل ، وكان يفعل موجودة في العربية بكثرة ، ووقعت في كثير من النصوص الموثوق بصحتها وفصاحتها ، فيذكر الأستاذ حامد عبد القادر في مقال له عن معاني الماضي في القرآن الكريم أن الماضي الاستمراري في العربية يتركب من جزأين : الأول ماضي فعل الكينونة ، والثاني المضارع الدال على الفعل الأساسي المراد التعبير عنه ، ويجب فيه أن يتحد المسند إليه في الفعلين من حيث العدد والنوع والشخص .

---

(١) د . مهدي المخزومي : في النحو العربي : نقد وتوجيه ص ١٤٨ - ١٤٩

(٢) برجشتراسر : التطور النحوي (القاهرة ١٩٢٩) ص ٥٧ .

ومن شواهده على ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿**والله أعلم بما كانوا يكتمون**﴾ ﴿**ذلك بما عصوا (وكانوا يعتدون)**﴾ ، ﴿**(كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما (كانوا يفعلون)**﴾ ، ﴿**قل أبالله وآياته (كنتم تستهزئون)**﴾[1] .

ويرى الأستاذ الجليل أن ثمة صيغة للماضي البعيد تتركب من ماضي فعل الكينونة وهو كان والفعل المراد التعبير عنه في صيغة الماضي ، ومن شواهده على ذلك في القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿**وحملناه على ذاتِ ألواحٍ ودَسُرٍ تَجْرِي بأعيننا جزاءً لمن (كان كُفِر)**﴾[2].

كما يرى أن القرآن الكريم كثيرا ما يستعمل للدلالة على هذا المعنى ، الماضي المؤكد متبوعا بالظرف قبل أو من قبل ، وقد يجمع بين الأمرين فيأتي بصيغة الماضي البعيد متبوعة بالظرف مجروراً بمن كما في قوله تعالى : ﴿**ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولُّون الأدبار**﴾ ، وقوله : ﴿**أو لم تكونوا أقسمتم من قبلُ ما لكم من زوال**﴾ إذ إن المضارع المنفي بلم بمثابة الماضي المنفي بما »[3] .

وذكر الدكتور مهدي المخزومي أن الصيغ (كان فعل ، كان قد فعل ، قد كان فعل) وما على مثالهن تستعمل للتعبير عن وقوع حدث في زمان بعيد ، وأن صيغة (كان يفعل) وما على مثالها تستعمل للتعبير عن استمرار الحدث في فترة من الزمان الماضي[4] .

---

(١) حامد عبد القادر : معاني الماضي في القرآن الكريم (مجلة مجمع اللغة العربية حـ ١٠ سنة ١٩٥٨) ص ٦٧ وما بعدها .
(٢) حامد عبد القادر : معاني الماضي في القرآن الكريم (مجلة مجمع اللغة العربية حـ ١٠ سنة ١٩٥٨) ص ٦٩ .
(٣) المرجع السابق .
(٤) د . مهدي المخزومي : في النحو العربي : نقد وتوجيه ص ١٥٦ .

كما يرى الدكتور المخزومي أن مثل هذه الدلالة تتحقق أيضاً مع (أمسى ، وبات ، وأصبح ، وظل) بدلاً من كان[1] .

ويرى أستاذنا الدكتور حسن عون أن « التركيب ـ كان فعل ـ سائغ في اللغة وموجود بكثرة في نصوصها على ألسنة أئمة بارزين في الميدان اللغوي ، ومتقدمين في العصور التاريخية »[2] .

ويمكننا أن نقرر بعد هذا أن الصيغ المركبة ينبغي أن تناقش ضمن أبواب الصرف ، لأن هذه الصيغ المركبة من كان ـ أو إحدى أخواتها ـ والفعل تدل بتركيبها على معنى لا يتحقق « بكان » وحدها أو بالفعل وحده ، ومن هذه الوجهة يجوز فيما نرى أن تناقش ضمن مسائل الصرف وصيغه . أما الأحكام النحوية لكان وأخواتها وأنواع خبرها فمكانها كتب النحو .

وقد بحثت في جزء عمّ عن الصيغ المركبة فلم أجد فيه إلا صيغة الماضي الاستمراري (كان يفعل) في خمسة مواضع جاء المضارع مثبتاً في أربعة منها ، ومنفياً بـ (لا) في موضع واحد هو قوله تعالى : ﴿**إنهم (كانوا لا يرجون) حسابا**﴾[3] .

أما سائر المواضع المثبتة فهي :

- ﴿**كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسِبون**﴾[4] .
- ﴿**ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون**﴾[5] .

---

(١) السابق نفسه .

(٢) د حسن عون : عن الأساليب التعبيرية : كان + الماضي بدون قد (مقال بمجلة مجمع اللغة العربية جـ ٢٨ نوفمبر ١٩٧١) ص ١٢٢ .

(٣) النبأ : ٢٧ :

(٤) المطففين : ١٤ .

(٥) المطففين : ١٧ .

- ﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون﴾[1] .

- ﴿هل ثُوِّبَ الكفارُ ما كانوا يفعلون﴾[2] .

والناظر في هذه المواضع كلها يجد معنى الاستمرار في هذه الصيغة المركبة ، مقصوداً قصداً فنياً لا سبيل إلى إدراك كنهه أو قيمته التعبيرية إلا بالتنبيه إلى المعنى الذي تدل عليه الصيغة المركبة بجزأيها ، فنفي رجاء الكافرين الحساب على سبيل الاستمرار بيان لفظاعة جرمهم وسدورهم في غيهم لا يرعوون عنه ، ولا تحدثهم أنفسهم به ساعة من ليل أو نهار .

ومثل هذا متحقق في قوله جل وعز : ﴿ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون﴾ فتكذيبهم دائم مجدد لا ينقطع ، وهم بذلك يستحقون أشد العقاب وأوجعه .

وفي قوله عز وجل : ﴿كلّا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ معنى استمرار اكتساب الذنب في الماضي وتجدد فعله حتى ران على قلوبهم وركبها فلم تبق لهم منافذ للفهم ، ولا سبل للإيمان ، فكان جزاؤهم ان حجبوا عن ربهم وطردوا من باب رحمته . يقول الإمام محمد الطاهر بن عاشور : « والتعبير بفعل الكون في قوله : ما كانوا يكسبون دون أن يقال ما كسبوا ليدل على أن الذي ران على قلوبهم هو شيء استقر كسبهم إياه من زمن قديم ، والتعبير بالمضارع في قوله : « يكسبون » للدلالة على تكرر كسبه ومعاودته ، فيحصل من اجتماع معنى الاستقرار والتكرر أن كسبهم إياه متكاثر ، وذلك يقتضي أنه قد صار سجيه وملكة لهم بحيث يتعسر إقلاعهم عنه ، وإذا كان كذلك كان حائلاً دون قلوبهم عن العلم بأن آيات الله ليست بأساطير الأولين »[3] .

---

(١) المطففين : ٢٩ .

(٢) المطففين : ٣٦ .

(٣) محمد الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ص ٢٠٤ ـ ٢٠٥ .

رابعاً ـ إحلال صيغ محل أخرى :

١ ـ وضع المشتق موضع الجامد :

في جزء عمّ تقع على الجامد بنوعيه ، وعلى المشتق بأنواعه ، وليس من وكدنا أن نتتبع كل الجوامد والمشتقات في هذا الجزء من القرآن الكريم ، ولكنا نختار منها ما هو بسبب من الاستخدام الفني وخصائص التعبير .

ومن ذلك أن التعبير القرآني البليغ قد يلجأ إلى التعبير عن اسم جامد بآخر مشتق لهدف فني أو بلاغي ، فيعدل عن ذكر اسم جامد من أسماء الذوات ، لأن له تصورا محددا في الذهن ، ويذكر اسما مشتقا يشتمل على صفة من صفات هذا الاسم الجامد ، ومن ثمّ تتعدد الاحتمالات الذهنية لهذا الاسم الجامد الذي ينطبق عليه هذا الوصف المتضمن في المشتق ، وهذا التعدد في الاحتمال يكسب التعبير ثراء وغنى ، وينأى به عن التقريرية المباشرة التي لا يحتاج الإنسان معها إلى أعمال فكر أو إنعام نظر . قال عز من قائل : ﴿والنازعاتِ غَرْقاً . والناشطات نشطا . والسابحات سبحا . فالسابقات سبقا . فالمدبرات أمرا﴾[1] ، فأنت ترى القرآن الكريم قد عدل عن ذكر الموصوفات الجوامد ، وأقام المشتقات مُقَامها فكثرت الاحتمالات ، وتعددت التفسيرات عند كبار المفسرين ممن لهم بصر باللغة ، وإدراك لأسرارها . جاء في البحر المحيط لأبي حيان : « لما كانت الموصوفات المقسم بها محذوفات ، وأقيمت صفاتها مقامها ، وكان لهذه الصفات تعلقات مختلفة اختلفوا في المراد بها : فقال عبد الله بن عباس : النازعات الملائكة تنزع نفوس بني آدم . . . وقال الحسن ، وقتادة ، وأبو عبيدة ، وابن كيسان والأخفش : هي النجوم تنزع من أفق إلى أفق . وقال السُّدّي

(١) النازعات : ١ ـ ٥ .

وجماعة : تنزع بالموت إلى ربها . . وقال السّدّى أيضاً : النفوس تحن إلى أوطانها ، وتنزع إلى مذاهبها ، ولها نزع عند الموت . وقال عطاء وعكرمة : القسيّ أنفسها تنزع بالسهام . وقال عطاء أيضاً : الجماعات النازعات بالقسيّ وغيرها . . وقال مجاهد : المنايا تنزع النفوس ، وقيل النازعات الوحش تنزع إلى الكلأ حكاه يحيي بن سلام . وقيل الغزاة التي تنزع في أعنتها نزعاً تغرق فيه الأعنة لطول أعناقها ، لأنها عِرَاب . . . .

الناشطات : قال ابن عباس ومجاهد : الملائكة تنشط النفوس عند الموت أي تحلها ، وتنشط بأمر الله إلى حيث كان . وقال ابن عباس أيضاً وقتادة والحسن والأخفش النجوم تنشط من أفق إلى أفق تذهب وتسير بسرعة . وقال مجاهد أيضاً المنايا وقال عطاء : البقر الوحشية وما جرى مجراها من الحيوان الذي ينشط من قطر إلى قطر . وقال ابن عباس أيضاً : النفوس المؤمنة تنشط عند الموت للخروج وقيل التي تنشط للازهاق .

والسابحات : قال علي ومجاهد : الملائكة تنصرف في الآفاق بأمر الله تجيء وتذهب . وقال قتادة والحسن : النجوم تسبح في الأفلاك ، وقال أبو روق : الشمس والقمر والليل والنهار . وقال عطاء وجماعة : الخيل . يقال للفرس سابح . وقيل السحاب لأنها كالعائمة في الهواء . وقيل الحيتان دواب البحر فما دونها . وقال عطاء أيضاً السفن . وقال مجاهد أيضاً : المنايا تسبح في نفوس الحيوان .

فالسابقات : قال مجاهد : الملائكة سبقت بني آدم بالخبر والعمل الصالح . وقاله أبو روق . وقال ابن مسعود : أنفس المؤمنين تسبق إلى الملائكة الذين يقبضونها ، وقد عاينت السرور شوقاً إلى لقاء الله تعالى . وقال عطاء : الخيل . وقيل النجوم . وقيل المنايا تسْبِق الآمال .

فالمدبرات : قال ابن عطية : لا أحفظ خلافا أنها الملائكة . ومعناه

أنها التي تدبر الأمور التي سخرها الله تعالى وصرفها فيها كالرياح والسحاب ، وسائر المخلوقات . انتهى . وقيل الملائكة الموكلون بالأحوال . . وقيل تدبيرها نزولها بالحلال والحرام . وقال معاذ هي الكواكب السبعة ، وإضافة التدبير إليها مجاز يظهر تقلب الأحوال عند قرانها وتربيعها وتسديسها وغير ذلك »[1] .

وواضح أنّ الأقوال في تفسيرها تعددت واختلفت ، وانقسمت قسمين : قسم يفسرها تفسيرا دينيا ، وقسم آخر يفسرها تفسيرا دنيوياً إن جاز التعبير .

فالنازعات فيها سبعة أقوال : الملائكة ـ النجوم ـ النفوس ـ الجماعات ـ النازعات بالقسى ـ المنايا ـ الوحش ـ الخيل الغزاة .

والناشطات فيها خمسة أقوال : الملائكة ـ النجوم ـ المنايا ـ البقر الوحشية وما جرى مجراها ـ النفوس .

والسابحات فيها ثمانية أقوال : الملائكة ـ النجوم ـ الشمس والقمر والليل والنهار ـ الخيل ـ الحساب ـ دواب البحر ـ السفن ـ المنايا .

والسابقات فيها ثلاثة أقوال : الملائكة على الإطلاق ـ الملائكة الموكلون بالأحوال ـ الكواكب السبعة .

والتعبير بالمشتق عن الجامد هو ـ في رأينا ـ الذي جلب هذا التعدد والاختلاف في التفسير ، وهو قصد مقصود عمد إليه القرآن الكريم تحقيقا لهذا الغموض الفني الذي يوقظ الذهن ، ويقتضي وعيا وانتباهاً ومشاركة من القارىء أو السامع لتتم له المتعة الفنية من اكتشاف المعنى المراد أو ما يقترب من المعنى المراد .

---

(١) أبو حيان : البحر المحيط ٨ / ٤١٩ .

وربّ قائل يقول : إن هذا التعدد والاختلاف في التفسير جاء من مادة الألفاظ ذاتها (ن ز ع - ن ش ط - س ب ح - س ب ق - د ب ر) ولم يأت من وضع المشتق موضع الجامد ، ونحن نقول إن القرآن الكريم لو كان صرح بالموصوفات الجوامد لما تعددت التفسيرات ولتحدد المعنى المراد من هذه المشتقات .

والألفاظ السابقة بعدُ معارف في عُرف النحاة ، والمعرفة عندهم تدل على معين ومع ذلك احتملت كل هذه التفسيرات ، فماذا تكون الحال إذا جمعت اللفظة بين الاشتقاق والتنكير ؟ إننا نتوقع عندئذ أن تكثر الاحتمالات الذهنية في تفسير معنى اللفظة كثرة مفرطة . وهذا مصداق ما نقول : قال تعالى : ﴿والسماء ذات البروج واليوم الموعود (وشاهِدٍ ومَشْهُود)﴾[1] .

فماذا قال العلماء في تفسير قوله تعالى : ﴿وشاهد ومشهود﴾ يقول أبو حيان : « وقد اختلفت أقوال المفسرين في تعيينهما ، عن ابن عباس : الشاهد الله تعالى ، وعنه وعن الحسن بن علي ، وعكرمة : الرسول ﷺ . وعن مجاهد وعكرمة وعطاء بن يسار : آدم عليه السلام وذريته . وعن ابن عباس أيضاً والحسن : الشاهد يوم عرفة ويوم الجمعة . وفي كل قول منها : المشهود يوم القيامة . وعن علي وابن عباس وأبي هريرة والحسن وابن المسيب وقتادة : وشاهد : يوم الجمعة ، وعن ابن المسيب يوم التروية . وعن علي أيضاً يوم القيامة . وعن النخعي يوم الأضحى . و« مشهود » يوم النحر . وعن جابر يوم الجمعة . ومشهود الناس ، وعن محمد بن كعب : آدم ، ومشهود الله تعالى ، وعن ابن جبير عكس هذا . وعن أبي مالك : عيسى ومشهود : أمته ، وعن علي : يوم عرفة ، ومشهود : يوم النحر ، وعن

---

(١) البروج : ١ - ٣ .

الترمذي الحكيم : الحفظة ، ومشهود عليهم : الناس . وعن عبد العزيز بن يحيي : محمد ﷺ ، ومشهود عليه أمته . وعنه : الأنبياء : ومشهود أممهم . وعن ابن جبير ومقاتل : الجوارح يوم القيامة ، ومشهود أصحابها . وقيل : هما يوم الاثنين ويوم الجمعة . وقيل الملائكة المتعاقبون وقرآن الفجر . وقيل النجم ، والليل والنهار . وقيل : الله والملائكة وأولو العلم ، ومشهود به الوحدانية ، « وإن الدين عند الله الإسلام » . وقيل مخلوقاته تعالى ، ومشهود به وحدانيته . وقيل : هما الحجر الأسود والحجيج . وقيل الليالي والأيام وبنو آدم . وقيل الأنبياء ومحمد ﷺ . وهذه أقوال سبعة وعشرون لكل منها متمسك ، وللصوفية أقوال غير هذه »[1] .

لقد وصلت الأقوال فيها ـ بإحصاء أبي حيان ـ إلى سبعة وعشرين قولاً غير أقوال الصوفية ، وليس وراء ذلك كثرة في تفسير لفظة واحدة أو لفظتين في سياق واحد . وما كان ذلك إلا بوضع المشتق موضع الجامد واضافة التنكير إليه قصداً إلى هذا الغموض الفني الذي يترك للذهن حرية التفكير في استنباط المعنى فيكتسب بذلك هذه الثروة من المعاني أو احتمالاتها .

٢ ـ وضع الجامد موضع المشتق :

وإذا كان القرآن الكريم قد لجأ إلى التعبير بالمشتق عن الجامد فاكسب التعبير خصوبة وثراء بتعدد الاحتمالات التي ترد على الذهن لتفسير ما قصد به : فإن البلاغة القرآنية قد تلجأ إلى وضع الجامد موضع المشتق ، وهي في ذلك لا تختار أسماء الذوات ، بل تختار أسماء المعاني لتضعها موضع الأسماء المشتقة ، ولأسماء المعاني خاصيَّة في التعبير ليست للمشتقات ، إذ هي تحتمل تمكن الوصف وإطلاقه والمبالغة فيه . قال شارح المفصل :

(١) أبو حيان : البحر المحيط ٨ / ٤٤٩ ـ ٤٥٠ .

« **وقالوا** : رجل عَدْل ورضا وفَضْل ، كأنه لكثرة عدله ، والرضا **عنه** ، وفضله ، جعلوه نفس العدل والرضا والفضل »[1] .

وقد عمد القرآن الكريم إلى هذه الخاصية فجعلها في خدمة التعبير القرآني ببراعة معجزة . قال تعالى في شأن الطاغين : ﴿**إن جهنم كانت** مرصاداً . للطاغين مآبا . **لابثين فيها أحقابا . لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا . إلا حميما وغساقا . جزاء وفاقا**﴾[2] . فالوفاق هنا مصدر وافق بمعنى **ماثل** أو ضارع ، وقد عدل القرآن الكريم عن وصف الجزاء باسم مشتق نحو جزاء موافقاً الى وصفه بالمصدر ، للمبالغة في تصوير هذا العقاب الأليم وتقريره .

ونظير هذا قوله جل وعز في شأن المتقين : ﴿**إن للمتقين مفازا . حدائق وأعنابا وكواعب أترابا . وكأسا دهاقا** ﴾. ﴿**لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا . جزاء من ربك عطاء حسابا**﴾[3]. فقد وصف الكأس بإسم المصدر **دهاقا** من الفعل (أدهق ، بمعنى أترع) موضوعاً موضع المفعول (مُدْهَق) . جاء في الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : « وكأسا دهاقا . قال الحسن وقتادة وابن زيد وابن عباس : مترعة مملوءة . يقال : أدهقت الكأس أي ملأتها ، وكأس دهاق أي ممتلئة »[4] .

وفي الآيات السابقة وردت لفظة حسابا مصدر حاسب ، وهو هنا بمعنى اسم الفاعل وصف به العطاء لتحقيق المبالغة فيه ، والتمكين لها في النفوس . جاء في البحر المحيط لأبي حيان : « وقرأ الجمهور حسابا وهو

---

(١) ابن يعيش : شرح المفصل ٣ / ٥٠ .

(٢) النبأ : ٢١ - ٢٧ .

(٣) النبأ : ٣١ - ٣٦ .

(٤) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ١٩ / ١٨١ .

صفة لعطاء أي كافيا من قولهم أحسبني الشيء أي كفاني »[1] .

ومثل هذا يمكن أن يقال في قوله تعالى : ﴿ إنه لقول فصل ﴾[2] **فقد** وصف القول بالمصدر وهو هنا بمعنى إسم الفاعل (فاصل) . **ولكن القرآن** آثر التعبير بالمصدر على التعبير المشتق لما في المصدر من الإطلاق والمبالغة فكأنه أراد أن يقول إن هذا القول هو الفاصل الذي لا فاصل بعده ، وهو الفارق بين الحق والباطل في حسم وقطع لا يحتمل التأويل ولا المماحكة .

وقد يأتي المصدر الجامد بمعنى المشتق دون أن يكون وصفا ، وذلك في نحو قوله تعالى : ﴿**وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى**﴾[3] فالهوى هنا مصدر وضع موضع المفعول (**مهويّ**) ليحقق هذا الإطلاق في نهى النفس عن كل ما تميل إليه مع الهوى من رغبات جامحة ، وشهوات طائشة ومحظورات نهى عنها الدين وحرمها الكتاب الكريم .

ومن ذلك قوله جل وعز : ﴿**ولا تحاضون على طعام المسكين**﴾[4] « **فالطعام هنا بمعنى المطعوم** ، وليس اسم مصدر »[5] .

وكذلك قوله جل وعز : ﴿**أخرج منها ماءها ومرعاها**﴾[6] ، « فمرعاها (مَفْعَل) من الرعي فيكون مكانا وزمانا ومصدرا ، وهو هنا مصدر يراد به إسم المفعول كأنه قيل : ومرعيّها أي النبات الذي يرعى »[7] .

---

(١) أبو حيان : البحر المحيط ٨ / ٤١٥ .
(٢) الطارق : ١٣ .
(٣) النازعات : ٤٠ ـ ٤١ .
(٤) الفجر : ١٨ .
(٥) محمد الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ص ٢٦٣ .
(٦) النازعات : ٣١ .
(٧) أبو حيان : البحر المحيط ٨ / ٤٢٣ .

٣ ـ وضع المجرد موضع المزيد :

يتسم التعبير القرآني في جزء عمّ ، بالحرص على النسق الموسيقى والحفاظ عليه دون إخلال بالمعنى أو جور عليه ، ولتحقيق هـذا النسق الموسيقى المتناغم في سلاسة وعذوبة قد يؤثر التعبير بمصدر الفعل المجرد في موضع المزيد . قال تعالى : ﴿**والنازعات غرقا . والناشطات نشطا . والسابحات سبحا فالسابقات سبقا** . . .﴾[١] . فالمفسرون على أنّ « غرقا » بمعنى إغراقاً[٢] . فلم اختار التعبير القرآني مصدر المجـرد على مصدر المزيد ؟ لقد كان ذلك ـ فيما أرى ـ لتحقيق هذا النسق الموسيقى المتناغم . فأنت ترى المصادر الباقية كلها لأفعال مجردة ، ووجود مصدر مزيد بينها لا يحقق هذه السلاسة والعذوبة التي تجدها في هذا التجانس المطرد بين المصادر المجردة ، ولهذا عدل القرآن عن مصدر المزيد إلى مصدر المجرد ، ولو أنك قلت (والنازعات إغراقاً ، والناشطات نشطا) لأحسست بنفرة سببها مصدر الفعل المزيـد ، وافتقاره إلى الإنسجام مـع غيره من المصـادر والائتلاف معها .

٤ ـ وضع المشتق موضع المشتق :

قال جل شأنه : ﴿ **إنه لقول رسول كريم . ذي قوة عند ذي العرش مكين . مطاع ثم أمين**﴾[٣] . وأمين في هذه الآية الكريمة « فعيل بمعنى مفعول من الأمانة . يقال آمنه على كذا إذا ائتمنه . وجاء فعيل من الرباعي مثلما جاء السميع من أسمع في قول عمرو « أمِنْ ريحانةَ الداعِي السميع »

---

(١) النازعات : ١ ـ ٤ .

(٢) انظر على سبيل المثال : الزمخشري : الكشاف ٢ / ٥٢٠ ، والبحر المحيط لابي حيان ٨ / ٤١٩ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٩ / ١٨٩ .

(٣) التكوير : ١٩ ـ ٢٠ .

وما جاء الحكيم من أحكم »[1]. ومعنى ذلك أن أمين معدول بها عن صيغة أخرى هي صيغة إسم المفعول من الفعل آمن (مؤمَن) وذلك لندرة استعمال هذه الصيغة الأخيرة ، ولتحقيق هدف آخر هو الإيحاء بصيغ أخرى تشترك في الوزن الصرفي مع هذه اللفظة كصيغة المبالغة والصفة المشبهة ونحو ذلك ، وهي صيغ تشترك في الوزن الصرفي وتقترب في معانيها من الغرض الذي يهدف إليه القرآن بلفظة (أمين) وهو إثبات الأمانة صفة لهذا الرسول ، والمبالغة فيها .

ومثل هذا أو قريب منه يمكن أن يقال في وصف الشيطان بلفظة (رجيم) في قوله تعالى : ﴿وما هو بقول شيطان رجيم﴾[2] ، فرجيم هنا (فعيل) بمعنى (مفعول) أي مرجوم . وربما اختارها القرآن لوصف الشيطان لما توحيه هذه الصيغة بما تحتمله من معان أخر تقترب من الهدف المقصود بوصف الشيطان باللعنة وإثباتها له .

وقل نحو ذلك في قوله تعالى : ﴿الله الصمد﴾[3]، فالصمد « فَعَل » بمعنى مفعول من صمد إليه إذا قصده . وهو السيد المصمود إليه في الحوائج »[4].

ولعل القرآن اختار هذه الصيغة وآثرها على ما هي بمعناها (مصمود) لأنها توحي - بوزنها الصرفي - بمعنى صيغة من صيغ الصفة المشبهة (فعل) مثل حسن وبطل فيسبق إلى الذهن معنى الثبوت فيها والدوام ، وهو أمر متحقق فيه جل وعلا .

على أن ثمة بعض الألفاظ المشتقة اختلف كبار المفسرين في صيغتها

---

(١) محمد الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ص ١٨٧ .

(٢) التكوير : ٢٥ .

(٣) الاخلاص : ٢ .

(٤) الزمخشري : الكشاف ٢ / ٥٦٧ .

إن كانت حلت محل أخرى مشتقة أم لم تحل . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿خلق من ماء دافق﴾[1] قال أبو زكريا الفراء : « أهل الحجاز أفعل لهذا من غيرهم أن يجعلوا المفعول فاعلا إذا كان في مذهب نعت كقول العرب : هذا سر كاتم ، وهمّ ناصب ، وليل نائم ، وعيشة راضية ، وأعان على ذلك أنها توافق رءوس الآيات التي هي معهن »[2] .

وقال الزمخشري : « معنى دافق النسبة إلى الدفق الذي هو مصدر دفق كاللّابن والتّامر ، أو الإسناد المجازي ، والدفق في الحقيقة لصاحبه »[3] .

وجاء في البحر المحيط لأبي حيان : « قيل هو بمعنى مدفوق ، وهي قراءة زيد بن علي ، وعند الخليل وسيبويه هو على النسب كلابن وتامر أي ذي دفق وقال ابن عطية : ويصح أن يكون الماء دافقا ، لأن بعضه يدفع بعضا ، فمنه دافق ومنه مدفوق »[4] .

واختار الإمام محمد الطاهر بن عاشور : أن تكون « راضية في قوله تعالى : ﴿فهو في عيشة راضية﴾[5] مجازا عقليا أي راضٍ عائشُها ، أي ليس فيها ما ينكده » .

ونحن نميل إلى أنّ « دافق » و« راضية » خير لهما أن يحملا على المجاز من أن تكون كل منهما بمعنى صيغة أخرى .

خامساً : احتمال اللفظة لأكثر من صيغة :

من خصائص البيان القرآني في جزء عمّ أنك تجد عدداً من الألفاظ

(١) الطارق : ٦ .
(٢) الفراء : معاني القرآن ٣ / ٢٥٥ .
(٣) الزمخشري : الكشاف ٢ / ٥٣٦ .
(٤) أبو حيان : البحر المحيط ٨ / ٤٥٥ .
(٥) محمد الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ص ٣٣٦ .

يحتمل بوزنه الصرفي أكثر من صيغة ، فإذا التمست في المقام أو سياق الكلام ما يصرفك إلى صيغة واحدة من الصيغ لم تجد إلى ذلك سبيلا ، وهذا نوع من اللبس الحاذق والمقصود ، لا يسلم سره لكل أحد فهو مما يسمونه « المطمع الممتنع » إذا رأيته حسبته سهلا ، فإذا حاولته عز المنال ، واستوعر المسلك ، ولا تملك إزاءه إلا الإذعان لهذه البراعة المعجزة ، والتسليم باحتمالاته جميعاً دون تفضيل إيفاءً بما عسى أن يكون أريد وربما جاءت اللفظة على وزن مشترك بين صيغتين أو أكثر فيتوقع القارىء أو السامع أن تكون إحدى هذه الصيغ مرادة ، وما يكاد يستدعي كل احتمال حتى يتبين له أنها صيغة جديدة لا يخطر له ببال أن تجيء على هذه الصورة .

فمما احتملت اللفظة فيه أكثر من صيغة قول الله عز وجل : ﴿ذلك اليوم الحق . فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا﴾[1] ، فمآب وزنها الصرفي مَفْعَل ، وهذا الوزن صالح لاسم الزمان ، واسم المكان ، والمصدر الميمي ، وعلى الزمان يكون المعنى : فمن شاء اتخذ وقتا يثوب فيه أي يرجع إلى الله بالتوبه ، وعلى المكان : فمن شاء اتخذ طريقاً للرجوع إلى الله بالعمل الصالح ، وعلى المصدر الميمي يكون المآب بمعنى الرجوع كما في قوله تعالى ﴿وإليه مآب﴾ . أي أوبي ورجوعي[2] . وليس في الكلام ما يرجح صيغة على صيغة . ولسنا نملك تجاه ذلك إلا التسليم بها جميعاً .

ونحو منه قوله تعالى : ﴿فمهل الكافرين أمهلهم رويدا﴾[3] روى القرطبي عن الجوهري في الصحاح قوله : وله أربعة أوجه : اسم فعل ، وصفة ، وحال ، ومصدر فالاسم نحو قولك رُوَيْدَ عمرا أي أرود عمرا بمعنى أمهله . والصفة نحو قوله ساروا سيرا رويداً . والحال نحو قولك : سار

(١) النبأ : ٣٩ .
(٢) محمد الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ص١٤٥ .
(٣) الطارق : ١٧ .

القوم رويدا . لما اتصل بالمعرفة صار حالاً لها . والمصدر نحو قولك : رويدَ عمرو بالإضافة كقوله تعالى : ﴿فضربَ الرقاب﴾[1] ، ثم قال القرطبي « والذي في الآية من هذه الوجوه أن يكون نعتا للمصدر أي إمهالا رويدا ، ويجوز أن يكون للحال أي أمهلهم غير مستعجل لهم العذاب »[2] .

وقال الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور : « ورويدا » مصدر جاء بصيغة التصغير ، وهو تصغير « رود » بفتح الراء وسكون الواو ويقال « رؤد » بضم الراء وهمزة ساكنة بمعنى المهلة ، وقد عومل معاملة اسم الفعل في قولهم رويدك بمعنى أمهل ، والمعنيان صحيحان هنا ، فعلى أنه مصدر يكون تأكيدا ثالثاً (لمهل) وعلى أنه اسم فعل يكون أمراً للنبي بألا يتعجل العذاب ، فإنه واقع لا محالة »[3] .

والاحتمالان اللذان أوردهما القرطبي لا يخرجان عن صيغة واحدة هي صيغة المصدر ، فقد تقدم الكلام على جواز الوصف بالمصدر نحو رجل عدل وزور ويجوز أن تكون الحال جامدة إذا أمكن تأويلُها بمشتق وهو ممكن هنا .

ومن ثم فإن الاحتمالين اللذين أوردهما الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور هما الأقرب إلى ما قررناه ، ونرمي إليه ، فلفظة « رويدا » تحتمل المصدر ، واسم الفعل ، وليس في الكلام ما يرجح إحدى الصيغتين على الأخرى .

وقل نحو ذلك في قوله عز وجل : ﴿إنّ للمتقين مفازا﴾[4] ، قال الزمخشري في الكشاف : « مفازا : فوزا وظفرا ، وموضع فوز »[5] . فهي

---

(1) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ٢٠ / ١٥ .
(2) السابق نفسه .
(3) محمد الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ص ٢٣٥ .
(4) النبأ : ٣١ .
(5) الزمخشري : الكشاف ٢ / ٥١٩ .

تحتمل صيغتين : المصدر واسم المكان . وليس في المقام ما يرجح احداهما على الأخرى . وكذلك قوله تعالى : ﴿فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية . . وأما من خفت موازينه فأمه هاوية﴾[1] ، قال الزمخشري : « جمع موزون ، وهو العمل الذي له وزن وخطر عند الله أو جمع ميزان[2] ، ومنه قوله تعالى : ﴿وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا﴾[3] ، فمعاشا تحتمل أن تكون مصدرا بمعنى العيش أي الحياة ، أو اسما بمعنى الشيء الذي يعاش به »[4] .

ومما أوهمت فيه اللفظة صيغا أخرى غير مرادة ، وكانت صيغتها جديدة غير متوقعة : قوله عز وجل : ﴿إنّ يومَ الفصل كان ميقاتا﴾[5] ، فميقات وزنها الصرفي مِفْعَال ، وما يسبق إلى الذهن أنها اسم آلة على وزن مِفْعَال ، أو أنها صيغة مبالغة ولكنها ليست هذا ولا ذاك ، بل هي كلمة بمعنى الوقت تحتمل المصدرية والظرفية الزمانية مع أنها ليست على وزن قياسي لأي منهما .

ومثل ذلك لفظة « المرصاد » في قوله جل وعز : ﴿إن جهنم كانت مرصادا﴾[6] ﴿إن ربك لبالمرصاد﴾[7] ، فالمرصاد مِفْعال أيضاً يصلح أن يكون آلة رصد ، وصيغة مبالغة ، وكلمة جهنم تقربه أن يكون مكانا ، وإن لم يكن على وزن قياسي لاسم المكان . ويظل للصيغة رغم ذلك إيهام بغيرها .

---

(١) القارعة : ٧ ـ ١٠ .
(٢) الزمخشري : الكشاف ٢ / ٥٥٨ .
(٣) النبأ : ١٠ ـ ١١ .
(٤) محمد الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ص ١٣٤ .
(٥) النبأ : ١٧ .
(٦) النبأ : ٢١ .
(٧) الفجر : ١٤ .

جاء في البحر المحيط لأبي حيان : « والمرصاد والمرصد المكان الذي يترتب فيه الرصد ، مِفعال من رصده ، وهي مثل لإرصاده العصاة بالعقاب ، وأنهم لا يفوتونه . قال ابن عطية : ويحتمل المرصاد في الآية اسم فاعل كأنه قال : لبالمُرصِد فغُيِّر ببناء المبالغة . انتهى ، ولو كان كما زعم لم تدخل الباء ، لأنها ليست في مكان دخولها لا زائدة ولا غير زائدة »[١] .

على أن وقوع ابن عطية في هذا الخطأ أكبر دليل على ما قررناه من هذا الإيهام بصيغ أخرى فهذا الإيهام كان المزلق الذي زلّت به قدم ابن عطية على علمه وفضله .

سادساً : الحذف في الصيغ :

للنسق الموسيقى في جزء عمّ أثر لا يخفي ، وعناية القرآن الكريم به في هذا الجزء من القرآن لا تقل بحال عن عنايته بالمعاني التي يراد إقرارها وتثبيتها في النفوس بل إن النسق الموسيقى يوشك أن يكون مناط الإعجاز الذي يتجه به القرآن إلى التأثير في نفوس سامعيه ، سواء أفهموا معانيه ، وأحاطوا بأسرارها ودقائقها أم لم يفهموا أو يحيطوا بشيء منها ، وما كان اعجاب الوليد بن المغيرة وانبهاره بما سمع من القرآن حتى قال قولته المشهورة « إنّ له لحلاوة ، وإنّ عليه لطلاة »[٢] إلا إدراكاً واعيا لهذه القيم الفنية والموسيقية التي تبلغ غاية نضجها وأوج كمالها في القرآن الكريم من رجل هذه لغته ، وهو خبير بأسرارها ومناحي الجمال والحسن فيها .

ولقد فصَّلنا القولَ في بيان هذا الثراء الصوتي والموسيقى حين تحدثنا

---

(١) أبو حيان : البحر المحيط ٨ / ٤١٣ .
(٢) ابن هشام : السيرة حـ ١ / ٢٨٨ .

عن المستوى الصوتي ، وكان يجوز أن نتحدث عن الحذف في الصيغ هناك باعتبار أن هذا الحذف أثر من آثار هذه العناية الموسيقية في القرآن . ولكنا آثرنا الحديث عنه هنا ، لأنه يصيب الصيغ ، وما يصيب الصيغ خير له أن يدرج في مباحثها ، وإن كان سببه صوتياً أو موسيقيا .

وكان للعرب إدراك واعٍ بما لهذه القيم الموسيقية من أثر في التعبير ، ومن ثم أثر عنهم الخروج عن القياس في بعض المواضع لتحقيق هذا الهدف ، فآثروا ـ مثلاً ـ أن يقولوا « الغدايا والعشايا » ليتم لهم هذا التوافق الصوتي بين اللفظتين ولم يكونوا يبالون حينئذ بالتزام القياس إيمانا منهم بأن مخالفته في بعض الأحيان أولى من الرعي عليه ، وأقرب إلى التأثير المقصود ، وهو هدف كل فن رفيع .

على أنّ بعض الشعراء لم يكونوا يبالون الحذف في الصيغ حين يكون لهذا الحذف قيمة موسيقية وقد أورد الفراء نماذج من الشعر عمد فيها الشعراء الى هذا الحذف تحقيقاً لقيمة موسيقية ، ومن ذلك قول شاعر :

كفّاك كفّ ما تليق درهما جودا ، وأخرى (تعط) بالسيف الدما

فقد حذف الياء من (تعطي) طلباً للخفة والسلاسة الموسيقية ،ومثله قول آخر

ليس تخفي يسارتي قدر يوم ولقد (تخف) شيمتي إعساري »[1]

فحذف الياء من (تخفي) للسبب نفسه دون أنَ يلقي بالا إلى الخروج على القواعد التي تلزمه باثبات الياء ، لأنه لم يتقدم الفعل ، ما يوجب الجزم بحذف حرف العلة ومن الظلم أن يحمل هذا الحذف على الضرورة الشعرية .

---

(١) الفراء : معاني القرآن ٣ / ٢٦٠ .

وقد ورد في القرآن الكريم من هذا ـ في غير جزء عمّ ـ قوله جل وعز : ﴿يوم يأتِ لا تكلَّمُ نفسٌ إلا بإذنه﴾ .

وأما في جزء عمّ فالحذف فيه نوعان : نوع يقع في أول الصيغة ، ونوع يقع في آخر الصيغة . أما الذي يقع في أول الصيغة فهو حذف الصامت إذا تلاه صامت مثله ، كراهة توالي صامتين متماثلين ، ومن ذلك حذف التاء الأولى من « تزكى » في قوله تعالى : ﴿فقل هل لك إلى أن تزكى﴾[1] ، فتزكى أصله (تتزكى) ، وحذفت التاء الأولى وهي مورفيم يدل على المضارعة لما ذكرنا . ومثله :

- ﴿كلا بل لا تكرمون اليتيم . ولا تحاضُّون على طعام المسكين﴾[2] حذفت التاء الأولى من تحاضُّون وأصله تتحاضون .

- ﴿فأنذرتكم نارا تلظى﴾[3] أي تتلظى فحذفت التاء الأولى .

- ﴿تنزل الملائكة والروح فيها﴾[4] أصله تتنزل فحذفت التاء الأولى .

- ﴿فأنت له تصدى﴾[5] ، ﴿فأنت عنه تلهَّى﴾[6] .

وأما النوع الثاني من الحذف فيقع في آخر الصيغة ، ولم يقع ذلك في جزء عمَّ إلا في الكلمات التي تكون (فواصل) للقرائن لتحقيق هذا الإيقاع الموسيقي المؤثر للفواصل بعضها مع بعض دون أن يكون في ذلك أي إخلال بالمعنى ، وذلك في نحو قوله تعالى :

---

(١) النازعات : ١٨ .
(٢) الفجر : ١٨
(٣) الليل : ١٤ .
(٤) القدر : ٤ .
(٥) عبس : ٦ .
(٦) عبس : ١٠ .

- ﴿والفجر . وليال عشر . والشفع والوتر .والليل إذ يسر هل في ذلك قسم لذي حجر﴾[1] .

- ﴿ألم تر كيف فعل رُّبك بعاد . ارمَ ذاتِ العماد . التي لم يُخلَق مثلها في البلاد . وثمودَ الذين جابوا الصخر بالواد . وفرعون ذي الأوتاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد﴾[2] .

وقد يكون الحذف في آخر الصيغة لمناسبة الفواصل في القرائن ، ولسبب آخر هو تحقيق الخفة والسلاسة الموسيقية حين يزيد عدد الأصوات في الصيغة وذلك في نحو قوله تعالى :

- ﴿ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه ، فيقول ربي أكرمن . وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن﴾[3] . فكانت الفاصلتان تتفقان إذا قيل (أكرمني ، أهانني) ولكن لما كثرت « المدّات » أو الصوائت الطويلة وتوالت (ربي ـ أكرمني ـ ربي ـ أهانني) اختير تقصير الصائت الطويل في كل من الفعلين تحقيقا لهذه السلاسة اللفظية دون حيف على المعنى أو جور عليه ، لأنّ المحذوف ، وإن كان ضميراً يدل على المتكلم ، حذفه لا يؤثر في شيء ، لأنه معلوم من المقام ، ويدل عليه الصائت القصير .

على أن المفسرين أغلبَهم لم يقفوا إلا عند القيمة الفنية للحذف في قوله جل وعز : ﴿والليل إذا يسر﴾ بحذف الياء على قراءة حفص ، « قال المؤرج : سألت الأخفش عن العلة في إسقاط الياء من (يسر) فقال لا أجيبك حتى تبيت على باب داري سنة ، فبت على باب داره سنة فقال : الليل لا يَسْرِي ، وإنما يُسْرَى فيه ، فهو مصروف ، وكل ما صرفته عن جهته

(١) الفجر : ١ ـ ٥ .
(٢) الفجر : ٦ ـ ١٢ .
(٣) الفجر : ١٥ ـ ١٦ .

بخسته من إعرابه ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿وما كانت أمك بَغِيّا﴾ ولم يقل بغيّة ، لأنه صرفها عن باغية »[1] .

وسواء أصحت واقعة المبيت أم لم تصح ، فإنّ التعليل الذي قدمه الأخفش متهافت لا يستحق عناء المبيت على داره ساعة من ليل ، فقد أفسدت الصناعة النحوية ذوقه البياني ، وأدركته صناعةُ النحو ، فأبى إلا أن يفسرها هذا التفسير .

على أن الفراء ، وهو إمام مدرسة الكوفة النحوية ظل ـ على علوّ كعبة في الصناعة النحوية ـ ذا ذوق بياني سليم ، وحس موسيقى صافٍ . فقد قال في حذف الياء من يسري : « وقد قرأ القراء يسري باثبات الياء ، ويسر بحذفها ، وحذفها أحب إليَّ لمشاكلتها رءوس الآيات ، ولأنّ العرب قد تحذف الياء وتكتفي بكسر ما قبلها منها . أنشدني بعضهم :

كفاك كفٌّ ما تُليقُ درهما جودا وأخرى تُعْطِ بالسيف الدِّمَا

وأنشدني آخر :

ليس تَخفي يَسارتي قدرَ يومٍ ولقد تُخفِ شيمتي إعساري »[2]

وهو إدراك سليم للناحية الموسيقية في التعبير دون مبالاة بقواعد النحاة في المعتل الآخر ، وتفضيل لما يخرج على هذه القواعد لهدف موسيقي دون اعتداءٍ على المعنى .

سابعاً : اختيار الصيغ :

ولا نريد أن نختتم هذا الفصل دون بيان موجز لاختيار القرآن الكريم

---

(١) القرطبي : الجامع لاحكام القرآن ٢٠ / ٤٣ .
(٢) الفراء : معانى القرآن ٣ / ٢٦٠ .

لصيغة ووضعها موضعها الملائم لها بحيث إذا خرجت عنه ، أو وضع غيرها مكانها أخل ذلك بجمال التعبير ، ودقته المعجزة . ولا نتزيد هنا بإيراد كثير من الشواهد فما قدمناه في هذا الفصل من صيغ ، وما بيناه من القيم التعبيرية ، والخصائص الفنية لهذه الصيغ كله شاهد على هذا الاختيار الدقيق والبليغ .

ولنقف مثلاً عند صيغة (يتفاعل) الدالة على المشاركة والمستعملة في قوله جل وعز : ﴿عمّ يتساءلون . عن النبأ العظيم . الذي هم فيه مختلفون﴾[1] . والنبأ العظيم هنا البعث كما يقول المفسرون[2] . وقد دلت صيغة التفاعل على هذا الاستغراب والعجب الذي أخذ بقلوب المشركين فشرعوا يسأل بعضهم بعضا رأيه في هذا الأمر وانظر كيف جاءت هذه الصيغة التي تدل على التساؤل بعد سؤال هو (عمّ) افتتحت به السورة « فكان سؤالا عن تساؤل ، وهو أسلوب بديع من مراعاة النظير »[3] .

وانظر كيف اختار القرآن الكريم صيغة المرة في قوله تعالى : ﴿فإنما هي زَجْرةٌ واحدة﴾[4] . فقد آثر القرآن الكريم أن يعبر بهذه الصيغة (زَجْرة) مؤكدة بكلمة (واحدة) ليدل على سرعة وقوع الأمر ، وقلة الحاجة إلى تكرار الزجر فما هي إلا زجرة واحدة يتم إثْرها البعث في أقل من لمح البصر .

وها هو القرآن الكريم يختار صيغة (تفعّل) دالة على التكلف لنكتة تعبيرية في قوله جل وعز : ﴿وإذا الأرض مدّت . وألقت ما فيها

---

(١) النبأ : ١ ـ ٣ .

(٢) انظر : النسفي : تفسير القرآن الجليل المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل ٣ / ٦٣٩ ، والزمخشري : الكشاف ٢ / ٥١٧ .

(٣) محمد الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ص ١٤٦ .

(٤) الانشقاق : ٣ .

وتخلت﴾[1] ، فاستجابة الأرض لأمر البعث جعلها تتكلف إلقاء ما بها ، وتتكفل بإخراجه حتى لا يبقى منه شيء .

وانظر إلى جمع القرآن الكريم بين صيغتي اسم الفاعل واسم المفعول في نسق واحد ولكل منهما جماله وارتباطه بالآخر في قوله تعالى : ﴿يأيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية﴾[2] إذ المعنى أنها راضية ، ومزيدة مما ترضى له لأنّ المرضيّ عنه يراد في إكرامه عن الحدّ الذي يرضيه[3] . ثم انظر إلى صيغة المطاوعة (اطمأنّ) التي جاء منها اسم الفاعل (المطمئنة) كيف وقعت موقعها المناسب ، فالمطاوعة هنا تقتضي حدوث الفعل من الداخل إن جاز التعبير أي أنّ الاطمئنان ليس شيئا خارجا عن النفس ، ولا ممنوحا لها وإنما هو نابع من داخلها دون اعتماد على مؤثر خارجي ، وفي هذا غاية الأمن والاستقرار .

ومثل ذلك اختيار القرآن لصيغة (فُعَلَة) التي تدل على حدوث الفعل بكثرة من فاعله في قوله تعالى : ﴿ ويلٌ لكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَة﴾ فالويل لمن كثر همزة ولمزة ، ولم يصرح القرآن بذلك ، وإنما جعل الصيغة نفسها ، بما تدل عليه ، تفصح عنه . ولهذا اختار أن يطلق على النار في السورة نفسها (الحُطمَة) ليدل على كثرة حطمها لمن يَصْلاها ، ولتناسب الهمزة واللمزة في أول السورة . فإذا كانوا كثيري الهمز واللمز ، فإنّ النار كثيرة الحطم والتدمير .

وقل نحوا من ذلك في قوله تعالى : ﴿إنا أعطيناك الكوثر﴾[4] ، فالكوثر

---

(١) الفجر : ٢٧ ـ ٣٠ .

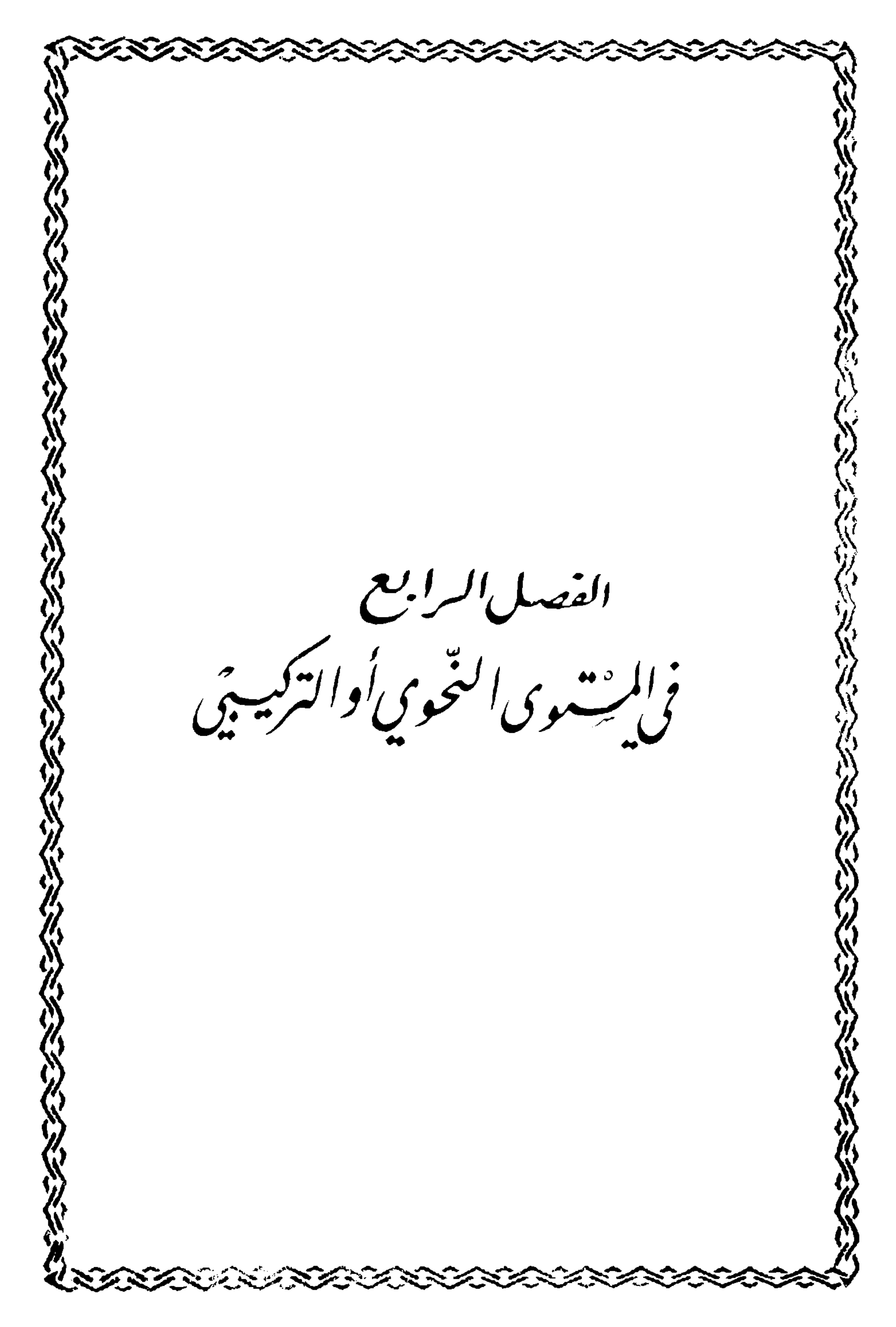
(٢) محمد الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ص ٢٦٧ .

(٣) السابق نفسه .

(٤) الكوثر : الآية الأولى .

(فَوْعَل) من الكثرة مثل النوفل من النفل ، والجوهر من الجهر ، والعرب تسمى كل شيء كثير في العدد والقدر والخطر كوثرا »[1] ، وقد استعملها القرآن الكريم ليدل بالصيغة وحدها في إيجاز رائع على هذا الخير العميم الذي أعطاه الله رسوله .

(١) القرطبي : الجامع لأحكام القرآن ٢٠ / ٢١٦ ، وانظر أيضاً الزمخشري : الكشاف ٢ / ٥٦٣ .



الفصل الرابع
في المستوى النّحوي أو التركيبيّ

أركان الجملة وأنواع الجمل :

للجملة البسيطة التامة ثلاثة أركان أساسية هي المسند إليه أو المتحدث عنه والمسند الذي ينبني على المسند إليه ، ويتحدث به عنه ، ثم الإسناد ، وهو العملية الذهنية التي تربط المسند بالمسند إليه .

على أنه ليس من اللازم اللازب أن تذكر في الجملة الأركان كلها لتكون مفهومة ، فقد تخلو الجملة من المسند إليه لفظا كقول المستهل : (الهلال ، والله) ومن المسند في نحو قولك (زيد) جوابا لمن سأل : من جاء معك ؟[1] .

وقد تخلو الجملة من المسند إليه ، لأن المتكلم لم يُعنَ بذكره كأن يقال : (جُلِس في الغرفة) فالغرض من الكلام إخبار عن حدوث جلوس في الغرفة دون عناية بتعيين من جلس فهذه جملة فعلية لا ذكر للمسند إليه فيها[2] .

---

(١) د. مهدي المخزومي : في النحو العربي ص ٣٣ .

(٢) السابق نفسه .

والجملة تنقسم بحسب المسند والمسند إليه إلى نوعين :

النوع الأول : جمل يكون المسند فيها فعلا وهي التي تسمى الجملة الفعلية والفعل فيها ـ إذا كان الأسلوب خبريا ـ إما أن يكون ماضيا ، نحو قوله تعالى : ﴿ **ختم الله على قلوبهم** ﴾ ، وإما أن يكون مضارعا نحو قوله جل وعز : ﴿ **يريد الله بكم اليسرَ ولا يريدُ بكم العُسْر** ﴾[1] .

وقد دل الاستقراء على أن موقف المسند إليه في جملة الماضي غيره في جملة المضارع ، وعلى أنه في الجملة المثبتة غيره في الجملة المنفية أو الاستفهامية[2] .

النوع الثاني : جمل لا تشتمل على فعل ، وهي التي تسمى الجملة الاسمية ، ويغلب أن يكون المسند إليه فيها اسما والمسند وصفا نحو قوله تعالى : ﴿ **والله عليم حكيم** ﴾ أو اسما جامدا نحو ﴿ **العلم نور** ﴾ ، أو جارا ومجرورا نحو ﴿ **الحمد لله** ﴾ أو ظرفا نحو ﴿ **والله مع الصابرين** ﴾[3] .

هذا هو التصور المحدث للجملتين الاسمية والفعلية ، ولكن القدماء رأوا غير ذلك واكتفوا بأن حددوا الجملة الاسمية بأنها هي التي صدرها اسم ، أو ما هو بمنزلته ، والفعلية هي التي صدرها فعل ، أو ما هو بمنزلة الفعل[4] . ويقول ابن هشام : « مرادنا بصدر الجملة المسند أو المسند إليه فلا عبرة بما تقدم عليهما من الحروف »[5] .

ومعنى ذلك أن جملة (قام زيد) جملة فعلية في نظرهم ، ولكن جملة

---

(١) د. إبراهيم أنيس : من أسرار اللغة ص ٢١٨ .
(٢) السابق نفسه .
(٣) السابق ص ٢٢٩ .
(٤) ابن هشام : مغنى اللبيب ٢ / ٤٣ .
(٥) السابق نفسه .

(زيد قام) جملة اسمية . والمحدثون ، والكوفيون سند لهم ، لا يرضون ذلك . يقول الأستاذ الجليل ابراهيم مصطفى : « هذا حكم النحاة أو جمهورهم ،أما الأسلوب العربي فإنك تقول : « ظهر الحق » و« الحق ظهر » تقدم المسند إليه أو تؤخره ، وكلا الكلامين عربي سائغ مقبول عند النحاة جميعا ، ولكن النحاة ، والبصريين منهم خاصة يحرمون أن يتقدم لفظ « الحق » في ظهر الحق وهو فاعل ، كما يحرمون أن يتأخر المبتدأ من « الحق ظهر » ، وهو مبتدأ ، فالحكم إذن نحوي صناعي لا أثر له في الكلام وليس مما يصحح به أسلوب أو يزيف ، وإنما هو وجه من أوجه الصناعات النحوية المتكلفة ، لا يعنينا أن نلتزمه بل يجب أن نتحرر منه . والعربية في هذا أن الاسم المتحدث عنه أو « المسند إليه » يتقدم على المسند ، ويتأخر عنه ، سواء كان المسند اسما أو فعلا ، وهذا أصل من أصول العربية في حرية الجملة والسعة في تأليفها »[1] .

فهل ينحسم الأمر من الوجهة النحوية بما قاله الأستاذ الجليل ؟ وماذا نصنع إذا دخلت إنَّ أو إحدى أخواتها على نحو (الحق ظهر) فأصبحت (إن الحق ظهر) ، أتظل الجملة فعلية مع ذلك ، وإن في الاستعمال العربي تدخل على الجملة الاسمية فتنصب المبتدأ وترفع الخبر ، وما نوع الجملة حينما تكون : (إن الحق كان ظهر) ؟

على أن الأستاذ الجليل لم يغبْ عنه هذا الاعتراض ، وأفرد جزءا من كتابه لاسم (إن) خطّأ فيه النحاة في فهمهم هذا الباب وتدوينه ، ورأى أن اسم (إن) ورد مرفوعا في الشعر وفي القرآن الكريم والحديث الشريف ، ونظر في أسلوب العرب فيما بعد (إنَّ) فوجد أنهم لمحوا حقه في الرفع ، فورد عنهم مرفوعا وعطفوا عليه بالرفع ، وأكدوه بالرفع أيضا ، وذلك شاهد على أن

---

(١) ابراهيم مصطفى : إحياء النحو ص ٥٥ - ٥٦ .

الموضع للرفع ، وراقب استعمال القرآن الكريم (لأن) فوجدها أكثر ما تستعمل متصلة بالضمير مثل (إنا ، إني ، إنك ، إنه) ومضى يستنتج من ذلك أنَّ الأداة إذا دخلت على ضمير مال حسهم اللغوي إلى أنْ يصلوا بينهما فيستبدلوا بضمير الرفع ضمير النصب ، لأن ضمير الرفع لا يوصل إلا بالفعل ، ولأنّ الضمير المتصل أكثر في لسانهم وهم أحب استعمالا له من المنفصل ، فلما « أكثروا من إتباع إنَّ بالضمير جعلوه ضمير نصب ، ووصلوه بها ، وكثر هذا حتى غلب على وهمهم أن الموضع للنصب ، فلما جاء الاسم الظاهر نصب أيضا ، وهذا موضع دقيق في العربية ولكنه صحيح مطرد عند الاختبار أثبته النحاة ، وسموه الإعراب على التوهم »[1] .

وهذا الدفاع المجيد عن رأي المحدثين يشعرنا بأن القدماء لم يكونوا غافلين حين يضعون قواعدهم ، بل كانوا واعين بكل ما يعترض نظريتهم عند التطبيق ، ولا تزال حجتهم رغم هذا الدفاع ناهضة ولا نزال نحن حائرين بين الأخذ برأي المحدثين وبخاصة في الجمل المؤكدة ، وبين رأي القدماء ، وإن بدا أنه لا مفر من الأخذ برأي القدماء لأنه أوضح وأكثر اطرادا ومشكلاته محلولة أما المشكلات المترتبة على رأي المحدثين فلا تزال تنتظر حلا شافيا مقنعا حتى يتسنى للدارس الأخذ به .

والجمل تنقسم بحسب الوظيفة إلى نوعين : خبرية وإنشائية فالخبرية تشمل الاسمية والفعلية الماضوية والمضارعية في حالات الإثبات والنفي والتوكيد . والإنشائية تشمل الطلب وما يتضمنه من أمر ونهي واستفهام ودعاء وعرض وتخصيص ، وتمن ، ورجاء ، وتشمل الشرط ما كان منه امتناعيا وما كان إمكانيا ، وتشمل الإفصاح وما يدخل فيه من تعجب أو مدح وذم[2] . . . الخ .

---

(١) إبراهيم مصطفى : إحياء النحو ص ٥٥ ـ ٥٦ .

(٢) أنظر السابق ص ٦٤ وما بعدها .

والجملة تنقسم من حيث البناء والتركيب إلى جمل تتصف بالتوازي (Parataxe) وجمل تتصف بالتركيب (Hypotaxe)[1] .

وليس بنا أن نستوفي دراسة كل أنواع الجملة في هذا الفصل ولكنا نختار منها للدراسة نظام الجملتين الاسمية والفعلية وهما الجملتان اللتان جعلهما النحاة قسمي الجملة العربية ، ولسوف ندرسهما في إطار الأسلوب الخبري الذي يشمل الإثبات والنفي والتوكيد ، وسوف نضيف إلى دراسة هاتين الجملتين ، دراسة لجملة الشرط ودراسة لجملة الاستفهام في حالي الإثبات والنفي وهما تدخلان في إطار الأسلوب الإنشائي معتمدين في ذلك على الوصف والإحصاء وهما أقرب شيئين إلى المنهج اللغوي المستقيم .

الجملة القرآنية في جزء عم :

أولا : الجملة الاسمية

أ ـ في حالي الإثبات المجرد والمؤكد

ونعني بالإثبات المجرد أن الجملة المثبتة تكون خالية من وسائل التوكيد المختلفة سواء أكان هذا التوكيد بالأدوات أم بغيرها . وبالإثبات المؤكد ما كانت الجملة المثبتة فيه مؤكدة بوسيلة أو أكثر من وسائل التوكيد . ولم أشأ أن أتحدث عن التوكيد في مبحث خاص به ، لأنه لا ينفك عن حالتي الإثبات والنفي ، فوجب أن يتحدث عن الإثبات المجرد والإثبات المؤكد ، وكذلك الحال في النفي المجرد ، والنفي المؤكد .

والسمة الغالبة على الجملة الاسمية المثبتة في جزء عمّ أنها تتبع الترتيب الاعتيادي في نظام الجملة ، فالمبتدأ مقدم والخبر مؤخر في الكثرة

---

(١) د. محمود فهمي حجازي : علم اللغة بين التراث والمناهج الحديثة ص ٧٣ .

الغالبة من الجمل الاسمية ، وقد أحصيت الجمل التي تقدم فيها الخبر على المبتدأ فلم أجدها تزيد على ثمان جمل ، بينما التزم القرآن الكريم تقديم المبتدأ في نحو ثلاثين جملة .

والجمل التي جاء فيها المبتدأ مقدما والخبر مؤخرا نوعان : نوع لم يفصل فيه بين المبتدأ والخبر بفاصل ، ونوع فصل بينهما بفاصل قصير أو غير قصير . فأما الجمل التي لم يفصل فيها بين المبتدأ والخبر بفاصل[1] فنحو قوله تعالى :

- فقال : ﴿ أنا ربكم الأعلى ﴾
- ﴿ ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ﴾
- ﴿ ختامه مسك ﴾
- ﴿ ومزاجه من تسنيم ﴾
- ﴿ بل الذين كفروا يكذبون ﴾
- ﴿ والله أعلم بما يوعون ﴾
- ﴿ بل الذين كفروا في تكذيب ﴾
- ﴿ بل هو قرآن مجيد ﴾
- ﴿ وأنت حِلّ بهذا البلد ﴾
- ﴿ أولئك أصحابُ الميمنة ﴾
- ﴿ ويل لكل همزة لمزة ﴾
- ﴿ وذلك دينُ القيمة ﴾
- ﴿ فويلٌ للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون ﴾
- « قل : ﴿ هو الله أحد ﴾
- ﴿ ليلة القدر خير من ألف شهر ﴾ .

---

(١) لم أعتبر جملة الصلة ولا المضاف إليه فاصلا لأنهما مع المبتدأ كالشيء الواحد .

ونلحظ في هذه الجمل أن الخبر المؤخر جاء مفردا ، وجملة فعلية ، وجملة اسمية وشبه جملة (جارا ومجرورا) . وهذا الخبر قد يجيء موصوفا أو غير موصوف ، والموصوف يتساوى في العدد مع غير الموصوف ومعنى ذلك أن النظام الغالب على الجمل السابقة يمكن التعبير عنه بالآتي :

مبدأ + خبر موصوف أو غير موصوف

أما النوع الثاني من الجمل الاسمية المثبتة التي تتبع النظام الاعتيادي في ترتيب الكلام ، وهو النوع الذي يفصل فيه بين المبتدأ والخبر بفاصل فنحو قوله تعالى :

- ﴿ قلوب يومئذ واجفة أبصارها خاشعة ﴾
- ﴿ تلك إذن كرة خاسرة ﴾
- ﴿ وجـوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ﴾
- ﴿ ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها فترة ﴾
- ﴿ ويل يومئذ للمكذبين الذين يكذبون بيوم الدين ﴾
- ﴿ والأمر يومئذ لله ﴾
- ﴿ إذ هم عليها قعود ﴾
- ﴿ وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ﴾
- ﴿ والله من ورائهم محيط ﴾
- ﴿ هم عن صلاتهم ساهون ﴾
- ﴿ وجوه يومئذ خاشعة ﴾
- ﴿ وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية ﴾
- ﴿ جزاؤهم عند ربهم جنات عدن . . . ﴾

ويتضح من هذه الجمل أن الفاصل يغلب أن يكون شبه جملة ، ولم يأت غير ذلك إلا في جملة واحدة : لفظة (إذن) في قوله تعالى : ﴿ قالوا

تلك إذن كرة خاسرة ﴾ والفصل بـ « يومئذ » على وجه الخصوص يستغرق نصف الجمل السابقة ، ويمكن أن نعبر عن نظام الجمل الغالب على هذا النوع بالآتي :

مبتدأ + شبه جملة + خبر

ومن الجمل الاسمية المثبتة ما ورد محذوف المبتدأ كقوله تعالى : ﴿ **نار حامية** ﴾ بعد قوله : ﴿ **وما أدراك ماهيه** ﴾ . فالتقدير : هي نار حامية . وكقوله تعالى : ﴿**القارعة**﴾ في أحد القولين على أنها خبر لمبتدأ محذوف[1] .

أما الجمل الثمان التي تقدم الخبر على المبتدأ فيها للقصر ، وهو وسيلة من وسائل التوكيد ففي قوله جل وعز :

- ﴿ **لكل امرىء منهم يومئذ شأنٌ يُغْنِيه** ﴾
- ﴿ **فيها عينٌ جارية** ﴾
- ﴿ **فيها سُـرُرٌ مرفوعة** ﴾
- ﴿ **عليهم نارٌ مؤصدة** ﴾
- ﴿ **سلامٌ هي حتى مطلع الفجر** ﴾
- ﴿ **لكم دينكم ولي دين** ﴾
- ﴿ **في جيدها حبلٌ من مسد** ﴾

وخمس من هذه الجمل جاء المبتدأ المؤخر فيها موصوفا ، وجاء الخبر المقدم جارا ومجرورا في سبع منها ولم يخالف عن هذا النظام إلا قوله تعالى

---

(١) أنظر : العكبري : إملاء ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن (الميمنية بمصر ١٣٠٦ هـ) ص ١٥٩ .

﴿ سلام هي ﴾ على الرأي الراجح من أن (سلام) هنا خبر مقدم ، (هي) مبتدأ مؤخر ، وإن رأي الأخفش غير ذلك[1] .

ولم يفصل ـ في الجمل السابقة ـ بين الخبر المقدم ومبتدئه إلا في قوله تعالى : ﴿ لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ﴾ وعلى ذلك فالنظام الغالب في الجمل السابقة يمكن التعبير عنه بالآتي :

خبر (شبه جملة غالبا) + مبتدأ (نكرة غالبا) + صفة للمبتدأ .

على أن هناك وسائل أخرى لتوكيد الجملة المثبتة في جزء عم غير التقدم الذي ذكرناه آنفا . ومن هذه الوسائل : التوكيد بإنَّ وحدها ، أو بإن واللام ، أو بأدوات القصر المختلفة ، أو بضمير الفصل ، وربما اجتمعت أكثر من وسيلة توكيد في الجملة الواحدة ، ولكل هذه الوسائل « درجة » من درجات التأكيد تجدها مبسوطة في كتب « علم المعاني » ، « وعند عبد القاهر من قبلهم في دلائل الإعجاز » (فإن) لتوكيد النسبة في الجملة وتثبيتها في نفس المخاطب حين يكون محتاجا إلى ذلك فإن أريد دفع الإنكار قويت (إن) بمؤكد آخر هو اللام ، وإنما وهي أداة قصر تفيد توكيدا أشد مما تفيده إن وحدها ، ومثلها في ذلك ما ـ وإلا أو لَمَّا بمعنى (إلا) وهناك أداة التعريف (أل) حين يراد بها المبالغة في صفة من الصفات وادعاء التفرد فيها كقولك « زيد الرجل » . والتقديم صورة من صور القصر ، والقصر توكيد ، ومن وسائل التوكيد التكرار اللفظي واستخدام ألفاظ التوكيد المعنوي المشهورة إلى غير ذلك من وسائل .

وإذا تتبعنا التوكيد بمؤكد واحد في الجمل الاسمية ، غير التقديم الذي قدمنا الحديث عنه ، وجدنا ذلك في إحدى وثلاثين جملة قرآنية منها خمس

---

(١) العكبري : أملاء ما من به الرحمن ص ١٥٧ .

عشرة أداة التوكيد فيها إنَّ وأربع منها وسيلة التوكيد فيها ضمير الفصل (هم) ، وأربع منها (أل) التي تفيد القصر ، وثلاث أداة التوكيد فيها إنما التي للقصر وثلاث أدوات القصر فيها (إنْ ولما) (ليس وإلا) ، (إنْ وإلا) فالجمل التي أكدت بإنَّ وحدها هي :

- ﴿ إن يوم الفصل كان ميقاتا ﴾
- ﴿ إن جهنم كانت مرصادا ﴾
- ﴿ إنهم كانوا لا يرجون حسابا ﴾
- ﴿ إنا أنذرناكم عذابا قريبا ﴾
- ﴿ إنه طغى ﴾
- ﴿ إنها تذكرة ﴾
- ﴿ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ﴾
- ﴿ إنه كان في أهله مسرورا ﴾
- ﴿ إنه ظن أن لن يحور ﴾
- ﴿ إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ﴾
- ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات ﴾.
- ﴿ إنا أنزلناه في ليلة القدر ﴾
- ﴿ إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم ﴾
- ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾
- ﴿ إنه كان توابا ﴾

وواضح أن (إنَّ) يغلب عليها أن تتصل بالضمير (٩ مرات) ، ويلي ذلك أن تتصل بالاسم الموصول (٤ مرات) ويقل دخولها على الاسم الظاهر (مرتان) . ويغلب على خبرها أن يكون جملة فعلية أو اسمية والفعلية أغلب

من الاسمية ولذلك نرى أنه من المفضل في التعبير القرآني أن يكون نظام الجملة المؤكدة بإنَّ وحدها كالآتي :

إنَّ + ضمير + جملة فعلية أو اسمية

فإذا انتقلنا إلى الوسيلة التالية من وسائل التوكيد وهي ضمير الفصل نجدها في قوله تعالى :

- ﴿ أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾
- ﴿ والذين كفروا بآياتنا هم أصحابُ المشأمة ﴾
- ﴿ أولئك هم شرُّ البرية ﴾
- ﴿ أولئك هم خيرُ البرية ﴾

وواضح أن هذا الضمير يفصل بين ركني الجملة ، وهو المبتدأ والخبر ، ويغلب عليه أن يكون تأكيدا لاسم الإشارة (أولئك) والخبر حينئذ يكون معرفا (بأل) أو مضافا إلى ما فيه (أل) :

مبتدأ (اسم إشارة غالبا) + ضمير الفصل + الخبر (معرفا بأل أو مضافا إلى ما فيه أل) . والقرآن الكريم يستخدم أداة القصر (أل) وسيلة للتوكيد في قوله جلَّ وعز :

- ﴿ ذلك اليوم الحق ﴾
- ﴿ هذا الذي كنتم به تكذبون ﴾
- ﴿ ذلك الفوز الكبير ﴾
- ﴿ فذلك الذي يدع اليتيم ﴾

واستخدام القرآن للمقصور بأل دون ضمير الفصل (هو) قبله ، فيه هذا الجمال الفني الذي ينتج من الإيهام بأن هذا المقصور بأل ربما كان نعتا لما سبقه ثم سرعان ما ينتبه الذهن إلى أنه الخبر .

ويستخدم القرآن (إنما) أداة للقصر في ثلاثة مواضع من جزء عم في قوله جل وعز :

- ﴿ فإنما هي زجرة واحدة ﴾
- ﴿ إنما أنت منذر من يخشاها ﴾
- ﴿ إنما أنت مذكر ﴾

وفي هذه المواضع يلتزم القرآن بأن يأتي بعدها بالمبتدأ ضميراً

إنما + المبتدأ (ضميراً) + الخبر

ومن وسائل التوكيد استخدام (إنّ - لما) ، (ليس - إلا) ، (إنْ - إلا) وذلك في قوله تعالى :

- ﴿ إنْ كلُّ نفسٍ لمَّا عليهَا حافظ﴾
- ﴿ إنْ هو إلا ذكرٌ للعالمين ﴾
- ﴿ ليس لهم طعامٌ إلاَّ من ضريع﴾

وقد فصلت لما وإلا في الجملتين الأولى والثانية بين ركني الإسناد (المبتدأ والخبر) وفصلت إلا في الثالثة بين الموصوف وصفته .

وفي مرة واحدة لجأ التعبير القرآني إلى التوكيد بلام الابتداء في قوله تعالى :

﴿ وللآخرة خيرٌ لك من الأولى ﴾

التوكيد بأكثر من مؤكد :

ولا يقتصر التوكيد في الجملة الإسمية المثبتة على مؤكد واحد كما مر بنا ، ولكنه يتعداه إلى أكثر من مؤكد في الجملة الواحدة وذلك حين يراد دفع الإنكار وإقرار الأمر وتثبيته في نفوس المنكرين . ويعتمد القرآن الكريم في

ذلك على (إنَّ) في كل المواضع مضافا إليها بعض وسائل التوكيد الأخرى كاللام ، والتقديم . والمفعول المطلق وضمير الفصل .

والتوكيد بإن واللام وحدهما أكثر شيوعا (١٢ مرة) يليه التوكيد : بإن واللام مضافا إليهما التقديم لبعض أجزاء الجملة (٩ مرات) وإن والتقديم فقط (٤ مرات) ثم إن وضمير الفصل في موضعين ، ثم إن والمفعول المطلق دون تقديم في موضع واحد هو قوله تعالى : **﴿ إنهم يكيدون كيدا ﴾** ، وقد جاء التوكيد بإن والتقديم والمفعول المطلق مرة واحدة في قوله تعالى : **﴿ إنك كادح إلى ربك كدحا ﴾** .

فأمَّا الجمل التي أكدت بإنَّ واللام وحدهما ، وهي الوسيلة المفضلة للتوكيد المشدد أو المؤكد فهي :

- **﴿إنه لقول رسول كريم﴾** .
- **﴿إن الأبرار لفي نعيم﴾** .
- **﴿وإن الفجار لفي جحيم﴾** .
- **﴿إن كتاب الفجار لفي سجين﴾** .
- **﴿إن كتاب الأبرار لفي عليين﴾** .
- **﴿إن بطش ربك لشديد﴾** .
- **﴿إنه لقول فصل﴾** .

﴿إن هذا لفي الصحف الأولى﴾ .

- **إن ربك لبالمرصاد﴾** .

﴿إن سعيكم لشتى﴾ .

﴿إن الإنسان ليطغى﴾ .

- ﴿إن الإنسان لفي خسر﴾ .

ونظام الجملة في هذا النوع يتبع الترتيب الاعتيادي للكلمات فيما عدا إضافة وسيلتي التوكيـد (إنَّ) في أول الجملة ، و(اللام) في الخبر .

(إن + الاسم + الخبر (مسبوقا باللام المؤكدة) .

وأما الجمل التي اكدت بثلاث وسائل للتوكـيد هي إنَّ واللام والتقديم ، وهو أقصى ما تصل إليه درجة التوكيـد ، ففي قوله تعالى :

- ﴿إن في ذلك لعبرة لمن يخشى﴾ .

- ﴿وإن عليكم لحافظين﴾ .

- ﴿إن علينا للهدى﴾ .

- ﴿وإن لنا للآخرة والأولى﴾ .

- ﴿إن الإنسان لربه لكنود﴾ .

- ﴿وإنه على ذلك لشهيد﴾ .

﴿وإنه لحب الخير لشديد﴾ .

﴿إن ربهم يومئذ لخبير﴾ .

- ﴿إنها عليهم مؤصدة﴾ .

غير أن التقديم في الأربع الأول كان لأحد ركني الإسناد وهو المسند او الخير ، ونظام الجملة فيها .

(إن + الخبر + الاسم مؤكدا باللام) .

وأما الخمس الباقيات فالتقديم فيها كان لبعض متعلقات الإسناد في الجملة ، ولم يكن للخبر ، وكان هذا المقدم من تأخير فاصلا بين ركني الإسناد في الجملة .

(إنَّ + الإسم + شبه جملة (مقدما من تأخير) + الخبر مؤكدا باللام .

أما الجمل التي وردت مؤكدة بمؤكدين اثنين هما (إنَّ والتقديم) ففي قوله تعالى :

- ﴿إن للمتقين مفازا﴾ .

- ﴿إن الينا ايابهم﴾ .

- ﴿ثم إن علينا حسابهم﴾ .

- ﴿فإن مع العسر يسرا (إن مع العسر يسرا)﴾ .

ونظام الجملة فيها :

(إنَّ + الخبر + الإسم)

ونلحظ أنَّ الجملة الاخيرة من الأربع السابقة اكدت توكيداً لفظياً باعادتها مرة ثانية ، وهذا هو الموضع الوحيد الذي وردت فيه الجملة الاسمية مؤكدة توكيداً لفظياً في جزء عم .

ولم تبق بعد ذلك إلا جملتان كان التوكيد فيهما بوسيلتين هما إنَّ مع ضمير الفصل المؤكد لاسمها في الموضوعين :

- ﴿إنه هو يبدىء ويعيد﴾ .

- ﴿إنَّ شانئك هو الأبتر﴾ .

ب ـ في حال النفي المؤكد :

وقد قيدت النفي بالمؤكد ، لأن نفي الجملة الاسمية لم يأت إلا مؤكداً ، وقد استعمل القرآن الكريم في ذلك ثلاث أدوات للنفي هي (ما ـ لا ـ ليس) وإن غلب النفي بما على النفي بغيرها ، فقد ورد في سبع جمل ، بينما ورد النفي بلا في ثلاث جمل ، والنفي بليس في جملة واحدة هي قوله تعالى : ﴿لستَ عليهم بمسيطر﴾ والنفي فيها مؤكد بتقديم الجار والمجرور ، وبحرف الجر الزائد (الباء) .

واما النفي بما فبعضه مؤكد بحرف جر زائد وبعضه مؤكد به وبالتقديم . فالنفي المؤكد بحرف الجر الزائد قوله تعالى :

- ﴿**وما صاحبكم بمجنون**﴾ .
- ﴿**وما هو بقول شيطان رجيم**﴾ .
- ﴿**وما هو بالهزل** ﴾ .

(أداة النفي + الاسم + الخبر مسبوقا بحرف جر زائد)

والنفي المؤكد بالحرف والتقديم في قوله تعالى :

- ﴿**وما هو على الغيب بضنين**﴾ .
- ﴿**وما هم عنها بغائبين**﴾ .
- ﴿**فماله من قوة ولا ناصر**﴾ .
- ﴿**وما لأحد عنده من نعمة تجزي**﴾ .

وقد دخل حرف الجر الزائد في الأوليين على الخبر ، وفصل بالجار والمجرور بين الاسم والخبر . أما في الجملتين التاليتين فقد قدم الخبر فيهما

وأخر المبتدأ مجرورا بحرف الجر الزائد (مِنْ)، وفصل بين الخبر والاسم بالظرف في الجملة الأخيرة .

وأما مواضع النفي باللام فهي :

- ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ .

- ﴿ولا أنا عابد ما عبدتم﴾ .

- ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ .

فالنفي هنا منصب على التالي لحرف النفي ، ونظام الجملة فيها :

(أداة النفي + الضمير المنفصل + الخبر)

ثانياً : الجملة الفعلية

١ ـ الجملة الماضوية :

أ ـ في حالي الإثبات المجرد والمؤكد

النحاة القدماء على أن الفعل لا يخلو من فاعل ظاهر أو مستتر ، وإذا كان كذلك لزم أن يكون كل فعل مذكور جملة فعلية . لأن الجملة الفعلية ركناها الفعل والفاعل فإذا اجتمعنا ولا بد أن يجتمعا ، فقد اجتمع للجملة الفعلية ركناها اللذان تقوم بهما .

ولقد تتبعت الجملة الفعلية التي فعلها ماض في حالة الإثبات المجرد من التوكيد فوجدتها ثلاثة أنواع : النوع الأول يشتمل على الفعل مبنيا للمعلوم أو للفاعل باصطلاح القدماء ، والفاعل ظاهرا أو مستترا ، ومفعول به أو أكثر ثم ما دون ذلك من ملحقات . وهذا النوع تترتب الكلمات في جمله هذا الترتيب لا تحيد عنه ، وهو الكثرة الغالبة من الجمل الماضوية المثبتة إذ يبلغ

ما أحصيته من ذلك نحو ثنتين وأربعين جملة ، أمَّا النوعان الآخران فلا تزيد جملهما مجتمعة على نصف هذا العدد إلا بقليل . وهذه جمل النوع الأول مع ملاحظة أن أغلبها مرتبط بما قبله ، ويقل فيها الاستئناف :

- ﴿وخلقناكم أزواجا﴾
- ﴿وجعلنا نومكم سباتا﴾
- ﴿وجعلنا الليل لباسا﴾
- ﴿أم السماء﴾ بناها﴾
- ﴿وجعلنا النهار معاشا﴾
- ﴿وجعلنا سراجا وهاجا﴾
- ﴿فأراه الآية الكبرى﴾
- ﴿فألهمها فجورها وتقواها﴾

- ﴿ رفع سَمْكَهَا﴾
- ﴿فسواها﴾
- ﴿وأغطش ليلها﴾
- ﴿وأخرج ضحاها﴾
- ﴿خلق الذكر والأنثى﴾
- ﴿فأنذرتكم نارا تلظى﴾
- ﴿فكذبوه﴾
- ﴿فعقروها﴾
- ﴿فقدَّره﴾

- ﴿ثم أماته﴾
- ﴿فأقبره﴾
- ﴿خلقك﴾
- ﴿فسواك﴾
- ﴿فعدلك﴾
- ﴿أخرج المرعى﴾
- ﴿فجعله غثاء أحوى﴾
- ﴿وذكر اسم ربه﴾
- أهلكت مالا لبدا﴾
- ﴿وهديناه النجدين﴾
- ﴿ووجدك ضالا﴾
- ﴿ووجدك عائلا﴾
- ﴿أنقض ظهرك﴾
- ﴿ثم رددناه أسفل سافلين﴾
- ﴿خلق الإنسان من علق﴾
- ﴿علم الإنسان ما لم يعلم﴾
- ﴿أن رآه استغنى﴾
- ﴿ألهاكم التكاثر﴾
- ﴿حتى زرتم المقابر﴾
- ﴿فجعلهم كعصف مأكول﴾

- ﴿و﴾ما﴿ بناها﴾ - ﴿أطعمهم من جوع﴾
- ﴿و﴾ما﴿ طحاها﴾ - ﴿وآمنهم من خوف﴾ .

ويمكن أن نلخص نظام الجملة الغالب في هذا النوع بالآتي :

(فعل « مبني للمعلوم » + فاعل « ظاهر أو مستتر + مفعول به أو أكثر)

والنوع الثاني يشمل نوعين من الجمل :

أ ـ جمل قصيرة تتكون من فعل وفاعل مستتر ، ويكثر عطف بعضها على بعض ، وهذا النوع من الجمل ضعف النوع الثاني ، والجملَ هي :

فصلى ـ فكذب ـ ثم أدبر ـ فحشر ـ فنادى ـ عبس ـ وتولى ـ خلق ـ فسوى ـ قدر ـ فهدى ـ فأغنى .

ب ـ جمل تلزم نظاما مطردا يبدأ بفعل فاعله ضمير غالباً ويليه شبه جملة (ومجرور) ولم يشذ عن هذا النظام إلا جملة واحدة جاء الفاعل فيها اسما ظاهرا . وجمل هذا النوع هي :

- ﴿ طَغَوْا في البلاد ﴾
- ﴿ تواصَوْا بالصبر ﴾ .
- ﴿ تواصَوْا بالمرحمة ﴾ .
- ﴿ تواصَوْا بالحق ﴾ .
- ﴿ كذبت ثمودُ بطغواها ﴾ .
- ﴿ علم بالقلم ﴾ .

والنوع الثاني من الجمل الماضوية المثبتة المجردة من التوكيد يشتمل على الفعل مبنياً للمجهول ، والنائب عن الفاعل اسما ظاهرا في الغالب ، ثم تأتي بعض الملحقات وجمله هي :

- ﴿ فُتِحت السماء ﴾ - ﴿ بُرِّزت الجحيم لمن يرى ﴾
- ﴿ سُيِّرت الجبال ﴾ - ﴿ خُلِق من ماء دافق ﴾ .

ويمكن أن يضم إلى جمل هذا النوع جملة فعلها مطاوع هي : « إذ أنبعث أشقاها » إذ معنى انبعث : بعث .

وقد جاء الفعل محذوفاً مع فاعله في جملة واحدة هي قوله تعالى : ﴿جزاء وفاقا﴾ فجزاء مفعول مطلق لفعل محذوف تقديره (جوزوا جزاء)[1] .

والتوكيد في الجمل الماضوية المثبتة يغلب أن يكون بتقديم بعض أجزاء الجملة للاهتمام به ، وإبرازه ليقع في نفوس المخاطبين ، ويذعنوا له ، ويغلب أن يكون المقدم جارا ومجروراً وقد يكون ظرفاً ، ونجد ذلك في قوله تعالى :

- ﴿ وبنينا فوقكم سبعا شِدَادا ﴾
- ﴿ وأنزلنا من المعصِرَاتِ ماء ثجاجا ﴾ .
- ﴿وكذبوا بآياتنا كذابا﴾ .
- ﴿أذن له الرحمن﴾ .
- ﴿أخرج منها ماءها ومرعاها﴾ .
- ﴿من نطفه خلقه﴾ .
- ﴿فأنبتنا فيها حبا﴾ .
- ﴿في أي صورة ما شاء ركبك﴾ .
- ﴿بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾ .
- ﴿فاكثروا فيها الفساد﴾ .
- ﴿فصب عليهم ربك سوط عذاب﴾ .

---

(١) العكبري : املاء ما من الرحمن ص ١٤٩ .

- ﴿فدمدم عليهم ربهم بذنبهم﴾ .
- ﴿ووضعنا عنك وزرك﴾ .
- ﴿ورفعنا لك ذكرك﴾ .
- ﴿فأثرن به نقعا﴾ .
- ﴿فوسطن به جمعا﴾ .
- ﴿وأرسل عليهم طيرا أبابيل﴾ .

وقد تبدأ الجملة بمفعول به مقدم ، وإن اعتبره النحاة مفعولا لفعل محذوف يفسره المذكور ، ونجد ذلك في قوله تعالى :

- ﴿وكلَّ شيء أحصيناه كتابا﴾ .
- ﴿ والأرض بعد ذلك دحاها ﴾ .
- ﴿ والجبالَ أرساها ﴾ .
- ﴿ ثم السبيلَ يسره ﴾ .

وهناك جملتان تقدم المفعول فيهما على الفاعل ، لا لغرض بلاغي ، وإنما لقاعدة نحوية وهاتان الجملتان هما :

- ﴿إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى﴾ .
- ﴿فأخذه الله نكال الآخرة والأولى﴾ .

فالقاعدة أنه إذا أمكن اتصال الضمير فلا يؤتي به منفصلاً[1] .

ومن وسائل التوكيد استخدام الحرف (قد) مجردا من اللام في ثلاث جمل ، ومسبوقا باللام في ثلاث اخرى .

---

(١) يقول ابن مالك :

وفي اختيار لا يجيء المنفصل   إذا تأتي أن يجيء المتصل

فالأول في قوله تعالى :

- ﴿قد أفلح من تزكى﴾ .

- ﴿قد أفلح من زكاها﴾ .

- ﴿وقد خاب من دساها﴾ .

(المؤكد + الفعل + الفاعل (اسما موصولا عاما) + جملة فعلية فعلها ماض) .

والثاني في قوله جل وعز :

- ﴿ولقد رآه بالافق المبين﴾ .

- ﴿لقد خلقنا الإنسان في كبد﴾ .

- ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ .

(المؤكد + الفعل وفاعله ومفعوله + جار ومجرور)

ومن وسائل التوكيد كذلك القصر بما وإلا وذلك في جمل ثلاث هي :

- ﴿وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد﴾ .

- ﴿وما تفرق الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البينة﴾ .

﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾ .

ومن وسائل التوكيد أيضاً استخدام المفعول المطلق ، وذلك في جملتين هما :

- ﴿ صببنا الماء صبّاً ﴾ .

- ﴿ ثم شققنا الأرض شَقّاً ﴾ .

(الفعل + فاعله ومفعوله + المفعول المطلق)

ب ـ في حال النفي

النفي في الجمل الماضوية قليل في جزء عم ، ولا يتعدى أن يكون

في ست جمل فقط ، وأداة النفي المفضلة فيه هي (ما) إذ وردت في خمس جمل ، ولم ترد (لا) إلا مرة واحدة ، ودخولها على الماضي عموما قليل ، لأنها تلتبس بالدعاء ، فإن دخلت كررت غالبا كقوله تعالى : ﴿ فلا صدق ولا صلى ﴾ ، وهي في جزء عمّ لم تكرر ، وان كانت في نية التكرار والجملة الوحيدة التي جاء النفي فيها (بلا) هي قوله تعالى : ﴿ فلا اقتحم العقبة ﴾ ويبدو والله أعلم أن التقدير ولا غيرها .

وباقي الجمل هي :

- ﴿ وما أرسلوا عليهم حافظين ﴾ .
- ﴿ ما ودعك ربك ﴾ .
- ﴿ وما قلى ﴾ .
- ﴿ ما أغنى عنه ماله ﴾ .
- ﴿ وما كسب ﴾ .

ونظام الجملة في ثلاث منها :

(اداة النفي (ما) + الفعل + الفاعل ، ثم الملحقات)

وقد تقدم شبه الجملة (الجار والمجرور) في جملتين منها أي أن النهي أكد بالتقديم في جملتين ، ولم يؤكد في سائر الجمل .

٢ ـ الجملة المضارعية :

أ ـ في حالي الإثبات المجرد والمؤكد

الجملة المضارعية المثبتة المجردة من التوكيد من حيث نظامها ثلاثة أقسام : قسم يشتمل على الفاعل وفعله دون أن يتعدى إلى مفعول به ، وإن

جاءت بعض الملحقات أو المتعلقات بعد الفاعل والفعل ، وهذا القسم هو الغالب على الجملة المضارعية المثبتة . إذ يبلغ ما أحصيته من جملة نحو اثنتين وعشرين جملة ، ويلي ذلك قسم يشتمل على الفعل والفاعل والمفعول ، ثم المتعلقات في بعض الأحيان ، ويبلغ ما أحصيته من جمله نحو ثلاث عشرة جملة ، والقسم الثالث ينبني فيه الفعل للمجهول ، وهو قليل إذ تبلغ عدته جملتين فقط فيما أحصيته . ونلحظ أيضاً أن عددا كبيرا من الجمل متصل بما قبله وبما بعده ، وقد يحذف الفعل مع فاعله حين يدل عليه دليل كما في قوله جل وعز : ﴿عن النبأ العظيم﴾ جوابا لقوله : ﴿عم يتساءلون﴾ إذ التقدير : ﴿يتساءلون عن النبأ العظيم﴾[1] .

أما القسم الأول فنجده متحققا في قوله تعالى :

- ﴿فتأتون أفواجا﴾ .
- ﴿يوم يقوم الروح والملائكة صفا﴾ .
- ﴿يوم ترجف الراجفة﴾ .
- ﴿تتبعها الرادفة﴾ .
- ﴿فتخشى﴾ .
- ﴿يوم يفر المرء من أخيه . . . ﴾ .
- ﴿كلا بل تكذبون بالدين﴾ .
- ﴿ يشهده المقربون ﴾ .
- ﴿يسقون من رحيق مختوم﴾ .
- ﴿يخرج من بين الصلب والترائب﴾ .

(١) انظر : النسفي : تفسير القرآن الجليل المسمى بمدارك التنزيل وحقائق التأويل ٣ / ٦٣٩ ، وأنظر أيضاً : العكبري : املاء ما من به الرحمن في اعراب القرآن ص ١٤٩ .

- ﴿سيذكر من يخشى﴾ .
- ﴿يومئذ يتذكر الإنسان﴾ .
- ﴿سيتجنبها الأتقى﴾ .
- ﴿ولسوف يرضى﴾ .
- ﴿فترضى﴾ .
- ﴿تنزل الملائكة والروح فيها﴾ .
- ﴿يومئذ يصدر الناس أشتاتا﴾ .
- ﴿يوم يكون الناس كالفراش المبثوث﴾ .
- ﴿وتكون الجبال كالعين المنفوش ﴾ .
- ﴿ترميهم بحجارة من سجيل﴾ .
- ﴿أعوذ برب الفلق﴾ .
- ﴿أعوذ برب الناس﴾ .

ويتضح من ذلك أن الفعل قد يذكر وفاعله مستتر ، أو ظاهر ، ويكتفي بذلك ، وقد يكون الفاعل ظاهرا أو مستترا وتأتي بعده المتعلقات وهي لا تعدو الحال أو الجار والمجرور الذي يكون متعلقاً بمحذوف حال أو صفة في الغالب . وقد يسبق الفعل الظرف .

والحق أنني ألحظ أن التعبير القرآني ، سواء أكان ذلك في هذا القسم من الجملة المضارعية أم في غيره يكثر من استخدام كلمة (يوم) أو (يومئذ) .ل المضارع لتخليص زمنه للاستقبال .

أما القسم الثاني الذي يشتمل على الفعل والفاعل والمفعول والمتعلّقات في بعض الأحيان على هذا الترتيب المذكور فنجده في قوله تعالى :

- ﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه﴾ .

- ﴿وأهديك إلى ربك﴾ .

- ﴿يوم يتذكر الإنسان ما سعى﴾ .

﴿يسألونك عن الساعة﴾ .

﴿سنقرئك﴾

- ﴿ونيسرك لليسرى﴾ .

- ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا﴾ .

- ﴿تصلى نارا حامية﴾ .

- ﴿فيعذبه الله العذاب الأكبر﴾ .

- ﴿سندعو الزبانية ﴾ .

- ﴿يومئذ تحدث أخبارها﴾ .

- ﴿ويمنعون الماعون ﴾ .

- ﴿سيصلي نارا ذات لهب﴾ .

القسم الثالث نجده في قوله تعالى :

- ﴿يوم يُنْفَخُ في الصور﴾ .

- ﴿يوم تُبْلَى السرائر﴾ .

أما تأكيد الجملة المضارعية المثبتة فتتنوع وسائله كما تنوعت في تأكيد الجمل الماضوية وإن زادت عليها وسيلة خاصة بالجمل المضارعية وهي نون التوكيد ثقيلة وخفيفة فنجد التوكيد ـ بالإضافة الى ذلك ـ بتقديم بعض أجزاء الجملة ، والتوكيد بالقصر بما وإلا ، ولم وإلا ، ولا وإلا والتوكيد بالمفعول المطلق ، والتوكيد اللفظي بإعادة الجملة مرة ثانية .

فما جاء التوكيد فيه بتقديم بعض أجزاء الجملة قوله تعالى :

- ﴿لنخرج به حبا ونباتا﴾ .

- ﴿تعرف في وجوههم نَضْرةَ النعيم﴾ .
- ﴿عينا﴾ يشرب بها المقربون﴾ .
- ﴿على الأرائك ينظرون﴾ .

المقدم شبه جملة (جار ومجرور) .

وما جاء التوكيد فيه بالقصر قوله تعالى :

- ﴿لم يلبثوا إلا عشيةً أو ضُحَاها﴾ .
- ﴿وما يكذِّبُ به إلا كلُّ معتدٍ أثيم﴾ .
- ﴿لا يصلاها إلا الأشقى﴾ .

ولقد يدخل في التوكيد بالقصر قوله تعالى : ﴿وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴾ .

وأما التوكيد بالمفعول المطلق فقد جاء في قوله تعالى :

- ﴿وتأكلون التراث أكلاً لَمّاً﴾
- ﴿وتحبون المالَ حُبّاً جَمّاً﴾ .

فعل + فاعل + مفعول به + مفعول مطلق + صفة

- ﴿وأكيد كيدا﴾ = فعل + فاعل + مفعول مطلق .

وجاء التوكيد اللفظي في موضعين فقط هما في قوله تعالى :

- ﴿كلا سيعملون . ثم كلا سيعلمون﴾ .
- ﴿كلا سوف تعلمون . ثم كلا سوف تعلمون﴾ .

وأما التوكيد بنون التوكيد الثقيلة فنجده في قوله تعالى :

- ﴿لتركبن طبقاً عن طبق﴾ .
- ﴿لترون الجحيم﴾ .

- ﴿ثم لترونها عين اليقين﴾ .
- ﴿ثم لتُسألن يومئذ عن النعيم﴾ .

وجاء التوكيد بنون التوكيد الخفيفة في موضع واحد هو قوله تعالى :

- ﴿لنسفعا بالناصية﴾ .

ب - في حالي النفي المجرد والمؤكد

يميل القرآن الكريم إلى استعمال أداة النفي (لا) في نفي الجمل المضارعية المجردة والمؤكدة فقد بلغ ما أحصيته من ذلك ثماني عشرة جملة ، ويلي ذلك النفي بلم ، فقد وقع في أربعة مواضع والنفي بلما مرة واحدة ، وكذلك جاء النفي بما .

فأما الجمل المنفية بـ(لا) نفيا غير مؤكد بإحدى وسائل التوكيد فعدتها اثنتا عشرة جملة هي :

- ﴿لا يرجون حسابا
- ﴿لا يتكلمون ﴾
- ﴿لا يموت فيها﴾
- ﴿ولا يحيا﴾ .
- ﴿لا يسمن﴾
- ﴿ولا يغني من جوع﴾
- ﴿فلا تنسى﴾
- ﴿بل لا تكرمون اليتيم ﴾ .
- ﴿ولا تحاضُّون على طعام المسكين﴾ .
- ﴿ولا يخاف عقباها ﴾
- ﴿ولا يحض على طعام المسكين﴾ .
- ﴿لا أعبد ما تعبدون﴾

ونظام الجملة فيها يتبع الترتيب الاعتيادي : فالفعل ثم الفاعل ثم المفعول في بعض الأحيان ثم المتعلقات .

وأما الجمل التي وردت منفية (بلم) نفيا غير مؤكد بإحدى وسائل التوكيد فعدتها ثلاث جمل هي :

- ﴿لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب . . .﴾ .
- ﴿لم يلد﴾ .
- ﴿ولم يولد﴾ .

وأما الجملة التي ورد فيها النفي بلما دون وسيلة من وسائل التوكيد ففي قوله تعالى : ﴿لما يقضِ ما أمره﴾ .

وأما النفي المؤكد فنجده في قوله جلَّ وعز :

- ﴿لا يذوقون فيها برداً ولا شرابا﴾ .
- ﴿لا يملكون منه خطابا﴾ .
- ﴿يوم لا تملك نفس لنفس شيئا﴾ .
- ﴿لا تسمع فيها لاغية﴾ .
- ﴿فيومئذ لا يُعذِّبُ عذابَه أحدٌ﴾ .
- ﴿ولا يوثِقُ وَثَاقَه أحَد﴾ .

والنفي في هذه الجمل السابقة (بلا) ونظام الجملة في هذا النوع يتوسط فيه المقدم من تأخير بين الفاعل والمفعول ، وهذا المقدم من تأخير كان جارا ومجرورا في أربع جمل منها ، وكان مفعولا به قدم على الفاعل في جملتين اثنتين .

وأما الجملة التي ورد النفي فيها بـ(لم) مؤكدا بوسيلة من وسائل التوكيد وهي هنا التقديم ففي قوله تعالى : ﴿ولم يكن له كفوا أحد﴾ .

وأما الجملة التي ورد النفي فيها بـ(ما) مؤكدا بتقديم الجار والمجرور ففي قوله تعالى : ﴿وما يغني عنه ماله﴾ .

ثالثاً : الجملة الشرطية :

الشرط في اللغة العربية أسلوب مخصوص ينبغي أن يدرس مستقلا عن غيره[1] ، وهو يتكون من جملتين ترتبط كل منهما بالأخرى ارتباطا وثيقا ، وتكون إحداهما شرطا في حدوث الأخرى أو سببا فيه .

والجملة الشرطية تختلف في نظامها عن الجملة بالمفهوم الذي قدمناه ، فهي تحتوي على جملتين لا تستقل إحداهما عن الأخرى معنى أو تركيبا ، وإن اشتملت كل منهما على طرفي الإسناد ، فالجملة الشرطية تعتمد في وجودها على جملتي الشرط والجواب جميعاً[2] .

ويرى عبد القاهر الجرجاني أن الجملة المعطوفة على جملة الشرط في نحو قوله تعالى : ﴿ومن يكسِب خطيئة أو إثما ، ثم يرم به بريئا ، فقد احتمل بهتانا وإثما عظيما﴾ داخلة في الشرط ، والشرط فيهما معا لا في واحدة دون الأخرى . يقول عبد القاهر تعقيبا على الجملة القرآنية السابقة : ٠ «الشرط ـ كما لا يخفي ـ في مجموع الجملتين لا في كل واحدة منهما على الانفراد »[3] .

وللشرط أدواته المعروفة ، ولكن أصحاب المعاني مضوا يخلعون على كل أداة معنى تفيده ، فقالوا : « إنْ » تفيد الشك ، وإذا تفيد التوقع والاحتمال . . . الخ[4] ولسنا نميل إلى تلك الأحكام العامة التي إن صحت في بعض الاستعمالات لا تصح في غيرها ولم يستقرىء أحد منهم استعمال هذه الأدوات في الأساليب العربية الفصيحة من لدن العصر الجاهلي حتى

---

(١) د . مهدي المخزومي : في النحو العربي : نقد وتوجيه ص ٢٨٤ .
(٢) السابق نفسه .
(٣) عبد القاهر الجرجاني : دلائل الاعجاز ص ١٧٣ .
(٤) السابق ص ٦٣ .

نهاية عصور الاحتجاج ليقطع بهذه الأحكام ، وقد تذكرتُ الآن آية قرآنية فيها (إنْ) اداة شرط ، ولكنها لا تفيد الشك بحال . مع العلم بأنني لم أتكلف البحث عن آيات ـ والآية في سياق وصايا لقمان لابنه ، وهي قوله تعالى : ﴿ يا بني إنها إن تكُ حبةً من خَرْدَلٍ فتكُنْ في صخرةٍ أو في السمواتِ أو في الأرضِ يأتِ بها الله ﴾[1] .

والمتتبع ذلك سوف يظفر بنتائج ربما اختلفت عن تقديراتهم وتقريراتهم .

وبنا الآن أن ننظر في نظام الجملة الشرطية في جزء عمّ ، ونؤثر أن نطلق عليها ذلك حتى لا تلتبس بجملة الشرط التي هي جزء من الجملة الشرطية .

وأول ما نلحظه في ذلك ميل القرآن الكريم لاستخدام أداة الشرط (إذا) ، وهي من أدوات الشرط الأصلية ، فقد وردت في نحو تسع وعشرين جملة من الجمل الشرطية وهي نسبة لا تدانيها فيها أية أداة أخرى من الأدوات التي استخدمت في جزء عمّ ، وقد وردت أداة الشرط والتفصيل (أما) منفردة في ثلاث عشرة من الجمل الشرطية ، ووردت مع إذا مجتمعتين في جملتين اثنتين ، وهاتان الأداتان هما المفضلتان في الاستعمال القرآني للجملة الشرطية في جزء عمّ . وقد وردت أدوات شرط أخرى هي (إنْ) مرتين ، و(مَنْ) مرتين ، و(لو) مرة واحدة .

فإذا نظرنا إلى الجمل الشرطية التي أداتها (إذا) وجدنا نظام الجملة فيها يتخذ ثلاثة أشكال :

أولاً : أداة الشرط إذا + اسم + جملة فعلية فعلها مبنى للمجهول أو

---

(١) لقمان ١٦ .

مطاوع وهو في معنى المبنى للمجهول وجمل هذا النوع هي :

- ﴿إذا الشمس كورت﴾ .
- ﴿وإذا النجوم انكدرت﴾ .
- ﴿وإذا الجبال سيرت﴾ .
- ﴿وإذا العشار عطلت﴾ .
- ﴿وإذا الوحوش حشرت﴾ .
- ﴿وإذا البحار سجرت﴾ .
- ﴿وإذا النفوس زوجت﴾ .
- ﴿وإذا المؤودة سئلت بأي ذنب قتلت﴾
- ﴿وإذا الصحف نشرت﴾ .
- ﴿وإذا السماء كشطت﴾ .
- ﴿وإذا الجنة ازلفت﴾ .

وهذه الجمل وردت متعاطفة في سورة واحدة ، وكررت إذا مع كل منها ، ولم يأت لها جميعاً إلا جواب واحد هو قوله جل وعز : ﴿**علمت نفس ما أحضرت**﴾ .

- ﴿إذا السماء انفطرت﴾
- ﴿وإذا الكواكب انتثرت﴾
- ﴿وإذا البحار فجرت﴾
- ﴿وإذا القبور بعثرت﴾

ثم يأتي فعل الجواب متنوعا فيكون ماضيا أو مضارعاً أو أمراً . وقد يتقدم على الجواب بعض المتعلقات وقد يعطف على جملة الشرط بجملة أخرى ، ونجد جمل هذا النوع في قوله تعالى :

- ﴿ثم إذا شاء أنشره﴾ .
- ﴿إذا اكتالوا على الناس يستوفون﴾ .
- ﴿وإذا كالوهم أو وزنوهم يُخْسِرون﴾ .
- ﴿وإذا مروا بهم يتغامزون﴾ .
- ﴿وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين﴾ .
- ﴿وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون﴾ .
- ﴿وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون﴾ .
- ﴿إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك . . .﴾ .

ولم يخالف عن هذا النظام إلا جملة واحدة جاء فيها فعل الشرط مضارعاً مبنيا للمجهول وفعل الجواب ماضيا وذلك في قوله تعالى : ﴿إذا تُتْلَى عليه آياتنا قال أساطير الأولين﴾

الثالث : وتأتي أداة الشرط (إذا) متلوه بفعل ماض غالبا هو فعل الشرط ، اما الجواب فغير محدد ، واختلف المفسرون فيه بين الذكر والحذف . ونقع على جمل هذا النوع في قوله جلَّ وعز :

- ﴿فإذا جاءت الطامة يوم يتذكر الإنسان ما سعى وبرزت الجحيم لمن يرى فأما من طغى . .

- ﴿فإذا جاءت الصاخة يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه﴾

- ﴿إذا السماء انشقت وأذنت لربها وحقت وإذا الأرض مُدَّت وألقت ما فيها وتخلت وأذنت لربها وحُقَّت . يأيها الإنسان إنك كادح ... ﴾ .

- إذا زلزلت الأرض زلزالها ، واخرجت الأرض أثقالها ، وقال الإنسان ما لها يومئذ تحدث أخبارها ... ﴾ .

ويستخدم القرآن الكريم (أما) وهي أداة شرط وتفصيل « أما أنها شرط فبدليل لزوم الفاء بعدها نحو فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم . وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلاً . ولو كانت الفاء للعطف لم تدخل على الخبر إذ لا يعطف الخبر على مبتدئه ، ولو كانت زائدة لصح الاستغناء عنها ولمَّا لم يصح ذلك ، فقد امتنع كونها للعطف وتعين أنها فاء الجزاء ... وأما التفصيل فهو غالب أحوالها كما تقدم في آية البقرة ومن ذلك أما السفينة فكانت لمساكين ، وأما الغلام ، وأما الجدار . الآيات . وقد يترك تكرارها استغناء بذكر أحد القسمين عن الآخر أو بكلام يذكر بعدها في موضع ذلك القسم »[1] .

والقرآن الكريم في استخدامه لأمَّا يلتزم تكرارها ويلتزم مع هذا التكرار نظاما دقيقا للجملة منضبطا يكاد يكون منطبقا مع جملة أمّا المكررة . فإنك لتجد الجملتين متشابهتين في نظام ترتيب الكلمات تشابها يكاد يكون تاما ، بل لقد تم في بعض المواضع مما سنذكره الآن .

١ - فأما مِن طغى / وآثر الحياة الدنيا / فإن الجحيم هي المأوى وأما من خاف مقام ربه / ونهى النفس عن الهوى / فإن الجنة هي المأوى .

٢ - أما من استغنى / - / فأنت له تصدى . وأما من جاءك يسعى / وهو يخشى / فأنت عنه تلهى .

---

(١) ابن هشام : مغني البيب ١ / ٥٣ .

٣ ـ فأما من أوتي كتابه بيمينه / فسوف يحاسب حسابا يسيرا / وينقلب إلى أهله مسروا/وأما من أوتي كتابه وراء ظهره / فسوف يدعو ثبورا / ويصلى سعيرا .

٤ ـ فأما / سن / ثقلت / موازينة / فهو في عيشة راضية وأما / من / خفت / موازينة / فأمه هاوية .

٥ ـ فأما / مَنْ / أعطى / واتقى / وصدق / بالحسنى / فسنيسره / لليسرى. وأما / مَنْ / بخل / واستغنى / وكذب / بالحسنى / فسنيسره / للعسرى .

وانظر إلى هذا المثال الأخير كيف تطابقت كلماته في نظام تأليفها وترتيبها ، وكيف تضادت معانيه فهو المتفق المختلف !

ونلحظ فوق ذلك أن (أمّا) يليها في كل الأمثلة التي ذكرناها آنفاً (مَنْ) التي هي اسم موصول ، وهو يعرب مبتدأ ، وقد خالف القرآن الكريم عن هذا النظام في ثلاث جمل متتالية كررت فيها (أمّا) فجاء بالمفعول مقدما على الفعل وفاعله ، وذلك في قوله تعالى :

- ﴿فأما اليتيمَ فلا تقهر﴾ .
- ﴿وأما السائل فلا تنهر﴾ .
- ﴿وأما بنعمةِ ربك فحدث﴾ .

قال برجشتراسر : « ومثل هذا نادر ، والعادة أن يتلو أما (مبتدأ جملة اسمية) »[1] .

وما اجتمعت فيه (أما) و(إذا) قوله تعالى :

---

(١) برجستراسر : التطور النحوي ص ٨٩ .

ـ فأما / الإنسان / إذا / ما ابتلاه / ربه / فأكرمه / ونعمه / فيقول / ربي / أكرمن .

ـ وأما / ـ / إذا / ما ابتلاه / ـ / فقدر عليه رزقه / فيقول / ربي / أهانن .

ونظام الجملة فيهما كلتيهما يوشك أن يتفق في ترتيب الكلمات ، وهذا من بديع تقسيم القرآن للجمل وتفصيل الكلمات مع (أما) التي تفيد هذا التفصيل .

ويستخدم القرآن الكريم من أدوات الشرط (مَنْ) في جملتين عطفت إحداهما على الأخرى ، ونظام الجملتين يتطابق في تأليف كلماته تطابقاً تاما يثير الإعجاب ، وذلك في قوله تعالى :

﴿فمن / يعمل / مثقال / ذرة / خيرا / يره﴾ .

﴿ومن / يعمل / مثقال / ذرة / شرا / يره﴾ .

ولم تختلف الجملتان نظاما إلا حين استخدم القرآن الكريم حرف الشرط (إنْ) فقد جاءت إحدى الجملتين محذوفة الجواب ودل عليه فعل سابق كما في قوله تعالى : ﴿فذكر إن نفعت الذكرى﴾ على معنى ذمهم واستبعاد نفع التذكير فيهم[1] ، والتقدير « ان نفعت الذكرى ، وان لم تنفع فذكر » . والثانية جاءت في سياق قسم مؤكد ، وأكد الفعل في جواب الشرط بنون التوكيد الخفيفة ، وذلك في قوله تعالى : ﴿كلا لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية﴾ .

ويستخدم القرآن الكريم حرف الشرط (لو) في موضع واحد ويكون

---

(١) ابن هشام : مغني اللبيب ١ / ٢١ ـ ٢٢ .

معه الجواب محذوفاً مثل قوله تعالى : ﴿ لو تعلمون علم اليقين ﴾ والتقدير (لارتَدَعْتُم)[1] .

رابعاً : الجملة الاستفهامية :

الاستفهام في اللغة العربية حقيقته طلب الفهم[2] ، وهذا الفهم إما أن يتعلق بالمسند إليه أو يتعلق بالاسناد ذاته ، فإن كان الأول فهو التصور بمصطلح النحاة ، وإن كان الثاني فهو التصديق .

وللتصور والتصديق ـ فيما يرى النحاة ـ أدوات تدل عليهما : فهل مختصة بطلب التصديق ، والهمزة لطلب التصور ، ولطلب التصديق ، وسائر الأدوات للتصور دون التصديق[3] .

والهمزة أم الباب فيما يرى النحاة ، ولذلك خصت بأحكام هي[4] :

أ ـ جواز حذفها .

ب ـ ورودها للتصور وللتصديق .

جـ ـ دخولها على الإثبات وعلى النفي .

د ـ وجوب تصديرها .

وقد يخرج الاستفهام بالهمزة عن حقيقته فيأتي لثمانية معان فيما يذكر ابن هشام[5] هي :

١ ـ التسوية — ٢ ـ الإنكار الابطالي

٣ ـ الإنكار التوبيخي — ٤ ـ التقرير

---

(١) السابق ٢ / ١٧٥ .

(٢) السابق ١ / ٩ .

(٣) ابن هشام : مغني اللبيب ١ / ١٣

(٤) السابق : ١ / ١١ وما بعدها .

(٥) ابن هشام : المغني ١ / ١٥ وما بعدها .

٥ ـ التهكم ٦ ـ الأمر

٧ ـ التعجب ٨ ـ الاستبطاء

والناظر في استعمال القرآن الكريم للهمزة في جزء عمّ يجدها أكثر الأدوات استعمالا إذ وردت في نحو عشرين موضعاً من جزء عمّ . أما غيرها فلم يرد إلا في أقل من نصف هذا العدد فوردت ما الاستفهامية في نحو ثمان جمل ، وهل في نحو ست ، وكيف في أربع ، ووردت الأدوات ، أيان ، وأين ، وأي ، وأنّى : كل منها مرة واحدة .

وقد وردت الهمزة : إذا سلمنا ما يراه النحاة من نسبة المعاني إلى الأدوات ـ للاستفهام على الحقيقة أي طلب الفهم المستلزم إجابته في موضع واحد من جزء عمّ فيما أرى وهو قوله تعالى : ﴿أأنتم أشد خلقا أم السماء ؟﴾ والتقدير أم السماء أشد ؟ ليحملهم على الإجابة بأن السماء أشد ، فإذا كان كذلك كان خلقهم مرة أخرى أهون عليه . ثم خرجت الهمزة في غير ذلك إلى معان أخرى هي التقرير والإنكار والتعجب . ومن هذه المعاني :

أولاً : التقرير : وذلك في قوله تعالى :

- ﴿ألم نجعل الأرض مهادا . . .﴾ .
- ﴿ألم تر كيف فعل ربك بعاد﴾ .
- ﴿ألم نجعل له عينين﴾ .
- ﴿ألم يجدك يتيما﴾ .
- ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ .
- ﴿ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل﴾ .
- ﴿ألم يجعل كيدهم في تضليل﴾ .
- ﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ .

ونظام الجملة في الاستفهام التقريري يكون كالآتي :

(الهمزة التي تستخدم للاستفهام الإنكاري + أداة نفي يغلب أن تكون لم + فعل مضارع وفاعله ، ثم المتعلقات) .

وقد تكون الهمزة للإنكار ، وتأتي معها (كيف الاستفهامية) فيتحول الإنكار بها إلى التقرير نحو قوله تعالى : **﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف** خلقت ، **وإلى** السماء كيف رفعت . **وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض** كيف سطحت﴾ . فقد كانت الهمزة في قوله تعالى : **﴿أفلا ينظرون﴾** للإنكار فلما دخلت كيف علقت الفعل ينظرون عن العمل ، وصار معنى الهمزة الاستفهام التقريري[1] .

ثانيا : الإنكار والتعجب :

وقد يخرج الاستفهام إلى الإنكار فقط أو التعجب فقط أو إليهما معاً ، ونجد ذلك في قوله تعالى :

- **﴿ أئنا لمردودون في الحافرة ﴾**	(إنكار وتعجب)
- **﴿ أئِذَا كُنَّا عظاما نَخِرة ﴾**	(إنكار وتعجب)
- **﴿ ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ﴾**	(إنكار)
- **﴿ أيحسب أن لَنْ يقدرَ عليه أحد ﴾**	(إنكار وتعجب)
- **﴿ أيحسب أن لم يره أحد ﴾**	(إنكار وتعجب)
- **﴿ أرأيت الذي ينهي عبداً إذا صلى ﴾**	(إنكار وتعجب)
أرأيت إن كان على الهدى ﴾	(إنكار)
- **﴿ أرأيت إن كذب وتولى ﴾**	(إنكار)
- **﴿ ألم يعلم بأن الله يرى ﴾**	(إنكار وتهديد)
- **﴿ أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور ﴾**	(إنكار وتعجب)

---

(١) محمد الطاهر بن عاشور : التحرير والتنوير ص ٢٥١ .

- ﴿ **أرأيت الذي يكذب بالدين** ﴾ **(تعجب فقط)** .

ونظام الجملة مع الاستفهام الإنكاري أو التعجبي أو الإنكاري التعجبي متنوع ولا تلتزم فيه طريقة واحدة في تأليف الكلمات ، فقد يدخل حرف الاستفهام على جملة فعلية فعلها ماض أو مضارع مثبت أو منفي ، ويدخل على (إنّ) التي تؤكد مضمون الجملة الإسمية ، وقد يدخل على (إذا) وهي ظرف لما يستقبل من الزمان وفيها معنى الشرط .

أما استعمال القرآن الكريم لما الاستفهامية فيكثر فيه اقترانها بفعل الدراية الماضي المعدّى بالهمزة (أدرى) فقد ورد في عشرة مواضع من جزء عمّ وذلك في قوله تعالى :

- ﴿ **وما أدراك ما يوم الدين** ﴾ توكيد لفظي .
- ﴿ **ثم ما أدراك ما يوم الدين** ﴾ .
- ﴿ **وما أدراك ما سجين** ﴾ .
- ﴿ **وما أدراك ما عليون** ﴾ .
- ﴿ **وما أدراك ما الطارق** ﴾ .
- ﴿ **وما أدراك ما العقبة** ﴾ .
- ﴿ **وما أدراك ما ليلة القدر** ﴾ .
- ﴿ **وما أدراك ما القارعة** ﴾ .
- ﴿ **وما أدراك ماهيه** ﴾ .
- ﴿ **وما أدراك ما الحطمة** ﴾

ونظام [illegible] هذه الجملة ثابت مطرد يمكن إيجازه فيما يأتي :

استفهامية [illegible] أدراك + ما (استفهامية) + اسم مستفهم عنه) .

الاستفهامية مرة واحدة في جزء عمّ مخالفاً عن هذا النظام السابق وذلك في قوله تعالى : ﴿ وما يدريك لعله يزكى ﴾ .

وتأتي ما الاستفهامية مسبوقة بحرف جر فتحذف ألفها ويليها بعد ذلك فعل كما في قوله تعالى : ﴿ عـم يتساءلون ﴾ ، أو ضمير كقوله جل وعز : ﴿ فيم أنت من ذكراها ﴾ ، وفي غير ذلك قد يأتي بعدها جار ومجرور كما في قوله تعالى : ﴿ وما عليك ألا يزكى ﴾ ، ﴿ وقال الإنسان : ما لها ؟ ﴾ أو يأتي فعل مضارع كما في قوله : ﴿ فما يكذبك بعد بالدين ﴾ .

ويستخدم القرآن في جزء عمّ من أدوات الاستفهام « هل » ويحتمل الاستفهام معها أن يكون على الحقيقة ، وأن يكون للتقرير ، وذلك في قوله تعالى :

- ﴿ هل أتاك حديث موسى ﴾ .
- ﴿ هل أتاك حديث الجنود ﴾ .
- ﴿ هل أتاك حديث الغاشية ﴾ .

وذلك أن المخاطب إما أن يكون على ذُكْرٍ مما يساق إليه من حديث فيكون الاستفهام للتقرير ، أو لا يكون على ذكر منه فيكون الاستفهام على حقيقته .

ونظام الجملة يتبع في ذلك ترتيباً ثابتاً يمكن أن نلخصه بالآتي :

(هل + أتاك + حديث + مضاف إليه) .

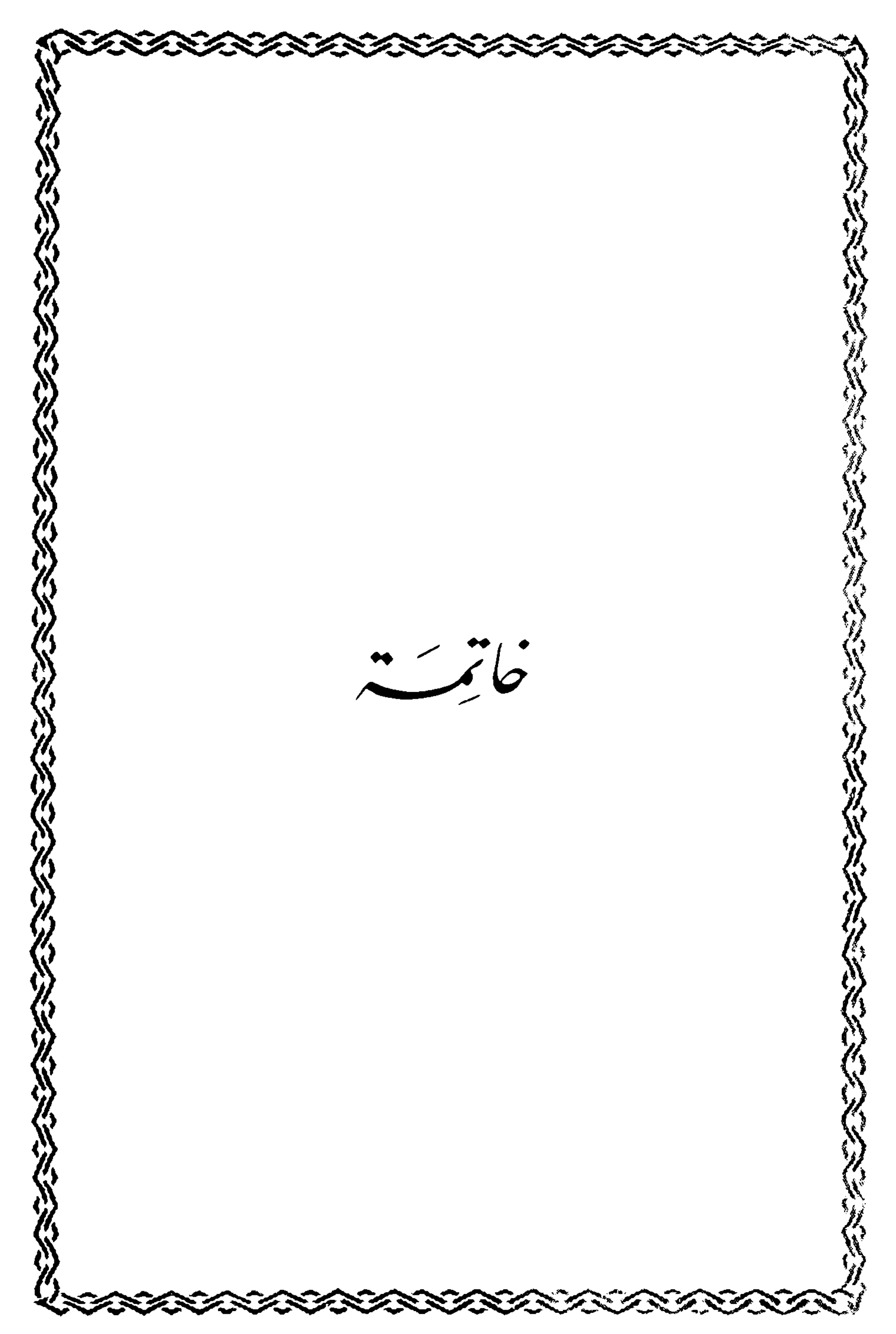
أو للعرض وطلب الامر برفق نحو قوله تعالى : ﴿ **هل لك إلى أن تزكى** ﴾ .

يقول أبو حيان في البحر المحيـط : « وتقول العرب هل لك في كذا ، أو هل لك إلى كذا فيحذفون القيد الذي تتعلق به « إلى » أي هل لك رغبة أو حاجة إلى كذا أو سبيل إلى كذا »[1] .

وترد للاستفهام في جزء عمّ أدوات أخرى هي (أيان) في قوله تعالى : ﴿ **أيان مرساها** ﴾ و« أين » في قوله : ﴿ **فأين تذهبون** ﴾ و(أي) في قوله ﴿ **في أي صورة ما شاء ركبك** ﴾ و(أنى) في قوله جل وعز ﴿ **وأنّى له الذكرى** ﴾ .

---

(١) أبو حيان : البحر المحيط ٨ / ٤٢١ .



خاتِمَة

من خلال الدراسة النصية للغة القرآنية في جزء عمّ استطاع البحث أن يقف على ما تميز به الاستخدام القرآني للغة في هذا الجزء من القرآن ، وذلك على النحو الآتي :

أ ـ في مجال الثروة اللفظية :

(١) لا يجد القرآن الكريم غضاضة في استعمال الألفاظ الغريبة ، إثارة للانتباه ، وإيقاظاً للأذهان ، وحفزاً للهمم إلى تعرف معانيه .

(٢) أضاف القرآن الكريم ثروة من الألفاظ الاصطلاحية جاز بها معانيها اللغوية إلى معانٍ اسلامية جديدة اقتضتها العقيدة الدينية ، وما جاء به الإسلام من شعائر وعبادات .

(٣) ظهر للباحث بعد إحصاء دقيق للمواد اللغوية المستعملة في جزء عمّ وفرة المادة المستعملة في جزء عمّ وتنوعها مما يؤدي بالضرورة إلى تنوع المعاني ، وكانت الألفاظ الدينية هي الغالبة على غيرها في الاستعمال ، إذ كان هذا الجزء من القرآن معنيا بالدعوة إلى العقيدة واقرارها في النفوس .

ب ـ في المجال الصوتي :

(١) تتخذ اللغة القرآنية من الصوت المتكرر وسيلة بلاغية لتصوير

الموقف وتجسيمه والإيحاء بما يدل عليه معتمدة في ذلك على ما تتميز به بعض الألفاظ من خصائص صوتية ، وما تشيعه بجرسها الصوتي من نغم يسهم في إبراز المعنى المراد .

(٢) من السمات الواضحة للغة القرآنية في جزء عمّ تكرار القالب الصوتي للتعبير الذي تؤلف فيه الألفاظ في نظام دقيق محكم يتكرر فتجد له الأذن لذة ، وفي تكراره متعة ، تجعله قريباً إلى النفس سريع العلوق بالقلب ، سهلا في حفظه وترتيله ، وهذا القالب الصوتي مَقِيس في كثير من المواضع بدقة متناهية . وقد تلجأ البلاغة القرآنية إلى العودة إلى قالب صوتي سابق بعد فاصل كبير .

(٣) يكثر القرآن الكريم في جزء عمّ من استخدام الفواصل القرآنية . فلا تكاد تجد سورة تخلو منه وأهم سمات الاستخدام القرآني لهذه الفواصل ما يأتي :

أ ـ الخروج على رتابة الإيقاع بإحدى وسيلتين : المراوحة بين القرائن في الطول ، وما أسميته التصاعد النغمي .

ب ـ التوازي ، باتفاق أواخر القرائن في الوزن والروي ، وقد يزيد القرآن على ذلك لزوم ما لا يلزم ، وبعض المحسنات الصوتية الأخرى مثل الجناس الاستهلالي ، والفواصل الداخلية .

حـ ـ التوازن ، باتفاق أعجاز القرائن في الوزن دون الروي .

د ـ التطريف ، باتفاق الأعجاز في الروي دون الوزن مع تحقيق لون من التناسب أو التشابه المقطعي بين اللفظتين .

هـ ـ الترسل ، بالتخلي عن الوزن والروي في الفواصل ، والاعتماد على تناسب المقاطع وتطابقها في كثير من الأحيان .

(٤) يستخدم القرآن الكريم المقاطع الصوتية استخداما فنيا بارعا فيلجأ إلى المقاطع المفتوحة في مقام التذكير والتقريع ، أو في وصف النعيم ، وأسبابه ، وعلاماته ويستخدم المقاطع المقفلة في مواضع الحزم والفصل القاطع .

حـ ـ في المجال الصرفي :

تستعمل اللغة القرآنية في جزء عم الظواهر الصرفية في أغراض أسلوبية مختلفة ومن ذلك :

(١) استخدام المبنى للمجهول حين يتعلق الغرض بغير الفاعل ، أو حين يتعلق بالفاعل وإن كان محذوفاً ، أو في الدعاء .

(٢) شيوع التعبير بالنكرة في جزء عم لأنها تناسب المسائل العامة التي عرض لها القرآن في هذا الجزء كذكر دلائل قدرة الله ، ونعمه على خلقه ووصف يوم القيامة وما يصاحبه من أحداث جسام ، وما يحدث فيه من ثواب وعقاب إلى غير ذلك من أمور يناسبها التعميم أكثر مما يناسبها التخصيص . على أن البلاغة القرآنية قد خرجت بالنكرة عن معنى الشيوع إلى معان أخرى أكتسبتها من المقام كالتحقير والاستغراق والتهويل والتعظيم والتوالي .

(٣) من خصائص الاستعمال القرآني للضمير في جزء عم : حذف المعاد أو المرجع والتضمين والالتفات ، واستخدام ضمير الشأن حين يراد الاهتمام بالحدث أو تفخيمه وتعظيمه ، وإفراد الضمير إذا احتمل المعاد الإفراد وغيره ، ثم الإظهار في موضع الإضمار .

(٤) يستخدم القرآن الكريم الكنية في موضع الذم والتحقير ، واسم

الإشارة للاستبعاد والتهكم والتقريع والاسم الموصول حين تكون صلته مناط الحكم وموضع الاهتمام، وإرادة الجنس والتشويق ، ويستخدم (أل) الجنسية استخداما متميزا في بعض المواضع لا يستغرق أفراد الجنس كله على سبيل المبالغة والادعاء ، ولا لقصد بيان حقيقته ، وإنما للتعبير عن متعدد دون استغراق ويستخدم المضاف إلى معرفة للتهويل ، والتعظيم ، وزيادة التأكيد ، والإيناس وقد ترد الإضافة في جزء عمّ لأدنى ملابسة .

(٥) يعمد القرآن الكريم إلى إحلال صيغ محل أخرى كوضع المشتق موضع الجامد ووضع الجامد موضع المشتق ، والمشتق موضع المشتق ، والمجرد موضع المزيد .

(٦) يستخدم القرآن الكريم في جزء عمّ صيغة الماضي الاستمراري (كان يفعل) التي تدل على استمرار الحدث في الماضي استخداما فنيا يوائم بين معناها الوظيفي ومعناها السياقي .

(٧) يلجأ القرآن الكريم إلى حذف بعض الأصوات في الكلمة رعيا على النسق الموسيقي ، وهذا الحذف نوعان : نوع يقع في أول الصيغة ، ونوع يقع في آخرها ولم يأت إلا في الفواصل القرآنية .

(٨) من خصائص البيان القرآني في جزء عم أنك تجد عدداً من الألفاظ يحتمل بوزنه الصرفي أكثر من صيغة ، فإذا التمست في المقام ما يصرفك إلى صيغة واحدة من الصيغ لم تجد إلى ذلك سبيلا ، وهو نوع من اللبس الحاذق لا تملك إزاءه إلا التسليم باحتمالاته جميعا .

د ـ في المجال النحوي أو التركيبي :

(١) السمة الغالبة على الجملة الاسمية المثبتة في جزء عمّ أنها تتبع الترتيب الاعتيادي لنظام الجملة العربية ، فالمبتدأ مقدم والخبر مؤخر في الكثرة الغالبة منها .

(٢) وسائل التوكيد في الجملة الاسمية متنوعة ، ودرجاته متعددة ففيها التوكيد بمؤكد واحد ، وبمؤكدين ، وبثلاثة مؤكدات ، وهذا أقصى ما وصل إليه التوكيد في جزء عمّ .

(٣) يفضل القرآن الكريم في نفي الجملة الاسمية في جزء عم استخدام أداة النفي (ما) على غيرها من الأدوات .

(٤) الكثرة الغالبة من الجمل الفعلية الماضوية المثبتة في جزء عم تتبع النظام الاعتيادي في تركيب الجملة فالفعل مبنيا للمعلوم ، ثم الفاعل ، ثم المفعول إن وجد ، ثم سائر الملحقات .

(٥) نفي الجمل الماضوية قليل في جزء عم ، وأداة النفي المفضلة في ذلك هي (ما) .

(٦) الغالب على الجمل المضارعية المثبتة المجردة من التوكيد أن يأتي الفعل وفاعله دون أن يتعدى إلى مفعول به ، وإن جاءت بعض الملحقات .

(٧) يكثر القرآن الكريم في جزء عم من استخدام كلمة (يوم) مع المضارع المثبت .

(٨) تتنوع وسائل التوكيد في الجملة الفعلية ، فنجد التوكيد بالتقديم ، والتوكيد بالقصر ، والتوكيد بالمفعول المطلق ، والتوكيد اللفظي بإعادة الجملة مرة أخرى .

(٩) يميل القرآن الكريم إلى استخدام أداة النفي (لا) في نفي الجمل المضارعية المثبتة والمؤكدة .


al-maktabeh
www.
.com
مكتبة
المهتدين

الفهرست